الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي بغرداية
معهد : العلوم الانسانية والاجتماعية
قسم : التاريخ

علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

مذكرة شهادة الماجستير في تخصّص : التاريخ الحديث

إعداد الطالب :
الشافعي درويش

إشراف :
الأستاذ الدكتور عمّار بن خروف
المشرف المساعد :
الدكتور صالح بوسلي

السنة الجامعية : 1431 هـ - 1432 هـ / 2010 م – 2011 م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي بغرداية
معهد : العلوم الانسانية والاجتماعية
قسم : التاريخ

علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

مذكرة شهادة الماجستير في تخصّص : التاريخ الحديث

إعداد الطالب :
الشافعي درويش

إشراف :
الأستاذ الدكتور عمّار بن خروف

المشرف المساعد :
الدكتور صالح بوسليم

لجنة المناقشة

الأستاذ الدكتور : مختار حساني رئيسا
الأستاذ الدكتور : عمّار بن خروف مشرفا مقررا
الدكتور : صالح بوساليم مشرفا مساعدا
الأستاذة الدكتورة :عائشة غطاس عضوا مناقشا
الدكتور :شكيب بن حفري عضوا مناقشا

السنة الجامعية : 1431 هـــ – 1432 هـــ / 2010 م – 2011 م

بسم الله الرحمَان الرحيم

إهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى والِدايّ الّلذين أنجباني ، وكذلك والِديّ الّلذين ربياني ، وإلى زوجتي الّتي شجعتني ، وساندتني على مواجهة الصعوبات ، وإلى ولديّ خلود سهيلة ، ومحمد حسين الّلذين أهملتهما من أجل إنجاز هذه الدراسة ، وإلى أستاذي المشرف المحترم ، وإلى كل من قدّم لي العون من قريب أو بعيد ، وإلى كل من درّسني حرفا.إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع .

شكر وتقدير

أتقدّم بالشكر الجزيل إلى أستاذي المشرف ؛ الأستاذ الدكتور عمّار ابن خروف على قبوله الإشراف علّي من أجل إنجاز هذا العمل ، وعلى المساعدة الكبيرة التي قدمها لي من توجيهات قيّمة ، ونصائح ثمينة ، كما أشكره على تفضُّله بقراءة مذكرتي الفصل تلو الآخر ، وعلى تصحيحه لي الأخطاء.كما أشكره على صبره وتواضعه معي .
كما لا يفوتني أن أتقدّم بالشكر الجزيل للأستاذ المشرف المساعد الدكتور صالح بوسليم على نصائحه الهامة التي قدمها لي ، وعلى تصحيحه لي الأخطاء ، أشكره على صبره وعلى تواضعه معي ، وتقديمه لي العون ، والمساعدة .
كما لا يفوتني أن أتقدّم بالشكر الجزيل إلى اللجنة المحترمة ، التي قبلت مناقشة عملي المتواضع ، ومنحتني هذا الشرف العظيم .

الطالب : الشافعي درويش

المختصرات

القسم العربي:

الرمز	المعنى
ص	صفحة
ص ص	صفحات عديدة متلاحقة
ط	طبعة
ج	جزء
م ت م	المجلة التاريخية المغربية

القسم الأجنبي:

p	**page**
pp	**Pages contenues**
T	**Tome**
N°	**Numéro**
RA	**Revue Africaine**
ENAL	**Entre prise Nationale Algérienne de Livres**


مقـــدمـــة

شهدت منطقة حوض البحر المتوسط الغربي خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي تطورات عديدة ، وتغيرات هامة في العلاقات التي كانت قائمة بين مختلف الدول المطلة عليه ، مست جوانب مختلفة منه . وكان لها انعكاسات هامة .جعلتني اختارها موضوع بحث في مذكرتي لنيل درجة الماجستير ، تحت عنوان : **علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .**

تمثل هذه المرحلة التاريخية جزءا هاما من تلك التحولات ، إن لم نقل محوريا ؛ أثّر في باقي علاقات الضفتين خلال فترة قرن كامل من الزمن . فقد شكلت العلاقات بين إسبانيا والإيالات العثمانية في غرب المتوسط ؛ مرحلة هامة من تاريخ العلاقات بين بلدان المغرب الإسلامي ، وأوربا المسيحية في الفترة الحديثة . تميزت بالصراع بين بلدان المغرب الإسلامي ، وإسبانيا إلى درجة أن بعض المصادر تصف القرن السادس عشر ؛ بقرن الصراع الإسلامي مع إسبانيا المسيحية في حوض البحر المتوسط ، خاصة الجزء الغربي منه .

لقد تميزت العلاقات بين الضفتين خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، بظهور إسبانيا كإمبراطورية قوية بعد استكمال وحدهّا السياسية ، وشنها الحرب ضد المسلمين ، خاصة في بلدان المغرب الإسلامي ، شجعتها في ذلك الكنيسة الكاثوليكية الحاقدة على الإسلام ، و تحركها الدوافع المختلفة : الدينية ، والاقتصادية ، والإستراتجية ، والأمنية .

كما تميزت المرحلة في الجهة الجنوبية المقابلة لإسبانيا ؛ بظهور إمارات ضعيفة متصارعة ، في بلدان المغرب الإسلامي ، التي تمثل الضفة الجنوبية من غرب المتوسط ، ومقسمة ، وتعاني من عدم الاستقرار السياسي . مما جعلها عرضة للهجمات الإسبانية والبرتغالية ، اللتين قسمتا تلك البلدان في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وجعلتاها مناطق نفوذ بينهما. فكانت النتيجة أن وقعت كل الموانئ المغربية تحت الهيمنة الإيبيرية مع مطلع القرن السادس عشر .

والحقيقة أن دواعي اختياري لهذا الموضوع عديدة منها :

1- إن موضوع العلاقات بين الإيالات العثمانية في غرب المتوسط ، وإسبانيا خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ؛ مهم ، لما تميزت به تلك العلاقات من تطورات ، وتشابك بين دول الحوض الغربي للمتوسط .

2- إن معظم الدراسات المتوفرة اليوم ؛ في مجال العلاقات بين ضفتي المتوسط خلال الفترة الحديثة، تتركز اهتماماتها حول العلاقات بين بلدان المغرب الإسلامي ، وفرنسا . لذلك أردت التميّز فاخترت بينها ، وبين إسبانيا .

3- إن الأبحاث المتعلقة بالعلاقات مع إسبانيا ، تفتقر إلى الشمولية ، فهي في الغالب علاقات بين بلد واحد : كالجزائر ، أو المغرب ، أو تونس ، وبين إسبانيا . لذلك أردت إثـــراء الموضـــوع ، بدراسة تشمل كل الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا ، ولو لم يكن المغرب الأقصى خارج الإيالات العثمانية ، لأخذته ضمن هذه الدراسة .

4- أن الأستاذ المشرف هو الذي اقترح عليّ هذا الموضوع ، بعدما كنت مترددا وفي حيرة مـــن من أمري ، فأعجبني لأني وجدته مميزا ، وجديرا بالبحث .

الهدف من هذه الدراسة :

إن الهدف من هذه الدراسة ؛ هو الخوض في تفاصيل العلاقات بين الإيالات العثمانية في غرب المتوسط ، وإسبانيا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. في مرحلة هامة بالنسبة لتاريخ بلدان المغرب الإسلامي ، وهامة أيضا بالنسبة لتاريخ إسبانيا ، بغية الكشف عن خبايا تلك العلاقات ، وتشابكها اعتمادا على هذا البحث ، لعلّي بذلك أقدّم عملا مفيدا ، لمن يجهل الكثير عن تفاصيل تلك العلاقات.

الإطار الزماني والمكاني للدراسة :

وقد اخترت القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي كإطار زماني لموضوع دراستي هذه ، وذلك نظرا لأهمية هذه الفترة في تاريخ العلاقات بين الضفتين بوجه عام ، والعلاقات بين الإيالات العثمانية في غرب المتوسط وإسبانيا على الخصوص . أما الإطار المكاني فقد اخترت جزءا هاما من الحوض الغربي للمتوسط ، يمثل مركزين من الضفتين أثّرا في العلاقات بين ضفتيه ؛ وهما إمبراطورية إسبانيا الكاثوليكية ، وبلدان المغرب الإسلامي التي انضوت تحت السلطة العثمانية .

أما الإشكالية المطروحة في هذه الدراسة :

فتتعلق بالظروف ، والأوضاع التي تحكمت في العلاقات بين الإيالات العثمانية في غرب المتوسط وإسبانيا خلال القرن 10هـــ / 16م ؟ و مظاهر تلك العلاقات ، وبماذا تميزت ؟ و الطابع الذي غلب عليها ، أهو الحرب أم السلم ؟ وما أثارها وانعكاساتها على الطرفين ، وعلى منطقة حوض البحر المتوسط ؟ .

الدراسات السابقة المتعلقة بالموضوع المقترح بحثه :

تجدر الإشارة إلى أن بعض المصادر الإسبانية ، قد تعرضت الى العلاقات في الفترة موضوع البحث ، في سياق سردها لأحداث القرن 10هـ / 16م ، كما فعل مارمول ، وطوريس ، وغيرهما ، وكذلك فيرناند بروديل في كتابه القيّم : المتوسط وعالمه في عهد فيليب الثاني . لكن تلك المصادر والمراجع ، أخفت الاستفادة من المصادر ، والمراجع العربية ، والمغربية ، والعثمانية .

وتجدر الإشارة إلى أن هناك دراسات علمية دقيقة ، وهامة لا يمكن للباحث في مجال العلاقات تجاوزها ، منها رسالة ماجستير للأستاذ إبراهيم سعيود حول العلاقات بين الجزائر والدويلات الإيطالية خلال القرن السادس عشر الميلادي، ورسالة ماجستير للأستاذة عائشة غطاس حول العلاقات بين الجزائر وفرنسا في القرن السابع عشر ، ورسالة ماجستير للأستاذ عبد القادر فكاير حول الصراع الجزائري الإسباني في غرب المتوسط خلال القرن السادس عشر ، كما لا يفوتني الإشارة إلى ما ألفه الأستاذ عمار بن خروف حول العلاقات بالرغم من أنها علاقات بينية ؛ بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر ، وبين الجزائر وتونس ، لكنها تتطرق في كثير من الأحيان إلى الإشارة إلى العلاقات بين بلدان المغرب الإسلامي وإسبانيا خلال الفترة المدروسة .كما تطرق الأستاذ أمحمد سعيد الطويل إلى العلاقات السياسية والتجارية بين ليبيا ، ودول أوربا المتوسطية من 1795م إلى 1832م . فلذلك حاولت الاستعانة بالمعلومات الهامة والقيمة المنهجية التي تحتويها هذه الدراسات .

المنهج المتبع في الدراسة :

لقد التزمت بالمنهج التاريخي الوصفي التركيبي ، الذي أخذته عن الأستاذ المشرف مشكورا ، باعتباره منهجا صالحا لوصف الأحداث والحقائق التاريخية ، وتحليلها تحليلا تاريخيا علميا ، وموضوعيا.بعيدا عن الذاتية والأحكام الفردية ؛ اعتمادا على قراءة جادة وثاقبة للمصادر التاريخية المتنوعة ، والمراجع المتوفرة ، وبلغات مختلفة .

الخطة المعتمدة في الدراسة :

قسمت هذه الدراسة إلى : أربعة فصول ؛ كل فصل يمثل علاقة إيالة من الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا خلال القرن 10هـ/16م ، وكان الترتيب على حسب انضمام بلدان المغرب الإسلامي إلى الخلافة العثمانية ؛ وبالتالي تحولها إلى إيالات عثمانية ، باستثناء الفصل الأول، الذي هو فصل تمهيدي عن الموضوع . فكانت الخطة على النحو التالي :

الفصل الأول عنوانه : الوضع السياسي في غرب المتوسط في مطلع القرن 10هـ/16م ، وقد قسمته إلى مبحثين على التوالي :

المبحث الأول : تناولت فيه الوضع السياسي الذي ميز الضفة الشمالية من غرب المتوسط ، والتي كان لها دور كبير في العلاقات بين الطرفين خلال القرن 10هـ/16م ؛ وهذه القوى هي كل من إسبانيا التي أفردتها بالأهمية باعتبارها طرفا أساسيا في العلاقات ، والبرتغال ، ثم فرنسا كطرف آخر سيساهم في إحداث نوع من التوازن في العلاقات بين الضفتين ، إضافة إلى جمهوريتي البندقية وجنوة من شبه الجزيرة الإيطالية ،

أما المبحث الثاني : فخصصته إلى الوضع السياسي الذي ميز الضفة الجنوبية من غرب المتوسط خلال القرن 10هـ/16م ؛ ونقصد بها القوى الإسلامية التي تواجدت خلال هذه الفترة ؛ وهي الدولة العثمانية كقوة بحرية ناشئة في المتوسط حققت انتصارات هامة ، والتي ستتحمل مسؤولية حماية المنطقة الإسلامية ، بالاضافة إلى الطرف الآخر الهام في الضفة الجنوبية ، وهو بلدان المغرب الاسلامي ، التي كانت تعاني من الضعف ، والتجزؤ ، وعدم الاستقرار السياسي ، هذه المنطقة ستكون محورا أساسيا في العلاقات .

أما الفصل الثاني عنوانه : العلاقات بين الجزائر والإمبراطورية الإسبانية الكاثوليكية خلال القرن 10هـ/16م ، وقد اخترت هذا العنوان للارتباط الوثيق بين ظهور الجزائر كقوة بحرية ، وانضمامها في وقت مبكر إلى الخلافة العثمانية ، وقد قسمت هذا الفصل بدوره إلى ثلاثة مباحث، حسب تغير وتيرة العلاقات بين إيالة الجزائر ، وإسبانيا :

المبحث الأول : تناولت العلاقات بين الجزائر ، وإسبانيا في الفترة قبل سنة 1520م ، أي قبل ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية ، وتطرقت إلى مميزات هذه المرحلة من العلاقات بين الطرفين .

المبحث الثاني : تناولت فيه العلاقات بين الطرفين في الفترة من 1520م إلى سنة 1558م ، أي منذ ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية ، وبدئها في عمليات التحرير من الاحتلال الإسباني ، ثم محاولات الإسبان تثبيت أنفسهم في السواحل الجزائرية ، إلى فشل المشروع الاستعماري الإسباني في سنة 1558م بمقتل الكونت دالكوديت .

أما المبحث الثالث : فتناولت العلاقات بين الطرفين في الفترة ما بين سنتي 1558م ، و1610م ، وتطرقت فيه إلى مرحلة الانحسار والتراجع الإسباني ، ومساهمة الجزائر في المشاريع العثمانية في حوض المتوسط ضد إسبانيا.

أما الفصل الثالث عنوانه : العلاقات بين طرابلس وإمبراطورية إسبانيا خلال القرن 10هـ/16م ، وقد قسمت هذا الفصل بدوره إلى مبحثين أيضا :

المبحث الأول : العلاقات بين طرابلس ، وإسبانيا في الفترة ما قبل سنة 1551م ، والتي تميزت بالعداء المتواصل بسبب الاحتلال الإسباني لمدينة طرابلس في سنة 1510م ، ثم تسليمها لفرسان مالطة في سنة 1530م ، مع استمرار المقاومة الطرابلسية خلال هذه الفترة .

أما المبحث الثاني : فتناولت فيه العلاقات بين الطرفين بعد سنة 1551م ، أي بعد الفتح العثماني لطرابلس ، وتحريرها نهائيا من الاحتلال ، للتتواصل العلاقات العدائية بين الطرفين نظرا للمساهمة الهامة لطرابلس في المشاريع العثمانية في المتوسط لمواجهة المشروع الاستعماري الإسباني .

أما الفصل الرابع عنوانه : العلاقات بين تونس وإمبراطورية إسبانيا خلال القرن 10هـ/16م ، بدوره قسمته إلى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تناولت فيه العلاقات بين تونس ، وإسبانيا قبل سنة 1535م ، التي تميزت بالتبعية غير المباشرة ، رغم احتلال الإسبان لبعض الموانئ الحفصية ، لأن هذه الأخيرة كانت تعاني من الضعف ، وغير قادرة على حماية مدنها الساحلية .

أما المبحث الثاني : تناولت فيه العلاقات بين الطرفين في الفترة ما بين سنتي 1535م ، و1574م أي مرحلة فرض الحماية الإسبانية على تونس بعد حملة شارلكان عليها .

أما المبحث الثالث : فتناولت فيه العلاقات بين تونس ، وإسبانيا في الفترة ما بين سنتي 1574م ، و1610م ، وتطرقت فيه إلى حملة علج علي حاكم الجزائر سنة 1569م ، ثم الحملة الإسبانية بقيادة دون جوان 1573م ، لتنتهي المرحلة بتحرير تونس نهائيا من الهيمنة الإسبانية ، وضمها إلى الخلافة العثمانية سنة 1574م ، ثم العلاقات بين الطرفين عندما أصبحت تونس إيالة عثمانية .

نقد أهم المصادر والمراجع :

ومن بين المصادر التي ساعدتني كثيرا في هذه الدراسة :

1- **كتاب الغزوات لمؤلف مجهول:** خاصة في الفصل الأول المتعلق بالجزائر باعتباره مصدرا هاما خاصة للنصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، كما ساعدني في المبحث الأول للفصل الثالث الخاص بتونس ، وما يميز هذا المصدر الهام أنه يركز اهتمامه على تتبع أخبار عروج وخير الدين ، دون التركيز على أحداث أخرى وقعت في نفس الفترة ، ومن جهة أخرى لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة الفصل المتعلق بالجزائر .

2- **كتاب المؤنس في أخبار افريقية وتونس:** لابن أبي دينار يعتبر هذا الكتاب مصدرا هاما فيما يتعلق بتاريخ الجزائر ، وتونس خلال الفترة الحديثة . استفدت منه كثيرا في الفصل الأول ، والفصل الثالث ، لكن ما يميزه هو عدم التسلسل المنطقي في تتبع الأحداث التاريخية ، من حيث الرجوع مرات لأحداث سابقة ، كما لا يركز اهتمامه على الحدث التاريخي البحت ، بل يتعداه إلى التطرق إلى مواضيع أخرى ؛ كالطرق الصوفية ، أو الصلحاء ، لذلك فيجب على الباحث التأني في قراءته بدقة .

3- **كتاب المنهل العذب** : لمؤلفه أحمد بك النائب الأنصاري ، **و4- التذكار لابن غلبون الطرابلسي** ، فهي من الكتب الهامة عن تاريخ طرابلس الغرب ، وتتعرض للعلاقات مع الدول الأوربية المتوسطية . لكن المشكل الذي يصادف الباحث في استخدام هذه المصادر رغم أهميتها ؛ أنها لا تتبع منهجا علميا واضحا ، الخط أحيانا غير واضح ، أو مفهوم ، كما أنها لا تتبع تسلسل منطقي للأحداث التاريخية ؛ فهي تنتقل بين الأحداث ، ولا تتبع الحادثة ذاتها ، رغم أنها تكون على قدر كبير من الأهمية .

أما بالنسبة للمصادر الأجنبية المعرّبة ؛ فقد اعتمدت على :

1- **كتاب وصف أفريقيا** : للحسن بن محمد الوزان يعتبر من المصادر الهامة خاصة لمطلع القرن السادس عشر الميلادي ، وهو يؤرخ لكل بلدان المغرب الإسلامي ؛ كما يتطرق بالوصف لكل مناطقها ، التي زارها المؤلف . والكتاب في جزأين .

2- **كتاب أفريقيا** : لمارمول كاربخال رغم أن صاحبه نقل كثيرا من المعلومات عن الوزان ، إلا أن هذا الكتاب يعتبر مصدرا هاما للقرن السادس عشر ، خاصة الحملات الإسبانية على السواحل المغربية .لكن المشكل بالنسبة للمصدرين ، خاصة الثاني يعبر عن وجهة نظر الطرف الإسباني بكل وضوح ، لأنه يكتب بخلفية المستعمر التي تبدو واضحة ، لكن رغم ذلك لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة العلاقات مع إسبانيا خلال الفترة المدروسة . والكتاب في ثلاثة أجزاء .

أما فيما يخص المصادر الأجنبية :

1- **كتاب ملوك الجزائر لهايدو** : **Histoire des Rois d'Alger** فلا يمكن العمل بدونه ، خاصة فيما يتعلق بالفصل الأول ، وحتى الفصل الثالث الخاص المتعلق بعلاقات تونس وإسبانيا ، رغم قوة لغته وصعوبتها ، لكنه يتميز بترجمة فرنسية متقنة .

2- **وثائق المجلة الأفريقية المنشورة : la Revue Africaine** لا يمكن إهمالها ، لأنها تحوي وثائق منشورة هامة عن الفترة الحديثة ، والمتعلقة بعلاقات بلدان المغرب الإسلامي بإسبانيا ؛ خاصة الجزائر ، وتونس ، منها ما نشره إيلي دو لا بريمودي .

أما بالنسبة للمراجع فقد اعتمدت على مراجع عديدة لكني سأذكر بعضا منها ؛ **كتاب إتحاف أهل الزمان** : لأحمد بن أبي الضياف وهو مؤرخ تونسي ، والكتاب في ثلاثة أجزاء ، وهو مهم جدا خاصة فيما يتعلق بالفصل الثالث الخاص بعلاقات تونس وإسبانيا ، كما يؤرخ الجزء الأول منه لتاريخ الدولة الحفصية ،كما استفدت منه في الفصل الأول الخاص بالجزائر. ما يميز هذا المصدر هو تتبع الأحداث دون التحليل المنطقي الموضوعي ، يضاف إلى ذلك مواقف المؤلف الواضحة من الأحداث ، لكنه يبقى من أهم المصادر للفصل الثالث المتعلق بتونس.

كتاب الجزائر وأوربا لجون وولف ، رغم مواقفه الواضحة أحيانا من العلاقات بين الجزائر وإسبانيا ، أو بين تونس وإسبانيا ، أو حتى طرابلس وأسبانيا ، لكنه يبقى من المراجع الهامة جدا ، وقد اعتمدت عليه كثيرا ، كما أن ترجمته دقيقة . وكذلك كتاب المستشرق الايطالي **ايتوري روسي طرابلس تحت حكم فرسان مالطا** ، كما أن ترجمته دقيقة وواضحة . كما أن كتاب **العلاقات بين الجزائر والمغرب الأقصى** في القرن 10هـ/16م لمؤلفه عمار بن خروف ، يتزامن مع نفس الفترة ، وأحاطني بالظروف التي ميزت الجزائر في هذه الفترة ، ومنطقة المغرب الإسلامي عموما ، كما يتعرض إلى الصراع الإسباني المغاربي العثماني في نفس الفترة ، بالإضافة إلى أنني استفدت منه في كسب المنهجية الدقيقة .

أما المراجع باللغة الأجنبية فقد استفدت كثيرا من **كتاب دوغرامون ، وكتاب مرسيي ،** رغم قوة اللغة الفرنسية ، لكن توجد دقة التعبير ، ومتعة القراءة ، مع دقة التفاصيل للأحداث دون إهمال أي شيء ،كما استفدت كثيرا من **الحوليات الطرابلسية لشارل فيرو ،والحوليات التونسية لروسو** ، رغم صعوبة اللغة الفرنسية في الأولى لأن الطبعة قديمة ، وقد تحصلت عليها من المركز الصحراوي بغرداية .

أما عن الصعوبات التي واجهتني في هذه الدراسة :

إن أي دراسة علمية ، أو عمل بحث جاد لا يمكن أن يخلو من صعوبات ، وعراقيل ، خاصة إذا كان صاحبها يريد الخروج بنتائج مرضية ، وموضوعية . ورغم أن موضوع الدراسة شامل وعام ، والقارئ للعنوان للوهلة الأولى يظن أنه سهل ، وأن مادته العلمية متوفرة ، وبغزارة ، لكن

الحقيقة الواقعية غير ذلك .لأن الباحث يجب أن يلم بكل الجوانب ، فعندما تعمقت في الموضوع وجدت عدة صعوبات من أهمها :

1- إن المصادرة والمراجع متوفرة ، للفصل الثاني صحيح لأن موضوع العلاقات بين الجزائر وإسبانيا طرق من قبل من بعض الدراسات الجزائرية ، وحتى الإسبانية ، لكن تلك الغزارة في حد ذاتها ولدت لي مشكلا آخر ؛ وهو تشتتي بين العديد من الآراء والأفكار ، و لم تدع لي مجالا محددا يساعدني على الاختيار . ومن جهة أخرى وقعت في مشكل التكثيف فأصبحت مضطرا إلى ضغط المعلومات ، لإحداث موازنة منطقية مع بقية الفصول ، خاصة وأن حجم الدراسة بشكل عام محدود ، من حيث عدد الصفحات .

2- أما بالنسبة للفصل الثالث فعلى العكس من الأول ، فإن الدراسات حول العلاقات بين طرابلس وإسبانيا ، تبقى شحيحة في المكتبات الجزائرية ، بما فيها المتخصصة . كما أن الكتابات الليبية الموجودة تركز فقط على العهد العثماني الأول والثاني ، أو الفترة المعاصرة ، بينما تهمل فترة القرن السادس عشر ، باستثناء بعض كتابات المستشرقين القليلة .

3- أما فيما يتعلق بالفصل الرابع ، الذي يتعلق بعلاقات تونس وإسبانيا خلال نفس الفترة ، فإن الباحث يجد العناوين الكثيرة ، لكن المادة الملموسة قليلة بالمكتبات الجزائرية . لذلك يضطر الباحث إلى السفر إلى تونس ، لكن هذه بدورها لا تقدم المادة التاريخية مجانا ، فعلى الباحث شراء المادة العلمية وبأثمان باهضة .

4- كما صادفت مشكل الترجمة من اللغات الأجنبية المتعددة إلى العربية ، بالاضافة إلى مشكل الحصول على مصادر المادة ، ولو بالأجنبية ، فقد أخذت الترجمة مني الوقت ، والمال .

5- وكذلك من بين الصعوبات التي واجهتني ؛ مشكل ضيق الوقت فإن المدة المخصصة لإنجاز الدراسة قصيرة

جدا ، إذا ما قورنت بفترات سابقة كان معمولا بها في الجامعات الجزائرية ، فإن الباحث يصبح محاصرا ، ومحدودا بآجال معينة ، وذلك يؤثر سلبا على مردود العمل وطبيعته.

6- المشكل المادي الذي يطرح بحدة ، خاصة مع غلاء المصادر والمراجع ، وتكاليف النسخ ، ومصاريف التنقل ، والسفر من منطقة إلى أخرى بحثا عن المادة العلمية ، إضافة إلى البعد عن المراكز العلمية الهامة كالعاصمة ، خاصة إذا كان الباحث يقيم في منطقة معزولة .

7- مشكل عدم التفرغ ، وعدم وجود وقت كاف ، خاصة إذا كان الباحث مفروض عليه العمل المحتم ، ولا يمكنه ترك عمله ، لأنه مجبر فهو لا يملك مدخولا غير عمله ، خاصة إذا كان مثل حالتي يعمل أستاذا ثانويا ، وهو مراقب ومحاسب من طرف المدير ، والمفتش ، ومطالب من الوزارة بإكمال المنهاج ، مع تعدد المستويات خاصة إذا كانوا أقسام نهائي بكالوريا ، بالاضافة إلى مستويات أخرى ، ومطالب بالفروض ، والاختبارات ، والتصحيح ، يضاف إلى كل هذا الحراسة في البكالوريا ، والواجبات المترلية ، وملء الكشوف الفصلية ، وغيره...

8- الظروف العائلية مع وجود الأسرة ، والأولاد ، والتزاماهم ، كل ذلك لا يمكن إهماله ، إذا ما قورن هذا الباحث بطالب جديد ما زال في بداية حياته وبدون التزامات .

لقد حاولت مع عزيمتي في العمل ، وهدفي في أن أحقق نتيجة إيجابية ، أن أتكيّف قدر الإمكان مع هذا الواقع ، فأتصل أحيانا بالزملاء الذين ساعدوني ، أو الأستاذ المشرف الذي يوجهني ، وكيفت توقيت عملي ، واستدنت بعض المال لأغطي مصاريفي ، كما فكرت في السفر إلى إسبانيا لكني لم أستطع ، كما حاولت الخروج إلى تونس وطرابلس ، لكن الظروف قهرتني ، وما زال جواز سفر ينتظر في درج الخزانة ، غير أني إكتفيت بجمع عدد معقول من المادة العلمية ، بعد زيارة العاصمة ، حيث زرت المكتبة الوطنية ، والجامعية ، كما توجهت إلى معرض الكتاب الذي نظمته وزارة الثقافة نوفمبر 2009م . كما تعاملت مع مكتبات ولايات غرداية ، الجلفة ، الأغواط ، المركز الصحراوي للبحوث بغرداية .

إن موضوع العلاقات بين الإيالات العثمانية في غرب المتوسط ، وإسبانيا خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ؛ يعتبر من المراحل الهامة في تاريخ منطقة حوض المتوسط ، والجزء الغربي منه خصوصا ، لأن هذه المرحلة ربطت بين الضفتين خلال قرن كامل من الزمن ، كما كان لها الأثر العميق على العلاقات المتنوعة بين الضفتين عموما . إن تلك المرحلة كانت حتمية تاريخية ؛ لأن الظروف التي توفرت خلال القرن 10هـــ/ 16م ، فرضت ذلك النوع من الاحتكاك بين منهجين حضاريين مختلفين ، وإيديولوجيتين متناقضتين - خاصة في تلك الفترة – بالإضافة إلى المصالح المتصارعة ، كل ذلك أوجد تلك المرحلة .

وفي الأخير لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل ، والاعتراف الصادق لأستاذي المشرف الأستاذ الدكتور عمار بن خروف على قبوله الإشراف عليّ أولا ، وعلى مساعدته لي بكل الإمكانيات المادية ، والمعنوية ؛ لأنه ساعدني بالتوجيه ، وبالرأي السديد ، والنصيحة الصادقة ،

والأفكار المنيرة ، أشكرأستاذي المشرف على صبره ، وعلى رزانته وسعة صدره ، لأنه تحمل استفساراتي وأسئلتي المتكررة ، أشكره على تواضعه وعلى تفضله بقراءة فصول مذكرتي عدة مرات ، رغم سلبياتها ، وتصحيحه لي أخطائي حرفا بحرف ، وتقديمه لي التوجيهات ، والإرشادات المستمرة فيما يخص المنهجية ، أشكره لأنه ساعدني باستمرار لأحقق هدفا لطالما حلمت به ، وسأظل مدينا له ما حييت .

كما أتقدم بالشكر الجزيل للمشرف المساعد الأستاذ صالح بوسليم على مساعدته لي ، وعلى تواضعه وصبره ، وعلى كل التوجيهات ، والنصائح القيمة التي قدمها لي . أشكر كل من قدّم لي المساعدة ، وكل من درسني ولقنني حرفا ساعدني في هذه الدراسة المتواضعة .

الفصل الأول

الوضع الدولي في غرب المتوسط في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

المبحث الأول: الوضع السياسي في الضفة الشمالية في مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي

المبحث الثاني: الوضع السياسي في الضفة الجنوبية في مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي

الفصل الأول :

الوضع الدولي في غرب المتوسط مع بداية القرن 10هـ/16م

يكتسي حوض البحر المتوسط أهمية حضارية ، وإستراتجية بالغة ، فقد ظهرت على ضفافه حضارات راقية .كما يمثل مركزا للتجارة العالمية ، وحلقة وصل بين مختلف شعوب العالم ، خاصة بين ضفتيه الشمالية ، والجنوبية . هذا ما جعله ميدانا للتأثير، والتأثر بين الشعوب ، التي عاشت على ضفافه ، وبين الدول التي ظهرت على مر العصور، خاصة تلك التي قامت خلال الفترة الحديثة ؛ أي فترة القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، والتي تتركز على الحوض الغربي من هذا البحر المتوسط ، والتي هي موضوع هذه الدراسة .

إن الهدف من هذا المدخل هو محاولة الإحاطة بالوضع الدولي ، الذي ميّز منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط مع مطلع القرن العشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، ومعرفة مختلف القوى السياسية ، التي حاولت فرض قوتها فيه ، أو السيطرة عليه ؛ وذلك من أجل الوقوف على الظروف ، التي تحكمت في العلاقات بين ضفتيه في هذه الفترة ؛ أي العلاقات بين الإيالات العثمانية في غرب المتوسط ، والإمبراطورية الإسبانية .

وقد تميّز هذا الوضع الدولي في الحوض الغربي من البحر المتوسط في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، بوجود قوى على ضفتيه ؛ قوى من الضفة الشمالية أهمها إمبراطورية إسبانيا إلى جانب البرتغال ، وقوى أخرى مقابلة في الضفة الجنوبية ؛ تتمثل في الدولة العثمانية ، ودول المغرب الإسلامي .

فالسؤال الذي يطرح في هذه الحالة ، وفي هذا الفصل التمهيدي ؛ هو ما الوضع العام الذي ميّز منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال هذه الفترة عموما ؟ وما هي الظروف والأوضاع ، التي تحكمت في العلاقات بين القوى السياسية ، التي وجدت على ضفتيه خلال الفترة المدروسة بشكل عام ، وبين الإيالات العثمانية في غرب المتوسط ، وإمبراطورية إسبانيا بوجه التحديد ، لأنها موضوع هذا البحث ؟.

المبحث الأول:

الوضع السياسي في الضفة الشمالية في مطلع القرن 16 م :

تميز الوضع السياسي للضفة الشمالية من غرب المتوسط في هذه الفترة بوجود قوى سياسية أثرت في العلاقات في المنطقة ؛ وهي إسبانيا الإمبراطورية الكاثوليكية ، والبرتغال من شبه الجزيرة الإيبيرية ، ثم فرنسا كطرف ثالث ، ساهم في إحداث نوع من التوازن بين مختلف الأطراف ، إضافة إلى جمهوريتي البندقية وجنوة من شبه الجزيرة الإيطالية ، ، ويمكن أن نلخص هذا الوضع في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي في :

1- إسبانيا :

نبدأ الحديث عنها مفصلا بعض الشيئ ، لأنها أحد الطرفين الأساسيين في العلاقات موضوع البحث ، ففي نهاية القرن 15م ، عرفت شبه الجزيرة الإيبيرية تطورات هامة ، كان لها تأثير على مستقبل إسبانيا ، وعلى أوربا ، وعلى منطقة الحوض الغربي للمتوسط بشكل عام . ومن هذه التطورات زواج فرديناند (1467م-1516م) ملك أراغون بإيزابيلا (1474م-1504م) ملكة قشتالة سنة 1469 م ، وتم توحيد المملكتين ، وظهور مملكة إسبانيا الكاثوليكية الموحدة [1] .

ورغم التوجهات السياسية لكل من أراغون ، وقشتالة ، فالأولى بحكم امتلاكها لجزر البليار وصقلية ، وسردينية ، ووجود أحد أفرادها على رأس مملكة نابولي، تتجه نحو المتوسط من أجل تأمين طريق بحري آمن . أما قشتالة بحكم موقعها الجغرافي ، كانت تتجه نحو الأطلسي ، وبحكم دورها في الصراع مع المسلمين ،كانت تهتم بما يجري في المغرب الإسلامي . غير أن هذا التباين في التوجهات السياسية ، لم يمنع من ظهور سياسة إسبانية خارجية يوجهها الملك الإسباني فرديناند ، الذي نجح في إثارة اهتمام قشتالة بمسائل القارة الأوربية ، وشبه الجزيرة الإيطالية [2].

وقد اتخذت هذه الوحدة السياسية ، التي عرفتها الجزيرة الإيبيرية صبغة دينية ؛ اعتمدت على التحالف بين الكنيسة الكاثوليكية ، والملوك الكاثوليك ، والتي نتج عنها ما عرف بحرب الاسترداد Reconquesta التي وجهتها إسبانيا ضد مسلمي الأندلس ، و سكان المغرب الإسلامي [3].

---

(1) Ferand Braudel : le Mèditerranèe et le Monde mèditerranèen à lèpoque de Philippe2, 2T, 2eme èdition, librairie Armand colin, Pari 1966,T2,p19.

(2) محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث ، ط1 ، مكتبة دار الشرق ، بيروت ، 1969 ، ص14 .

(3) عبد الرحمان بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، 5ج ، دار الثقافة ، بيروت 1983 ، ج3 ، ص 97 .

وأول عمل يعكس هذه السياسة ذات النزعة الكاثوليكية ؛ هو استسلام غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس للملكين الكاثوليكيين في2 ربيع الأول سنة 897 هـــ ، الموفق ل 3 يناير سنة 1492م[1]. وبسقوطها أصبحت إسبانيا على مقربة من بلدان المغرب الإسلامي، حيث عملت على ملاحقة مسلمي الأندلس ، الذين لجأوا إلى تلك البلدان ، ثم بدأت في تنفيذ مشروعها التوسعي ، الذي يهدف إلى احتلال المناطق الساحلية الإستراتجية لبلدان المغرب الإسلامي [2].

وبعد أن تقاسمت إسبانيا ، والبرتغال مناطق النفوذ في سواحل المغرب الإسلامي بمباركة الكنيسة . حيث أخذت إسبانيا المغرب الأوسط ، والأدنى، أما البرتغال فالسواحل الأطلسية للمغرب الأقصى، و تم عقد معاهدة توردسيلاس في 7جوان 1494م ، بعد تدخل البابا ألكسندر السادس Alexandre حيث حدد حجر باديس كفاصل بينهما تفاديا للصدام بين الدولتين [3] .

وقد أرسلت الملكة إيزابيلا عدة بعثات تجسسية باتجاه الضفة الجنوبية لمعرفة أوضاعها ، كان أهمها ، التي أرسلت إلى مملكة تلمسان و على رأسها لورينثو دي باديا Lorenzo de Badia في سنة 1493م ، الذي تمكن من وضع تقرير عن المنطقة [4]. كما وظف الكاردينال اخسيمنيس أحد التجار الإيطاليين واسمه ، جيرومينو فيانيللي Geromino Vianelli ، والذي يعود له الفضل على الإسبان في توجيههم إلى مناطق إستراتجية ، كميناء المرسى الكبير ، ومدينة وهران [5]. وفي سنة 1494م أرسل فرديناند جاسوسا آخر وهو فيرناندو دي زافيرا Fernando de Zafira ، الذي استطلع الأوضاع في مملكتي فاس، وتلمسان [6]. وقد كان هؤلاء الجواسيس يتنكرون في زي التجار، بهد الحصول على المعلومات ، التي يحتاجها الإسبان في غزو بلدان المغرب الإسلامي[7].

---

(1) ج . س.كولان : الأندلس ، ترجمة : إبراهيم خورشيد وآخرون ، ط1 ، دار الكتاب اللبناني المصري ، مصر 1980 ، كتب دائرة المعارف الإسلامية 2 ، ص139 .

(2) شوقي عطا الله الجمل: المغرب العربي الكبير ، ط1 ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة 1977 ، ص 77 ، 78 .

(3) نفسه .

(4) جون ب. وولف : الجزائر وأوربا (1500-1830) ، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986 ، ص 53 .

(5) عبد القادر فكاير : الصراع الجزائري الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م ، رسالة ماجستير ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، الجزائر 2001/2000 ، ص 36 .

(6) Fernand Braudel: Les Espagnoles et l'Afrique du Nord de 1492- 1577,in R.A , Alger 1928,T19, p217 .

(7) محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص18 .

وفي مطلع القرن 16م احتلت إسبانيا موانئ هامة على سواحل المغرب الإسلامي ، كالمرسى الكبير في سنة 911 هـ /1505م ، ووهران في سنة 914هـ/1509م ، بجاية في سنة 915هـ/ 1510م [1] . ثم طرابلس في سنة 916 هـ/1510م [2]. كما قام الإسبان بحملة لاحتلال جزيرة جربة في نفس السنة ، لكنها فشلت بسبب المقاومة الشديدة للقبائل التونسية [3].

أصبح شارل الخامسCHRLES QUINT في سنة 1516 م ملكا لإسبانيا بعد وفاة جده فرديناند الكاثوليكي ، ثم انتخب في سنة 1519 م على رأس الإمبراطورية المقدسة . وقد تلقى تربية ، وتعليما دينيا ، حتى قال المؤرخون عنه أنه ولد صليبيا ،كما ورث تقاليد أجداده الملوك الكاثوليك ، فكانت إستراتجيته تقوم على توحيد الدول المسيحية ، وإعلان الحرب على المسلمين (العثمانيين) [4] . فقد عمل على توحيد المسيحيين لمجابهتهم ، وأولى اهتماما كبيرا لصراعه ضدهم فقد كان شارلكان[5] يرى أن الحرب ضد المسلمين واجب كل الدول الأوربية المسيحية .

وفي سنة 1525 م هزم على يد الجيش الألماني في معركة بافيا فرانسوا الأول بإيطاليا ، وأُخذ أسيرا إلى إسبانيا ، وأرغمه شارلكان على توقيع معاهدة مدريد في سنة 1526 م ، والتنازل عن ادعاءاته في نابولي ، وميلانو ، وجنوة . وبعد ذلك وطد شارلكان علاقاته بجمهورية البندقية ، التي تمتلك أسطولا بحريا قويا .كما تحالف مع أندري دوريا André Doria ، الذي انتقل إلى خدمته في سنة 1528م ، وبذلك التحالف الإسباني الجنوي ضمن لنفسه دعم ؛ أكبر أسطول بحري إيطالي في غرب البحر المتوسط[6].

كما تحالف شارلكان مع فرسان القديس يوحنا ، ومنحهم جزيرة مالطة في سنة 1523 م ،

---

[1] الحسن بن محمد الوزان : وصف أفريقيا ، ترجمة : محمد حجي وآخرون ، 2ج ، ط2 ، دار المغرب الإسلامي، بيروت 1983، ج2 ، ص30 .

[2] رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، مصر 1994 ، ص297 .

[3] مارمول كاربخال : إفريقيا ، ترجمة : محمد حجي وآخرون ، 3ج ، دار نشر المعرفة ، الرباط 1988 ، ج2 ، ص 109 .

[4] عبد الجليل التميمي: الخلفية الدينية للصراع الإسباني- العثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر ، في م ت م ، جانفي 1978 ، تونس 1978 ، العدد 10-11 ، ص9 .

[5] ولد شارل الخامس في سنة 1500م ، وهو ابن فيليب الجميل وماري المجنونة ، أجداده هم ماكسيمليان ملك النمسا ، وفرديناند وإيزابيلا، أصبح ملكا على إسبانيا سنة 1516م ، وانتخب إمبراطورا سنة 1519م ، ، توفي في سنة 1558م .
للتعرف أكثر على حياة شارلكان أنظر إلى كتاب: Amedee Pichot :CHARLES-QUINT,chronique de sa vie intèrieure et sa vie politique,FURNE etCe libraries-èditeur,Paris 1854.

[6] بحار جنوي ولد سنة 1466، كان منافسا لخير الدين ، حارب الأسطول العثماني في حوض المتوسط ، دخل في خدمة فرانسوا الأول ، وفي سنة 1528م انتقل لخدمة شارلكان ، توفي سنة 1560م. أنظر إلى جون وولف:المرجع السابق ،ص 41 .

بعد أن طردهم العثمانيون من جزيرة رودس في سنة 1523 م [1] ، ثم منحهم طرابلس في سنة 1530 م من أجل التعاون على محاربة المسلمين [2] . وفي سنة 1529 م توج شارلكان بالتاج الإمبراطوري على يد البابا كليمانت السابع Clément [3] .

ورغم التتويج والدعم الديني المسيحي ، الذي حظي به شارلكان من طرف الكنيسة الكاثوليكية ، إلا أنه لسوء حظه كان معاصرا لشخصيات بارزة ، خلال القرن 10هـ/16م ، مثل السلطان العثماني سليمان القانوني ، وملك فرنسا فرانسوا الأول ، وملك إنجلترا هنري الثامن، وبيلرباي الجزائر خير الدين بربروس ؛ وقد شكلت هذه الشخصيات خطرا كبيرا عليه ، خاصة السلطان سليمان القانوني ، وخير الدين بربروس ، فلذلك عمل على تسوية مشاكله الداخلية في أوربا للتفرغ للعثمانيين [4]. كما زادت متاعب إسبانيا بعد التحالف العثماني — الفرنسي ، الذي كان له الأثر السلبي على السياسة الإسبانية في الحوض الغربي للمتوسط [5].

لقد تعددت دوافع إسبانيا التوسعية باتجاه بلدان الضفة الجنوبية ، وساعدها الأوضاع الدولية، التي ميزت الحوض الغربي للمتوسط منذ نهاية القرن 15م ، سواء التطورات التي عرفتها أوربا ، أو التي عرفتها شمال أفريقيا. ورغم أن المؤرخين الأوربيين يركزون على الدوافع الدينية للمشاريع الإسبانية ، ولكنها ليست الوحيدة [6]. وعليه فإن دوافع الحملات التوسعية الإسبانية عديدة ، ولكن الإسبان حصروها في الصبغة الدينية من أجل كسب التأييد الشعبي ، والدعم المادي لتلك الحملات [7] ؛ وتتمثل الدوافع الحقيقية في :

---

(1) محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق : إحسان حقي ، ط6 ، دار النفائس ، بيروت 1988 ، ص203.

(2) محمود علي عامر و محمد خير فارس: تاريخ المغرب العربي الحديث ج2 ، منشورات جامعة دمشق ، دمشق 1999/2000 ، ج2 ، ص155.

(3) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا ، دار النهضة العربية ، بيروت 1973 ، ص 77 .

(4) نفسه .

(5) Elie de la Primaudie :Documents inidits sur l'Histoire de l'Ocupation Espagne en Afrique (1506-1574), << Lettre du Comte d'Alcaudète à sa Majestè, Oran 12 aout 1536 >> in R .A , Alger 1877, T 21, p204.

(6) كورين شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510-1541) ، ترجمة : جمال حمادنة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1991 ، ص19 ، نقلا عن المؤرخ فرناند بروديل : المرجع السابق .

(7) يحي جلال : تاريخ المغرب الكبير ، ج3 ، دار النهضة العربية ، بيروت 1981 ،ج3 ، ص 18 .

1- كان للدوافع الدينية أهمية كبيرة ، فهي وليدة الصراع مع المسلمين خلال حرب الاسترداد ، وقد لعب الملوك الكاثوليك ، ورجال الدين الإسبان دورا هاما في إعداد الحملات الإسبانية ، وتوجيهها [1] . فإسبانيا التي كسبت المعركة العسكرية ، والسياسية في غرناطة ، وجدت نفسها مجبرة على احتواء السواحل المغربية ؛ مدفوعة بطابع استمرارية الحملة الصليبية على الإسلام [2] .

فقد أصدر البابا ألكسندر السادس Alexandre مراسيم بابوية سنتي 1493م و 1494 م ، يحث فيها على الحرب الصليبية ضد إفريقيا الإسلامية ، ويبارك جهود ، الملوك الكاثوليك ،وطلب من جميع المسيحيين في أوربا دفع ضريبة الصليب Crusada [3]. وبموت إيزابيلا في سنة 1505م تعطل مشروع احتلال السواحل المغربية ، لكنها تركت وصية لورثتها من أجل مواصلة السيطرة على شمال أفريقيا من جبل طارق إلى طرابلس جاء فيها:((أنه لا ينبغي وقف احتلال إفريقيا ، ولا إنهاء الصراع ضد الكفار (المسلين) من أجل المسيحية)) [4]. وقد لعب الكاردينال اخسيمنيس Ximènès[5]، دورا بارزا في تنفيذ تلك الوصية ، كما ساهم في تنشيط محاكم التفتيش ضد مسلمي الأندلس ، وشارك مشاركة فعلية في إعداد الحملات على بلدان المغرب الإسلامي [6] .

ومن المظاهر الواقعية للدافع الديني في توجيه السياسة الإسبانية لغزو السواحل المغربية ، فعند احتلال المرسى الكبير في سنة 1505م ، تحويل الكاردينال اخسيمنيس المساجد إلى كنائس ، وحمل الصليب ، وإقامة الأفراح ، والصلوات دامت ثمانية أيام [7]. وعند احتلال طرابلس في سنة

---

(1) محمد خير فارس: المرجع السابق ، ص 16 ،17 .

(2) عبد الجليل التميمي: الولايات العربية ومصادر وثائقها ، ط 1، مركز البحوث والدراسات عن الولايات العربية في العهد العثماني ، تونس 1984 ، ص73.

(3) كروزادا cruzado ؛ ضريبة فرضتها الكنيسة الكاثوليكية على المسيحيين تعطى للحكام لإنفاقها في تدعيم الحروب الصليبية ضد المسلمين ، تتجدد كل خمس سنوات من طرف البابا . أنظر إلى عبد القادر فكاير:المرجع السابق ، ص 33 .

(4) Henri D.DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination turque (1515-1830) ,Ernest Leroux Editeur , Paris 1887 , p 5 .

(5) ولد الكاردينال في قشتالة في سنة 1436م ، أصبح مستشارا سياسيا لإيزابيلا ، وفي سنة 1505م عينه فرديناند مشرفا عاما على محاكم التفتيش ، ولعب دورا بارزا في تنصير مسلمي الأندلس ، واحتلال سواحل المغرب الإسلامي توفي سنة 1517م .

للتعرف أكثر على شخصية الكاردينال أنظر إلى كتاب : Dr CH.J.Hefele :le Cardinale XIMENES et L'èglise d'Espagne,traduit par :M.L'abbè A.sisson et M.L'abbè A.crambon,2eme edition,J.B.pèlagaud Imprimeur-libraire,Paris1860.

(6) للاطلاع على موضوع محاكم التفتيش ضد الموركسيين أنظر إلى كتاب: لوي كاردياك : الموركسيون الأندلسيون والمسيحيون ، تعريب وتقديم : عبد الجليل التميمي ، منشورات م ت م ، تونس 1983 .

(7) DE Grammont :op.cit, p 8.

1510م ؛ تم تنظيم موكب ديني ، وتم تبادل التهاني بين دوق البندقية ، وملك إسبانيا ، ونائب الملك بصقلية ، والمرشد الأكبر لفرسان القديس يوحنا بهذا النصر[1] .

2- أما الدوافع السياسية : كتحقيق سيادة الإسبان على الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وتزعم العالم المسيحي ، وزيادة شعبيتهم ، والتي لا تتم إلا باحتلال سواحل المغرب الإسلامي [2] .

إن من أهم مشاغل السياسة الإسبانية هو مواجهة خطر توسع العثمانيين السريع ، الذي بدأ يصل إلى الحوض الغربي للمتوسط ، كما أن الترعة التفوقية الإسبانية ، وانفرادها بالسيادة على المتوسط، كانت قد طبعت تحركاتها على الساحل المغاربي ، غير أن مشاكل أوربا ، وانشغالها باكتشافات العالم الجديد ، حال دون تأكيد هذه السيطرة بشكل دائم [3].

فسياسة إسبانيا اتجاه بلاد المغرب الإسلامي لم تكن لها خطة استعمارية منظمة وواضحة ، لأن حكوماتها كانت قد خططت لوضع سلسلة من الحاميات على الساحل دون التوغل في الداخل ، فالاحتلال الإسباني ظل مرتبطا بتحصين القلاع التي يسيطر عليها مثل: وهران ، المرسى الكبير ، حلق الوادي ، طرابلس رغم مدة الاحتلال الطويلة [4] .

3- أما الدوافع الاقتصادية فتتمثل في رغبة إسبانيا في إقامة إمبراطورية واسعة ، خاصة بعد اكتشاف العالم الجديد ، ودور ذهب ، وفضة الأمريكيتين في الاقتصاد الإسباني ، وتأمين تجارة التوابل ، وحماية طرق مواصلاتهم مع جزيرة صقلية ، التي كانت تزودهم بالحبوب ، كما كانت إسبانيا ترغب في القضاء على النشاط البحري للمسلمين ، ومحاصرته [5] .

لقد كانت إسبانيا تسعى إلى السيطرة على بلدان المغرب الإسلامي ؛ لكونها بوابة رئيسية نحو الإمارات الإفريقية جنوب الصحراء . حيث كانت تمر عبرها كميات ضخمة من السلع [6] ، فقد كانت إسبانيا ترغب في السيطرة على الطرق التجارية في إفريقيا ، التي اشتهرت بتصدير بعض السلع إلى أوربا ، كالتبر ، وريش النعام ، والجلود ، وغيرها .كما أرادت إسبانيا السيطرة على

---

[1] عبد الجليل التميمي: الخلفية الدينية للصراع الإسباني – العثماني ، المرجع السابق ، ص9 .

[2] عمار بن خروف : العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن10هـ/16م ، 2ج ، دار الأمل للنشر والتوزيع ، الجزائر 2006 ، ج1 ، ص16 .

[3] عبد الجليل التميمي: الولايات العربية ومصادر وثائقها ، المرجع السابق ، ص74.

[4] نفسه .

[5] للإطلاع أكثر على موضوع الكشوفات الجغرافية ، أنظر إلى: إسماعيل العربي: تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986 .

[6] الحسن الوزان: المصدر السابق ، ج2 ، ص324 .

المراكز التجارية ، والمناطق التي تتميز بغنى إقليمها بالثروات الحيوانية ، والمحاصيل الزراعية كعنابة ، ووهران ، واحتكار التجارة الخارجية للمنطقة [1] .

4– أما الدوافع الاستراتجية ؛فقد كانت سواحل بلاد المغرب الإسلامي ضرورية لكل اتصال بحري آمن بين سواحل إسبانيا ، وسواحل إيطاليا الإسبانية ، وكذا لنشاطها في حوض المتوسط ، فقد كان البحارة المسلمون يهاجمون السفن التجارية ، والموانئ الإسبانية انتقاما لإخوانهم الأندلسيين ، الذين كانوا يزودونهم بالمعلومات اللازمة ، وقد كانت هذه الهجومات تروع سكان الموانئ الإسبانية [2] ، فجاءت الشكاوي إلى الملوك الكاثوليك تدعوهم إلى وضع حد لهؤلاء القراصنة [3] .

وجدت إسبانيا في القرصنة المغربية حجة لتغذية النزعة الصليبية ، وذريعة لمحاربة المسلمين في عقر دارهم ، وفي هذا الموضوع يقول بروديل : ((حقيقة لقد كان هؤلاء المطرودين يعدون من بين أكثر أعداء إسبانيا ضراوة ، بسبب فقدانهم لدورهم ، وأملاكهم ، وقد وجدوا تسهيلات من أبناء عمومتهم الذين بقوا في إسبانيا)) [4] .

5– أما الدوافع العسكرية ؛ فقد أرادت إسبانيا إقامة حاميات عسكرية لمراقبة سواحل المغرب الإسلامي ، فاحتلت المرسى الكبير في سنة 1505م ، وحجر باديس بالمغرب الأقصى في سنة 1508م ، ثم مدينة وهران في سنة 1509م ، ومدينتي بجاية ، وطرابلس في سنة 1510م [5] .

ولاشك أن حالة الانقسام التي ميزت بلدان المغرب الإسلامي ساعدت الإسبان على احتلال تلك السواحل الهامة ، يضاف إلى هذا الوضع عنف الهجمات الإسبانية والمعاملة القاسية للسكان المحتلين، قد أحدث رجة من الرعب والفزع على طول الساحل المغربي ، فأسرعت المدن التي لم تتعرض للقصف الإسباني إلى طلب الدخول في طاعة الإسبان ، لأن هدف السياسة الإسبانية هو وقف نشاط البحارة القراصنة بالدرجة الأولى [6] .

---

[1] عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص 16.

[2] Henri D.DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination turque (1515-1830) ,Ernest Leroux Editeur , Paris ,1887 ,p 3,4.

[3] لتحديد مفهوم القرصنة ينظر إلى كتاب : Moulay Belhamissi :Histoire de la marine Algerienne1516-1830 ENAL, Alger 1983, p144.

[4] صالح عباد : الجزائر خلال العهد التركي(1514– 1830)،دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر 2005 ، ص21 .

[5] يحي بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا (1500–1830) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1980 ، ص12.

[6] جون ب. وولف : المرجع السابق ، ص 26 ،27 .

ورغم ذلك ظلت إسبانيا محصورة في مناطق محصنة بسبب الحصار الذي فرضه عليها السكان المغاربة ، واكتفت بسياسة الاحتلال المحدود .خاصة بالمغرب الأوسط ؛ وهذاكان سببا في فشل مشروعها التوسعي الاستعماري [1].

2- البرتغال :

استكمل البرتغاليون وحدتهم الوطنية قبل الإسبان سنة 1413م ؛ وهم الذين تفرغوا أكثر لغزو المغرب بإقدامهم على احتلال مدينة سبتة في سنة 1415م ، ثم محاولتهم احتلال مدينة طنجة في سنة 1437م ، التي كانت فاشلة ، تلتها محاولتهم الناجحة لاحتلال بلدة القصر الصغير في سنة 1458م . وفي سنة 1469م قاموا بتخريب آنفي (الدار البيضاء) ، ثم قاموا بعد ذلك باحتلال مدينتي آصيلا ، وطنجة في سنة 1471م [2] .

إن أول دولة اهتمت بالكشوفات الجغرافية هي البرتغال ، وكان من أهدافها تحويل المسلمين في غرب أفريقيا ، وغيرها من المناطق الآهلة بهم إلى المسيحية الكاثوليكية . وقد بدأت البرتغال تظهر كدولة بحرية في أواخر القرن 13م ، وبدأت تشكل قوة بحرية في الأطلسي؛ وظهرت أساطيل بحرية برتغالية ، وأصبحت لشبونة أهم ميناء بحري ؛ لوقوعها في منتصف الطريق بين موانئ البحر المتوسط ، والمحيط الأطلسي [3].

كما كان البرتغاليون أول القوى الأوربية ، التي عرفت طريق الهند منذ سنة 903هـــ/ماي 1498م ؛ عندما أوصلهم إليها البحار العربي المسلم أحمد بن ماجد في أعقاب وصول كريستوفر كولمبس إلى أفريقيا في سنة 897هـــ/1492م [4].

وتمكن البرتغاليون بعد توقيع إتفاقية طورديسيلاس مع الإسبان ، من احتلال مدينة ماسا في سنة 1497م ، ثم موقع مازكان في سنة 1502م ، فأغادير في سنة 1505م ، وموركادور في سنة 1506م ، وآسفي في سنة 1508م ، وآزمور في سنة 1513م ، وتطلعوا في سنة 1515م إلى احتلال مدينة مراكش ، ولكن حملتهم باءت بالفشل [5]. وبذلك مضت البرتغال بدورها في تحقيق مشروعها التوسعي باتجاه بلدان الضفة الجنوبية ، بعدما تم تحديد مناطق النفوذ مع إسبانيا .

---

[1] محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 21 .

[2] عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص 47 .

[3] أشرف صالح محمد سيد : أوصول التاريخ الأوربي الحديث ، ط1 ، دار واتا للنشر الرقمي ، قطر 2009 ، ص 71 .

[4] عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 30 .

[5] عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص 48 .

3– فرنسا :

أما بالنسبة لفرنسا التي كانت تسعى لاستكمال وحدتها ، واحتلال مكانة تسمح لها بتزعم أوربا الغربية ، من أجل ذلك أقامت تحالفا عثمانيا- فرنسيا ضد شارلكان عدو فرنسا ؛ مستغلة بلوغ الدولة العثمانية أوج قوتها في عهد السلطان سليمان القانوني، والذي جعلها عنصرا فعالا في التوازن السياسي في أوربا ، و في حوض البحر الأبيض المتوسط . فقد اتبع الملك الفرنسي سياسة (عدو العدو صديق) [1]. حيث عمل فرانسوا الأول على اكتساب ود العثمانيين أعداء عدوه شارلكان ، ليستغل قوتهم المتنامية لمواجهة هذا الأخير ، و سعى إلى عقد تحالف مع السلطان العثماني سليمان القانوني [2] ؛ قصد إضعاف شارلكان ومحاصرته من جهتي الشرق والغرب [3].

و أرسل سفيره دو لافيري إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1534م سرا ، لتمتين العلاقة بين الطرفين ، ثم استغل الملك الفرنسي فرصة غزو شارلكان لتونس سنة 1535م ليعلن عليه الحرب ، وبدأ مفاوضاته مع السلطان العثماني سليمان القانوني ، التي انتهت بتوقيع معاهدة الإمتيازات الشهيرة بينهما في شهر فيفري من سنة 1536م [4] .

وقدكان ذلك التحالف نتائج هامة على الصراع في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، حيث اتجهت إستراتجية الدولة العثمانية إلى الحوض الغربي منه ، حيث نصت معاهدة الإمتيازات على السماح للعثمانيين أن يستعملوا الموانئ الفرنسية الجنوبية مثل طولون ، ومرسيليا في الصراع ضد العدو المشترك ، وفي ذلك الإطار سمح فرانسوا الأول لخير لدين بربروس بقضاء فصل الشتاء لعام 1542م في ميناء طولون [5] .

وجاء تنامي القوة العثمانية في البر والبحر ، ليتيح لها أن تلعب دورا خطيرا في ميزان القوى الأوربي ، وهو ما مكن فرنسا من البروز كدولة قومية كل بقية القرن 16م ، فالأسطول التركي

---

(1) محمد فريد بك : المرجع السابق ، ص 209 .

(2) من أشهر السلاطين العثمانيين ، ولد في 27 أفريل 1495م ، تولى الحكم سنة 1520م خلفا لأبيه السلطان سليم الأول ، يعد من أبرز شخصيات القرن السادس عشر الميلادي ، عاصر شارلكان وملك فرنسا فرنسوا الأول ، بقي على رأس الدولة العثمانية حتى وفاته سنة 1566م . أنظر إلى نفس المرجع السابق ، ص 251 .

(3) نفسه ، ص 209 .

(4) للاطلاع على النص الكامل للمعاهدة ، أنظر إلى محمد فريد بك : نفسه ، ص ص224– 229 .

(5) شمس الدين الكيلاني: العثمانيون والأوربيون في القرن السادس عشر ، مجلة الاجتهاد ، العدد 43 ، دار الاجتهاد، بيروت 1999، ص132.

في غرب المتوسط ، كان يحمي جناح فرنسا الجنوبي ضد أي هجوم يشنه أعداؤها ؛ مما أتاح لملوكها تركيز قوتهم في الشمال ، وتأمين حدود فرنسا القومية [1].

وقد استمر التحالف العثماني – الفرنسي حتى بعد وفاة الملك الفرنسي فرانسوا الأول سنة 1547م ، حيث استمر ابنه هنري الثاني على نهج والده ، في التعاون مع السلطان العثماني . وبناء على معاهدة 1553م ؛ التي أبرمت بتاريخ 16صفر سنة 960 هـ/أول فبراير 1553م [2]، حارب أسطولا الدولتين معا في الحوض الغربي لمتوسط في إيطاليا ضد الإسبان ، وفتحا كلاًّ من جزيرة كورسيكا ، وصقلية ، لكن وقوع الخلاف بين قائدي الأسطولين لحال دون الاستمرار في احتلالهما . وكانت هذه آخر مرة حارب فيها العثمانيون و الفرنسيون جنبا إلى جنب في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي [3] .

4– جمهوريتا البندقية وجنوة :

أما عن الحديث عن جمهوريات المدن الإيطالية ، وأهمها جمهوريتي البندقية وجنوة ، فقد كانت حريصة على إقامة علاقات طيبة ، وسلمية ، وتجارية مع دول الضفة الجنوبية لحوض البحر المتوسط في كل من أفريقيا ، وأسيا متقدمة عامة عن إيطاليا في مطلع القرن 16م / 10هـ وتتنافس للفوز بالعلاقات الأقوى ن والأحسن مع هذه الأخيرة [4].

أ– جنوة :

يعود أول اتصال لجمهورية جنوة بالعثمانيين إلى فتح القسطنطينية في سنة 1453م ؛ لأن جنوة كان لها منافع تجارية في المنطقة ، وأرسلت جنوة قوة بحرية لمواجهة الحصار العثماني للقسطنطينية ، لكنها فشلت . وبعد فتح المدينة أنهى العثمانيون تجارة جنوة في البحر الأسود [5]. وفي سنة 1475م قرر السلطان العثماني محمد الثاني فتح بلاد القرم ، وكان لجمهورية جنوة مستعمرة فيها ، وتم فتح جميع الأماكن التابعة لجنوة ، وصارت جزيرة القرم تابعة للعثمانيين [6].

---

(1) شمس الدين الكيلاني: المرجع السابق ، ص 129 .

(2) للاطلاع على النص الكامل للمعاهدة ، أنظر إلى محمد فريد بك : المرجع السابق ، ص ص 242– 245 .

(3) شمس الدين الكيلاني : المرجع السابق ، 132 .

(4) رأفت الشيخ : الملاجع السابق ، ص 18 .

(5) محمود السيد الدغيم : أضواء على تاريخ البحرية العثمانية حتى نهاية عهد الخليفة سليم الثاني ، مقال في مجلة الحضارة الإسلامية وعالم البحار (بحوث ودراسات) ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة 1994 ، ص 387 .

(6) محمد فريد بك المحامي: المرجع السابق ، ص173.

ولذلك فإن جنوة مالت إلى التعاون مع الإسبان ضد العثمانيين . وأصبحت حليفا قويا لهم في مطلع القرن 16م ، وتجسد ذلك من خلال انتقال أندري دوريا بأسطوله البحري إلى خدمة شارلكان في سنة 1528م ، بعدما كان حليفا لملك فرنسا فرونسوا الأول .

ب- جمهورية البندقية :

أما جمهورية البندقية ، التي كانت تملك أسطولا بحريا قويا ، فقد قاد ضدها السلطان العثماني محمد الفاتح حملة عسكرية في سنة 1470م ، التي انتهت بانتصار العثمانيين ، وفي 5من ذي العقدة 883هـ/28 يناير 1479م تم توقيع الصلح بين الطرفين . وكانت هذه أول خطوة خطتها الدولة العثمانية ؛ للتدخل في شؤون أوربا ، إذ كانت جمهورية البندقية أهم دول أوربا لاسيما في التجارة البحرية [1]. كما وقعت البندقية عدة معاهدات مع الدولة العثمانية ؛ لتأمين تجارتها في شرق المتوسط منها معاهدة 1502 م ، وإتفاقية التجارة في سنة 928هـ/1521 م [2] .

وقد تعرضت تجارة البندقية إلى تهديد العثمانيين في سنة 1538م ، ورغم وجود حزب قوي في البندقية يدعو إلى السلام مع الأتراك ، فإن البابا بول الثالث قد نجح بحلول فبراير من سنة 1538م في جعل البندقية ، وإسبانيا تعقدان حلفا مع البابوية ضد العثمانيين ، وهكذا فإن القوة العثمانية أدت إلى إنشاء جمعية مقدسة ، لكن هذه الجمعية سرعان ما فشلت [3] ، فاضطرت جمهورية البندقية إلى توقيع صلح مع العثمانيين في سنة 947هـ/ 1540م [4]. التي تخلت عن آخر أملاكها في شبه جزيرة المورة ، واعترفت بفتوحات خير الدين في بحر إيجة ، ووافقت على دفع غرامة ضخمة مقابل اعتراف العثمانيين باستمرارحكمها في جزيرتي كريت ، وقبرص ، وعودة الامتيازات التجارية ، التي كانت تتمتع بها في الدولة العثمانية ، وهكذا انهارت السيادة البحرية ، التي تمتعت بها البندقية [5]. أما بقية المدن الإيطالية مثل : فلورنسا ، ونابولي ، وبقية الجزر فقد كانت خاضة للسيطرة الإسبانية .

ويمكن أن نستنتج أن أغلب دول الضفة الشمالية استكملت وحداتها السياسية ، واتجهت إلى حوض البحر المتوسط ، وبمضت في بناء أساطيل بحرية عسكرية ، وتجارية ، وهو ما أدى إلى

---

[1] محمد فريد بك المحامي: المرجع السابق ، ص 175 .

[2] نفسه ، ص ص185-202 .

[3] جون ب. وولف : المرجع السابق ، ص 53 .

[4] شمس الدين الكيلاني: المرجع السابق ، ص132.

[5] إسماعيل أحمد ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ط2 ، مكتبة العبيكان ، السعودية 1988 ، ص 70 .

تطلعها إلى الجهة المقابلتة ، وتجسيد مشاريعها الاستعمارية للسيطرة على مناطق استراتجية على الساحل المقابل على الضفة الجنوبية ، هذا ما نتج عنه ظهور علاقات بين الطرفين اختلفت طبيعتها حسب وضع كل طرف . هذا عن الوضع في الضفة الشمالية للمتوسط في مطلع القرن 16م ، أما الضفة الجنوبية منه فقد تميزت بدورها بوضع خاص ، فكيف كان ذلك الوضع ، وما الذي ميّز بلدان الضفة الجنوبية في نفس الفترة ؟ .

المبحث الثاني

الوضع السياسي في الضفة الجنوبية في مطلع القرن 10هـ/16 م :

أما عن الوضع السياسي للضفة الجنوبية في مطلع القرن 10هـــ/ 16م ؛ والذي ساهم بشكل مباشر في التأثير في العلاقات بين الطرفين خلال هذه الفترة ، فقد أفردت في هذا البحث بالدراسة لطرفيين ساهما في العلاقات بين الضفتين ، خاصة العلاقات بين الإيالات العثمانية في غرب المتوسط ، وإسبانيا خلال الفترة المدروسة ؛ وهما الدولة العثمانية ، ومنطقة المغرب الإسلامي . فنتساءل إذن عن الوضع السياسي الذي ميز دول الضفة الجنوبية .

1- الدولة العثمانية :

استطاع العثمانيون في معركة جالديران في 1514/08/23 م هزم الصفويين الشيعة ، وبذلك تمت لهم السيطرة على الجنوب الشرقي للأناضول ، وكردستان في عهد السلطان سليم الأول[1] ، ثم تحولت أنظار السلطان سليم إلى فتح مصر ، وبلاد الشام(1516م/1517م) ، وبعد النجاح الذي حققوه في بلاد الشام ومصر ، وإشرافهم على البحر المتوسط ، تنبهت إسبانيا ، والبندقية إلى مدى ثقل الوزن السياسي ، والعسكري ، والديني المتصاعد ، وخطورة تلك الدولة الإسلامية الناشئة . حتى أن البابا ليون العاشر ، الذي كان يخشى أن تتعرض سلامة أوربا للخطر الإسلامي المتنامي ، شرع يعد حربا صليبية جديدة [2].

لقد استفاد العثمانيون من الموقع الجغرافي للولايات العربية بالمشرق ؛ لضرب البرتغاليين في البحر الأحمر، والإسبان ، والبنادقة ، وفرسان القديس يوحنا في رودس ، وغيرها في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط [3] .

ولما تولى السلطان سليمان القانوني (1520م - 1566م) السلطة ، صار للدولة العثمانية دورهام على الساحة الأوربية ، والإفريقية أيضا [4]. وغدت هذه الدولة القوة البحرية الرادعة ،

---

[1] علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ط1 ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة ، 2005 ، ص72.

[2] عبد الجليل التميمي: الولايات العربية ومصادر وثائقها ، المرجع السابق ، ص72 .

[3] تأسست هذه المنظمة في سنة 1099م ، من طرف أحد الفرسان الفرنسيين . سيتم تعريفها بالتفصيل في الفصل الثالث .

[4] هربرت فيشر: أوصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة إلى الثورة الفرنسية ، ترجمة : زينب عصمت راشد وآخرون ، ط3 ، دار المعارف ، مصر 1970 ، ص74 .

التي كانت تقف في وجه الاعتداءات المسيحية الأوربية ؛ وهذا ما يفسر بروز القادة العثمانيين في العالم الإسلامي ، مثل خير الدين ، ودرغوث رايس ، وعلج علي ، وغيرهم- وامتداد النفوذ العثماني إلى بلدان المغرب الإسلامي[1] .

و لما دخلت الجزائر في طاعة العثمانيين منذ 1520م ، أخذت تقوم بدورها في شؤون الحوض الغربي للمتوسط ، وساعدت الدولة العثمانية على تقوية بحريتها ؛ بحيث أصبحت أهم القوى البحرية في البحر المتوسط في القرن 10هـــ/ 16م[2] .

ونتساءل الآن كيف كان الوضع السياسي في منطقة المغرب الإسلامي في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ؟.

2- الوضع في المغرب الاسلامي :

كانت منطقة المغرب الإسلامي تعيش مرحلة من الوحدة ، والقوة تحت قيادة دولة الموحدين حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، وانضم إليها في هذه الفترة إقليم الأندلس ، الذي صار تابعا للموحدين [3] . وعندما انهارت دولة الموحدين ، تحولت منطقة المغرب الإسلامي إلى حالة من التفكك الداخلي ، والتجزؤ ، فظهرت ثلاث إمارات مستقلة في منطقة المغرب الإسلامي تنافست فيما بينها مما أدى إلى ضعفها . هذه الإمارات هي : إمارة بني عبد الواد الزيانيين وعاصمتها مدينة تلمسان بالمغرب الأوسط ، وإمارة بنو حفص بالمغرب الأدنى بتونس ، وإمارة بني مرين بالمغرب الأقصى [4] . إضافة إلى الأندلس التي بدأت تسقط في يد المسيحيين .

تميزت علاقات هذه الإمارات بالتطاحن ، والنزاعات المستمرة . وقد وجد الزيانيون في تلمسان أنفسهم بين فكي رحى أي بين أطماع الحفصيين من الشرق ، وأطماع المرينيين من الغرب ، وكل منهما يسعى للتوسع على حسابها [5] . ورغم أن الزيانيين تمكنوا من الحفاظ على ملكهم لمدة ثلاثة قرون إلا أن عرشهم ظل مهددا ؛ خاصة من طرف المرينيين الذين سلبوا منهم السلطة عدة مرات [6] .كما أن الصراع على السلطة ، والاقتتال بين أبناء الأسرة الواحدة ، قد

---

[1] عبد الجليل التميمي: المرجع السابق ، ص72.

[2] محمد خير فارس: المرجع السابق ، ص22 .

[3] رأفت الشيخ : المرجع السابق ، ص374 .

[4] نفسه .

[5] مارمول كاربخال: المصدر السابق ، ج2 ، ص303 .

[6] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص323 .

أدى إلى إنهاك تلك الإمارات اقتصاديا ، وعسكريا ، بل وأضعف السلطة المركزية لكل منها . وصارت أقطار المغرب الإسلامي فسيفساء سياسية لاسيما المغرب الأوسط . فمع نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي يعطينا المغرب الإسلامي ؛ صورة عن الانحطاط السياسي ، والعسكري ، والتدهور الاقتصادي . فالعائلة الحفصية كانت ما تزال حاكمة في الشرق ، ولكنها ضعيفة وغير قادرة على السيطرة . وفي الغرب كانت الأسرة المرينية في المغرب الأقصى ، ولكنها تعاني أيضا من الانحطاط . أما المغرب الأوسط فقد كان جزؤه الغربي تحت حكم أسرة بني زيان الضعيفة [1].

1 - الدولة الحفصية بتونس وتوابعها :

أ- طرابلس الغرب :

منذ الأزمنة القديمة وجد بليبيا وحدتان سياسيتان منفصلتان وهما : برقة ، وطرابلس الغرب ؛ حيث يقسم خليج سرت المنطقة الساحلية إلى قسمين ، أما المناطق الصحراوية فتمتد باتجاه الداخل؛ وتعرف هذه المناطق باسم إقليم فزان [2] .

وكانت للحواضر الليبية إتصالات مع مراكز الحضارة ، والتجارة بغرب القارة الإفريقية ، فقد كانت القوافل تفد إليها من قلب القارة ، وكانت موانيها تعتبر من المنافذ الهامة ، التي تصل إليها غلات إفريقيا الغربية.كما كانت لها إتصالات مع الموانئ التجارية الهامة في إيطاليا، وغيرها من أقاليم البحر المتوسط الأوربية [3] . بالإضافة إلى موقع ليبيا في طريق الحجاج من شمال غرب أفريقيا ، وقربها إلى الأراضي الحجازية ؛ جعل لها أهمية خاصة في العصور الوسطى ، حيث كانت القوافل هي وسيلة النقل الرئيسة في تلك الفترة [4] .

وعندما توفي الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب في سنة 595هـ/1199م ، خلفه أخوه محمد الناصر الذي ظل يحارب القبائل العربية المناوئة للموحدين بقيادة بني غانية ، فقد انتصر عليهم في تاجوراء في سنة 602هـ/1205[5]، فاستقبله أهل طرابلس وأقر عليها حاكمها يحي بن إسحاق

---

[1] جون ب. وولف : المرجع السابق ، ص 23 ، 24 .

[2] شوقي عطا الله الجمل : المرجع السابق ، ص 127 .

[3] نفسه ، ص 128 .

[4] نفسه .

[5] أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي : تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، نشر وتصحيح وتعليق : الطاهر احمد الزاوي ، المطبعة السلفية ، القاهرة 1349هـ ، ص 52 .

الميورقي، الذي حقق بدوره انتصارات هامة ضد قبائل بني غانية ، لكنه حاول التنكر للخليفة الموحدي الناصر ؛ لذلك عمد إلى عزله ، وعين أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص على أفريقية في 07شوال 603هـ/1207م [1] . وبذلك انتقلت طرابلس الغرب من حكم الموحدين إلى حكم الحفصيين أمراء تونس ، الذين تصرفوا منذ الوهلة الأولى لحكمهم في المدينة كأمراء مستقلين [2].

وبعد خضوع طرابلس الغرب لحكم الحفصيين ، شهدت المدينة اضطرابا في أوضاعها العامة؛ نتيجة للصراعات الدائرة في أفريقية (تونس) بين الحفصيين ومعارضيهم ، لذلك عمد سكان المدينة إلى تنصيب حاكم منهم عليها ؛ وهو محمد بن ثابت بن عمار ، فنجت المدينة من الصراعات ، وظل آل ثابت يحكمون طرابلس الغرب لمدة تقارب الثمانين عاما ؛ ساد فيها الهدوء والاستقرار السياسي [3] . حيث عمل محمد بن ثابت على تنظيم أمور المدينة ، تنظيما دقيقا معتمدا على العدل ، كما تجنب إثارة حفيظة الحفصيين ، وبقية جيرانه ، وظل طوال حكمه يتظاهر بالخضوع للحكام الحفصيين [4] .

وظلت طرابلس الغرب خاضعة للسيطرة الحفصية حتى منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ، ونتيجة لضعف مملكة الحفصيين ؛ شكلت المناطق الشرقية : قابس ، طرابلس ، والجديد حكما ذاتيا مستقلا بها ، وأقام الطرابلسيون مجلس شورى برئاسة شيخ البلد سيدي منصور ؛ مهمته حل النزاعات التي تنشب بين القبائل . فبايع سكان طرابلس الغرب ، والقبائل العربية ، وسكان تاجوراء سيدي منصور ، وأصبح أول حاكم مستقل بإرادة شعبية حرة، فغضب السلطان أحمد الحفصي من استقلال أهالي مدينة طرابلس الغرب ، فجهز حملتين عسكرية متتاليتين ضدهم لكنه هزم . ولم تستمر الخلافات بين الحفصيين والطرابلسيين طويلا ؛ ففي سنة 1463م إتفق الطرفان ، و اعترف الطرابلسيون بالتبعية الاسمية للحفصيين [5].

وفي مطلع القرن 10هـ/ 16م شكلت طرابلس ؛ منطقة إستراتجية خطيرة ؛ بالنسبة لحركة التجارة مع مداخيل أفريقيا ، وأنها المأوى الوحيد ، والمفضل للقوافل الصحراوية الوافدة من السودان ، والمحملة بالتوابل ، والذهب ، وتجارة العبيد .كما أن طرابلس تعد على صعيد المواجهة

---

(1) محمد بن غلبون الطرابلسي : المرجع السابق ، ص 91 .

(2) نفسه ، ص 92 .

(3) محمود علي عامر ومحمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 145 .

(4) نفسه ، ص 146 .

(5) نفسه ، ص 148 .

البحرية خطا ساحليا ؛ ذا أهمية قصوى لتأمين حرية التجارة ، والتنقل في عرض حوض البحر المتوسط ، كما أن مواجهتها القريبة من مالطة ، وإيطاليا الجنوبية ، قد أعطى لهذا الإشراف العسكري حيوية كبيرة [1].

استقلت طرابلس في مطلع القرن 10هـ / 16م عن الحفصيين بسبب ضعف الدولة الحفصية، وصارت تلقي الخطبة باسم السلطان المريني بفاس ، أما سيرت فكان يحكمها مجلس منتخب من الأعيان يرأسه أحد الشيوخ . وفي سنة 1510م / 915 هـ تمكن الإسبان من احتلال مدينة طرابلس بعد مقاومة شديدة من طرف سكانها ، وبعد تعرضها عمليات نهب كبيرة ، ترك بها الكونت بيدرو نافارو حامية قدرت بثلاثة آلاف جندي ، وظلت بيد الإسبان إلى أن منحها شارلكان إلى فرسان القديس يوحنا في سنة 1530م [2].

ب- تونس :

كان أبناء أبي حفص من بعده يتداولون الإمارة بالأندلس ، والمغرب ، وأفريقية مع بني عبد المؤمن، ولما نهض الناصر بن المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن إلى إفريقية في سنة 601 هـ /1204 م ، ومعه أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص مؤازرا له . وبسبب قيام ثورة ابن غانية بأفريقية ، وبعد المسافة بينها وبين مراكش ، قرر الناصر تنصيب محمد بن عبد الواحد واليا على أفريقية [3].

وقد قويت شوكة الأمراء الحفصيين في أيام أبي زكريا ابن أبي محمد بن عبد الواحد ، وهو الذي أسقط اسم الخليفة عبد المؤمن من الخطبة ، وأبقى اسم المهدي ، واستبد بملك أفريقية ، وخطب لنفسه ، وتلقب بالأمير المرتضى ، واتسع نطاق ملكه فتغلب على تلمسان ، وكافة المغرب الأوسط [4] .

لقد إغتنم الحفصيون ولاة أفريقية (المغرب الأدنى) ؛ التابعون للخليفة الموحدي بالمغرب الأقصى أزمة الإمبراطورية الإسلامية الغربية ، ليكتسبوا كيانا ذاتيا عمليا حوالي 1228م-1229م، ثم استقلالا رسميا سنة 1236م ؛ ففي تلك السنة أمر أبو زكريا بأن تقام الصلاة باسمه ، وهي

---

(1) عبد الجليل التميمي : الولايات العربية ومصادرها ، المرجع السابق ، ص 74 .

(2) ايتوري روسي: طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا ، ترجمة وتقديم : خليفة محمد التليسي ، ط1 ، مؤسسة الثقافة الليبية للتأليف والترجمة والنشر ، طرابلس ليبيا 1969 ، ص18 .

(3) الحسن محمد بن عبد القادر الجزائري : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ، 2ج ، المطبعة التجارية ، الإسكندرية ، مصر 1903 ، ج1 ، ص 59 .

(4) نفسه ، ص 59 ، 60 .

صورة من صور الاستقلال . وسرعان ما أخضع لسلطانه كامل الجزء الشرقي من بلاد المغرب ؛ من مدينة طرابلس حتى مدينة بجاية [1].

فقد زحف أبو زكريا (1228م-1249 م) في سنة 628 هـ / 1230م على قسنطينة ، وبجاية ، واستحوذ عليهما ، وأسر والييهما من ذرية عبد المؤمن بن تومرت ، وجمع تحت سلطته في وقت قصير كل أنحاء أفريقية ؛ وهو ما صار يعرف بالمملكة الحفصية ؛ من منطقة القبائل الكبرى إلى منطقة سرت الكبرى ، وقضى على تمرد بن غانية ، وطارده حتى أخرجه من أفريقية إلى أن توفي في سنة 631 هـ / 1234م . ثم واصل زحفه فضم مدينة الجزائر ، وواصل زحفه إلى غاية إلى وادي الشلف ؛ فأصبح نصف بلاد المغرب تحت سلطته [2].

فرض أبو زكريا النظام في البلاد والإدارة ، ووضعت القبائل العربية القوية خاصة ، حدا لأعمال الحرب والتمرد ، وأرغمت على الاعتراف بخضوعها لصاحب تونس ؛ أبو زكريا ، الذي توفي في سنة سبع وأربعين وستمائة هجرية ، وتولى إبنه أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا [3]. واصل محمد الذي تولى الأمر من بعد أبي زكريا ، والذي لقب بالمستنصر (1250م-1277م) ، تلك الأعمال بنجاح ، كما تلقب رسميا بلقب الخليفة ، أو أمير المؤمنين ، اعترفت له بهذا اللقب دول عديدة في الغرب ، والشرق [4].

انتابت الدولة الحفصية بعد موت الخليفة المستنصر الفوضى لكثرة الخلافات على العرش بين الحفصيين ، وتعرضت البلاد لهجوم المسيحيين ، وغارات القبائل العربية ، إضافة إلى تعرضها لغزوات بني مرين من الحدود الغربية[5]. ورغم ذلك استمرت دولتهم مع الزيانيين ، وبني مرين[6].

وقد استعاد الحفصيون وحدتهم ، وقوتهم في أوائل القرن 09هـ/15م ، على أيدي الخليفة أبي العباس ، وأبي فارس ، اللذين أعادا للدولة الحفصية وحدتها ، ونشاطها ؛ فاستعات سلطانها على الجزائر ، وقسم من المغرب الأقصى . لكن سرعان ما عاد الضعف إليها ، فدخلت البلاد

---

(1) محمد الهادي الشريف : تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال ، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة ، ط3 ، دار سراس للنشر ، تونس 1993 ، ص 53 .

(2) روبار برنشفيك : تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى نهاية القرن 15م ، نقله إلى العربية : حمادي الساحلي ، 2ج ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان 1988 ، ج1 ، ص 51 ، 52 .

(3) الحسن محمد بن عبد القادر: المرجع السابق ، ص 60 .

(4) محمد الهادي الشريف : المرجع السابق ، ص 53 .

(5) شوقي عطا الله الجمل : المرجع السابق ، ص 28 .

(6) الحسن محمد بن عبد القادر: المرجع السابق ، ص 60 .

التونسية مرحلة أزمة شديدة في أواخر القرن 15م ، ومطلع القرن 10هـــ / 16م . وهناك عوامل جديدة ظهرت أخلّت بما عرفته الدولة الحفصية ، من توازن دام قرونا عديدة ، ويبدو أن تلك التغيرات قد فرضها الوضع الدولي ؛ وهو أمر يتجاوز إطار البلاد التونسية وحدها [1].

فمن بين النتائج ، التي انجرت عن الكشوفات البحرية ، وعن الحيوية والنشاط ، اللذين شهدهما أوربا في عصر النهضة ؛ فقدان حوض البحر المتوسط مكانته ، بعد أن تحولت عنه الطرقات التجارية الكبرى ، والمعادن الثمينة . فضعف بذلك اقتصاد المدن المركّز على استخدام النفوذ ، وتأزمت مجتمعاتها ، وحرمت الدولة الحفصية من الموارد الخارجية ، التي كانت تحصل عليها من التجارة ، أو القرصنة ، وأعوزتها مؤازرة المجتمعات الحضرية ، التي كانت حليفها الطبيعي، وركيزتها الأساسية ، وبذلك انحلت هذه الدولة ، وفقدت القدرة على ردع القوى الانفصالية ، فقد استعاد سكان البلاد وخاصة القبائل استقلالهم ، وحريتهم عن سلطتها [2] ؛ حتى إن نفوذ الحفصيين لم يكن يتعد مدينة تونس نفسها ، في مطلع القرن 10 / 16م [3] .

ويمكن القول أن السلطان الحفصي في تونس لم يعد نفوذه يتعدى مدينة تونس نفسها قبل أن يغدو تحت حماية الإسبان في سنة 1535م . أما المناطق البعيدة كبسكرة ، قسنطينة ، وغيرها فخرجت عن نفوذه ، واستقلت عنه ، وصارت الموانئ التونسية تحت نفوذ القبائل العربية ، والطرق الصوفية كالشابية ، التي اتخذت من مدينة القيروان عاصمة لمملكتها [4].

2– الدولة الزيانية [5] بالمغرب الأوسط :

أما في النصف الغربي من المغرب الأوسط فقد أدت الخلافات على العرش في تلمسان إلى تقلص نفوذ الملوك الزيانيين فيها ، وتجزأت سلطنتهم إلى جمهوريات مدن صغيرة في وهران ، والجزائر ، وغيرها ، وإلى إمارات هنا ، وهناك في تنس ، الحضنة ، والزاب ، وتقرت. قبل أن تتعرض معظم المدن الساحلية إلى الاحتلال الإسباني [6] .

---

(1) محمد الهادي الشريف : المرجع السابق ، ص 64 .

(2) نفسه ، ص 64 ، 65 .

(3) شوقي عطا الله الجمل : المرجع السابق ، ص 28 .

(4) Ernest Mercier :Histoire de l’Afrique septentrionale , 3T, Ernest lerroux éditeur, Paris1891,T3, p 6 .

(5) لمعرفة أوضاع الدولة الزيانية خلال القرن 16م أنظر إلى كتاب : مختار حساني: الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدولة الزيانية ، ط1 ، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع ، 3ج ، الجزائر 2007 .

(6) عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص16 .

كان أولها المرسى الكبير في سنة 911 هـ /1505 م ، ثم وهران في سنة 914 هـ / 1509 م ، وتنس ، والجزائر [1]. وقد أدى التفكك ، والتجزؤ ، والغزو الإسباني إلى تدهور أوضاع منطقة المغرب الأوسط ، مما دفع السكان في بجاية ، وجيجل ، والجزائر ،وحتى في تلمسان إلى الاستنجاد بالعثمانيين عند ظهور الإخوة بربروس بسواحل المغرب الإسلامي[2].
فقد كانت حالة المغرب الأوسط أكثر سوءا من بقية بلدان المغرب الإسلامي ، نظرا لحالة الضعف التام ، الذي كان يعاني منها . مما عرّض أكثر موانئه للاحتلال الإسباني .

3- الدولة المرينية بالمغرب الأقصى :

أما المغرب الأقصى فلم يكن أحسن حالا ، فقد كان يعاني من التجزؤ ، والضعف ، والتفكك [3] ، مما جعل البلاد عرضة للحملات البرتغالية ، والإسبانية ، التي أصابت أهم المدن ، والمواقع الساحلية ، حيث احتل البرتغاليون أغادير في سنة 1505م ، ثم أزمور في سنة 1513م ، وتطلعوا لاحتلال مدينة مراكش الداخلية في سنة 1515م ، لكن محاولتهم باءت بالفشل . وكانوا من قبل احتلوا سبتة في سنة 1415م ، وطنجة ، وأصيلا وغيرها [4] . أما الإسبان فاحتلوا مليلة في سنة 1497م ، ثم حجر باديس في سنة 1508م [5] . وأمام عجز المرينيين ، ثم الوطاسيين في مواجهة الغزو الخارجي ، برز السعديون على المسرح السياسي في سنة 1509م انطلاقا من الجنوب ، وأخذوا شيئا فشيئا في التحكم في زمام الأمور [6].

و مما سبق يمكن القول إن الوضع السياسي الحرج ، الذي كانت تعيشه دول المغرب الإسلامي مع مطلع القرن 10هـ/16م من حالات الفوضى ، والانقسام ، وعدم الاستقرار السياسي ، قد أدى إلى عرقلة النشاط الاقتصادي ، وتردي الوضع الاجتماعي بها. كما أن الاختلال في موازين القوى بين ضفتي المتوسط ،كان عاملا مساعدا على تنفيذ المشروع الاستعماري المسيحي ، الذي قادته إسبانيا ، بعد أن استكملت وحدتها السياسية ، والقومية [7].

---

[1] مارمول: المصدر السابق ، ج2 ، ص ص 328 – 330 .
[2] علي محمد الصلابي : المرجع السابق ، ص195 .
[3] عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص 46 .
[4] نفسه : ص 48 .
[5] رأفت الشيخ: المرجع السابق ، ص375 .
[6] عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص 46 .
[7] محمد خير فارس المرجع السابق ، ص 21 ، 23 .

لكن ظهور العثمانيين في الحوض الغربي من البحر المتوسط في هذه الفترة ؛ بوصفها قوة بحرية عالمية ، ساعد على إنقاذ بلدان المغرب الإسلامي من الهجمة الإيبيرية الصليبية ، ومن مصير كان يبدو حتميا ، وأحدث نوعا من التوازن في القوى بين ضفتي المتوسط ، بعد أن كان قد اختلّ لصالح القوى الأوربية [1].

إن فترة القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، كانت حاسمة في تاريخ العلاقات بين الضفتين ، خاصة العلاقات بين الإيالات العثمانية في غرب المتوسط ، وإسبانيا ، فقد كان على دول المغرب الإسلامي إما الخضوع للاستعمار الأجنبي ، أو القيام بحركة تجديد ؛ وهذا العامل كان الفضل فيه للعثمانيين ، الذين أخضعوا المنطقة لسيطرتهم ، وحموها من الهيمنة المسيحية الإسبانية لمدة ثلاثة قرون .

ومما سبق يمكن أن نستنتج أن :

- إن حوض البحر المتوسط خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، تميز بوجود عدة قوى بحرية ، تحكمت في علاقاتها مصالحها المختلفة ، وإيديولوجياتها المتناقضة . حاولت كل قوة السيطرة على حوض البحر المتوسط وفرض نفسها فيه عسكريا ، واقتصاديا ، ودينيا .
- أما الإمبراطورية العثمانية حديثة العهد بالبحار ، والقوة البحرية المتنامية فقد حاولت أن توازن في حوض المتوسط ، بسبب ما تحمله من خلفية دينية فهي تمثل الخلافة الإسلامية ، ورثت تاريخ حضاري عظيم ، وورثت مسؤولية عظيمة كذلك ، والتي تتمثل في الدور المنوط بها من أجل حماية العالم الإسلامي . ورد الخطر الذي أصبح يهدد أقطاره ، خاصة بعدما حدث التقارب الإسباني الصليبي — الصفوي الشيعي .
- وجود قوى أوربية علاقاتها تتحكم فيها المصالح التجارية ومثالها الوحيد جمهورية البندقية ، التي تميزت بعقد المعاهدات المستمرة مع الدولة العثمانية من جهة ، وعقد التحالفات السياسية الدينية مع إسبانيا والكنيسة البابوية من جهة أخرى ، حفاظا على مصالحها التجارية في حوض المتوسط.
- وجود فرنسا القوة الأوربية ،التي حولت أن تجد لنفسها مكانا في أوربا ،وفي حوض المتوسط ، وبسبب تضارب المصالح الفرنسية والإسبانية لجأت فرنسا إلى التحالف مع الدولة العثمانية ، رغم الاختلاف الديني ، فكان ذلك أول إتفاق من نوعه في الفترة الحديثة بين الدولة العثمانية ، ودولة أوربية وهو ما يعرف في التاريخ بالإمتيازات .

---

[1] محمد خير فارس المرجع السابق ، ص 21 ، 23 .

- الإمبراطورية الإسبانية الكاثوليكية التي تحمل مسؤولية حماية العالم المسيحي ، ورفعت شعار الحرب الصليبية المقدسة ؛ تدعمها الكنيسة الكاثوليكية المتعصبة ، لكن رغم ذلك لم تستطع إخفاء نزعتها الاستعمارية للهيمنة على حوض البحر المتوسط . خاصة بعد أن تمّ الإتفاق بينها ، وبين البرتغال حول مناطق النفوذ .

- أما على الضفة الجنوبية للمتوسط مقابل إسبانيا وجدت دويلات المغرب الإسلامي ، التي كانت تعاني من الضعف ، والتجزؤ ، والانقسام والصراع السياسي المستمر ، ثم أصبحت مطمعا للمشاريع الإيبيرية الاستعمارية .

- إن العلاقات بين ضفتي حوض البحر المتوسط تحكمت فيها عدة عوامل مختلفة ، ولا يمكن حصرها في ظرف أو عامل واحد ، فطبيعة القوى الموجودة ، إلى جانب المصالح الاقتصادية ، والإستراتيجية ، دون إهمال العامل الديني الحضاري .

في ظل هذه الظروف المتباينة ، والقوى المختلفة ، كيف ستكون طبيعة العلاقات بين الضفتين ؟ بين إسبانيا المسيحية من جهة ، والإيالات العثمانية في غرب البحر المتوسط من جهة أخرى خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ؟ .

الفصل الثاني

العلاقات بين الجزائر وإمبراطورية إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي

المبحث الأول : العلاقات بين الجزائر وإسبانيا قبل سنة 1520م

المبحث الثاني : العلاقات بين الجزائر وإسبانيا من 1520م إلى 1558م

المبحث الثالث: العلاقات بين الجزائر وإسبانيا من 1558م إلى 1610م

الفصل الثاني:

العلاقات بين الجزائر وإمبراطورية إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي

إن العلاقات بين الجزائر ، وإسبانيا خلال القرن 10هـــ / 16م ، تعتبر فاتحة لباقي العلائق ، التي ربطت إسبانيا بباقي الإيالات العثمانية في غرب البحر المتوسط ، ذلك أن الجزائر كانت من أولى بلدان المغرب الإسلامي ، التي ارتبطت بالدولة العثمانية ، ومن جهة أخرى خضعت أغلب مدنها الساحلية للاحتلال الإسباني ، في غياب سلطة فعلية قادرة على حماية سواحلها . وقد أخذت العلاقات بين الطرفين في هذه الفترة عدة أشكال ، غلب عليها طابع العداء المستمر ، بسبب إخضاع الإسبان للسواحل الجزائرية منذ سنة 911هـــ/1505م ، واحتلالهم إياها . وبسبب غياب سلطة جزائرية قوية قادرة على حماية حدودها ، نظرا لضعف الدولة الزيانية ، سارعت بعض الزعامات ، والقبائل المحلية إلى التعاون مع الإسبان المحتلين .

ومن جهة أخرى سارعت زعامات جزائرية إلى الاستنجاد بقوى خارجية ؛ تمثلت في الدولة العثمانية ، بعد ظهور الإخوة بربروس في سواحل المغرب الإسلامي ، وهو ما كان سببا في ظهور الإيالة الجزائرية على مسرح الأحداث في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وبذلك تغيّرت طبيعة العلاقات بين إيالة الجزائر ، وإسبانيا ، وأخذت منحى آخر .

فلقد تحولت العلاقات بين الطرفين من مرحلة المد الإسباني المتزايد ، إلى محاولات جزائرية لتحرير سواحلها من الاحتلال ابتداءا من سنة 926هـــ/1520م ، بعد ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية ، أفشلت المحاولات الإسبانية المتكررة على السواحل الجزائرية ، ثم تطورت العلاقات بين الطرفين في الفترة مابعد سنة 1558م ، إلى مرحلة جديدة تميزت بالتراجع الإسباني وانحساره ، وفي المقابل ظهرت إيالة الجزائر كقوة بحرية عالمية ساهمت في إفشال المشروع الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط إلى جانب الدولة العثمانية . فنتساءل إذن عن الظروف التي وجدت فيها تلك العلاقات بين الجزائر ، وإسبانيا ؟ وعن مميزاتها ، وانعكاساتها على الطرفين ؟ وعلى منطقة حوض البحر المتوسط عموما ؟ .

المبحث الأول:

العلاقات بين الجزائر وإسبانيا قبل سنة 926هـ/1520م :

تميزت العلاقات في هذه الفترة بين الجزائر ، وإسبانيا بما نسميه بمرحلة المد الإسباني ، لأن إسبانيا استطاعت إخضاع أغلب المدن الساحلية الجزائرية ؛ عن طريق الاحتلال المباشر مثل ميناء المرسى الكبير، ومدينة وهران ، أو عن طريق توقيع اتفاقيات التبعية المباشرة . فكان على الجزائريين الخضوع للاحتلال الإسباني ، أو مقاومته . ومع غياب قوة محلية ، وعدم التكافؤ في القوى بين الطرفين ، استنجد الجزائريون بقوة خارجية مسلمة ، بعد ظهور الإخوة بربروس في سواحل المغرب الإسلامي ، وهو ماكان بادرة غيرت مجرى العلاقات بين الطرفين . لذلك نتساءل عن طبيعة العلاقات بين الطرفين في هذه الفترة ، وعن أهم المظاهر التي ميزتها ؟ .

أ – العلاقات بين الطرفين قبل بروز العثمانيين في السواحل الجزائرية (1505م–1512م) :

1– مرحلة المد الإسباني ، واحتلال السواحل الجزائرية :

استغل الإسبان حلة التفكك ، والضعف ، االتي كانت تعاني منها الدولة الزيانية ، لاحتلال مواقع ، ومدن عديدة جزائرية في مطلع القرن السادس عشر الميلادي ؛ كان أولها المرسى الكبير في سنة 1505م / 911 هـ ، في سنة 1509م / 914 هـ تم احتلال مدينة وهران [1] ، كما أرغمت كل من مستغانم ، تنس ، الجزائر، ودلس على الاستسلام ودفع الضرائب ، وأقيمت على صخرة الجزائر قلعة إسبانية لمراقبتها ، والتي تعرف بصخرة البينيون ؛ بناها الملك فرديناند لصد هجمات البحارة المسلمين ، ولمراقبة النشاط البحري لمدينة الجزائر ، كما فرض على سالم التومي حاكم مدينة الجزائر عقد هدنة مع إسبانيا تدوم عشر سنوات ، ودفع الجزية للملك الإسباني [2] . كما احتل الإسبان مدينة بجاية في سنة 1510 م / 915 هـ ، وعجزت السلطة الزيانية عن حمايتها ، وهو ما دفع السكان الجزائريين إلى الاستنجاد بالعثمانيين عند ظهور الإخوة بربروس بسواحل المغرب الإسلامي[3] .

---

[1] مارمول: المصدر السابق ، ج2 ، ص328 .

[2] نفسه ، ص 38 .

[3] محمد الصلابي: المرجع السابق ، ص195 .

2- دعوة الإخوة بربروس إلى الجزائر:

في الوقت الذي اشتدت فيه الهجمات الإسبانية على سواحل المغرب الإسلامي بصفة عامة ، وعلى سواحل المغرب الأوسط بصفة خاصة ؛ ضمن المشروع الإسباني الذي يهدف إلى احتلال المنطقة . وبسبب ضعف المقاومة المحلية ، وغياب السلطة الزيانية التي انحصرت في العاصمة تلمسان ، التي أعلن حكامها بدورهم التبعية للإسبان . كان ضروريا من ظهور قوة جديدة تقود عمليات التحرير ضد الاحتلال . فظهر الإخوة بربروس ، الذين سيلعبون دورا هاما في توجيه العلاقات بين بلدان المغرب الإسلامي ، وإسبانيا في الحوض الغربي للبحر المتوسط [1].

انتقل نشاط عروج وأخويه في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، من الحوض الشرقي للمتوسط إلى الحوض الغربي منه فجأة [2]. واستقر بتونس في سنة 1504م . وبعد أن ذاع صيت الإخوة بربروس في مختلف المناطق شرقا ، وغربا ؛ بفضل الانتصارات التي حققوها ضد الإسبان في الحوض الغربي للمتوسط ، وبفضل إنقاذهم لآلاف الأندلسيين الفارين من إسبانيا [3]. استنجد بهم سكان السواحل الجزائرية ، وكانت أول مدينة هي بجاية في سنة 1512م ، التي طلب سكانها تحريرهم من الإسبان [4] .

ب -العلاقات بين الجزائر ، وإسبانيا في الفترة (1512م-1520م) :

1- بداية التعاون بين الجزائريين والعثمانيين ضد الإسبان :

يعود أول تعاون بين الجزائريين ، والعثمانيين ضد الإسبان إلى المحاولة الأولى لتحرير بجاية ، التي قادها عروج في سنة 1512م ، لكنه فشل في تحريرها بسبب التحصينات الإسبانية ، فانسحب إلى تونس بعد أن بترت ذراعه [5] . ثم انتقل من تونس إلى جيجل، التي حررها من يد الجنويين [6]

---

[1] عزيز سامح التر : الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ترجمة : محمود علي عامر ، ط1 ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت 1989 ، ص 18 .

[2] أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الزمان ، 3ج ، ط2 ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1977 ،ج2 ، ص 9 .

[3] شارل أندري جوليان : المرجع السابق ، ص 326 .

[4] ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ص 10 .

[5] Diego de Haèdo : Histoire des Rois d’Alger, traduit par : H.D.DE Grammont, Adolphe jourdan . Libraire-éditeur, Alger 1881, p 19.

[6] احتلها أندري دوريا ووضع بها حامية تابعة لجنوة في سنة 1513م ، واقام بها مركزا تجاريا ، أنظر إلى عبد القادر فكاير : المرجع السابق ، ص 75 .

واتخذها قاعدة لنشاطه البحري ، الذي كثفه على الموانئ الإسبانية ، فحصل على غنائم كبيرة أرسل قسما منها للسلطان سليم الأول ، الذي أرسل له هدية ثمينة عبارة عن أسلحة وذخيرة كان في حاجة لها [1] . أعاد عروج حصار مدينة بجاية في سنة 1514م ؛ لكنه فشل بسبب نقص ذخيرته ، ورفض السلطان الحفصي محمد بن الحسن تزويده بالإمدادات خوفا من زيادة مكانة الإخوة بربروس في بلاد المغرب الإسلامي [2] .

2- المحاولات الجزائرية الأولى لتحرير السواحل الجزائرية من الإسبان :

تعود المحاولات الأولى لتحرير المدن الساحلية الجزائرية إلى سنة 1516م ، لما توفي الملك فرديناند الكاثوليكي ، فاستغل سكان مدينة الجزائر بقيادة سالم التومي هذه الفرصة ؛ للتخلص من الوضعية الصعبة ، التي فرضها عليهم الإسبان منذ سنة 1510م ؛ عند احتلالهم لصخرة البينيون ، التي وضعوا فيها حامية كانت تقيّد المدينة ، وتتحكم فيها . فكتبوا إلى عروج في مدينة جيجل يستنجدون به [3]. قبل عروج الدعوة من أجل نصرة إخوانه المسلمين [4] ، وجهز قوة أرسل نصفها بحرا ، واتجه مع النصف الآخر برا ؛ فاتجه مدينة إلى شرشال حيث قضى على تمرد لأحد أتباعه المدعو حسن قارة ؛ من أجل توحيد الصفوف ضد الإسبان ، و ترك بها حامية عسكرية ، ثم عاد إلى مدينة الجزائر فاستقبله سكانها ، وعلى رأسهم حاكمها سالم التومي[5] .

قام عروج بقصف قلعة البينيون بالمدفعية لمدة عشرون يوما ، لكنه لم يتمكن من تحطيمها ، لذلك أجّل أمر تحريرها لوقت لاحق . تخوفت إسبانيا من تمركز الإخوة بربروس بالمغرب الإسلامي ، وبالجزائر خاصة لذلك جهزت حملة عسكرية في سبتمبر 1516م ؛ قوامها ثلاثمائة وعشرين سفينة ، وخمسة عشر ألف جندي [6] بقيادة دييغو دي فيرا Digo de Vèra ، لكن الحملة الإسبانية منيت بهزيمة ساحقة بسبب الظروف الطبيعية ، فكان ذلك انتصارا كبيرا للإخوة بربروس ، ولسكان مدينة الجزائر ، من أجل ذلك سارعت المدن المحيطة بمدينة الجزائر ، وبلاد القبائل إلى الاعتراف بسيادة عروج ، وصار لإمارة الجزائر شأن عظيم [7] .

---

(1) مجهول : غزوات عروج وخير الدين ، تصحيح وتعليق :نور الدين عبد القادر ، المطبعة الثعالبية ، الجزائر 1934 ،ص 24 .

(2) ابن أبي الضياف : المصدر السابق : ص 11 .

(3) مجهول المصدر السابق ، ص 24 .

(4) Haèdo : op.cit , p 22 .

(5) Mercier : op.cit, p 16 .

(6) مجهول : المصدر السابق ، ص 29 .

(7) يحي بوعزيز : الموجز في تاريخ الجزائر ، 2ج ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1999 ، ج2 ، ص 258 .

كما تمكن عروج من الاستيلاء على مدينة تنس ، وقتل أميرها الزياني المتعاون مع الإسبان ، كما استنجد سكان مدينة تلمسان بعروج ضد ملكهم أبو حمو الثالث الزياني المتعاون مع الإسبان، فاتجه إليها ؛ وفي طريقه وضع حامية عسكرية تركية بقلعة بني راشد ، تحت قيادة أخيه إسحاق ليحمي مؤخرته . تمكن عروج من دخول مدينة تلمسان والإطاحة بأبي حمو الثالث ، الذي فر إلى مدينة وهران ، للاستنجاد بالإسبان ، ونصّب عروج أخاه أبا زيان ، الذي تآمر عليه هو الآخر ، فقتله هو الآخر مع أنصاره [1].

فتوجه أبو حمو الثالث على رأس قوة من الإسبان والأعراب إلى قلعة بني راشد ، فقتلوا الحامية التركية التي كان على رأسها إسحاق عام 924هـ/1518م [2] ، ثم وصلوا إلى مدينة تلمسان ، وضربوا عليها حصارا ؛ فتمكن عروج وجنوده من الصمود ستة أشهر ، ثم اضطر إلى الخروج باتجاه المغرب ، تفطن الإسبان لخروجه فلحقوا به ، واستشهد في شهر ماي سنة 1518م بعد مقاومة باسلة وعمره أربعة وأربعين عاما [3] .

ورغم استشهاد عروج إلا أنه تمكن من وضع أسس نظام قوي ، لدولة ستقوم في المغرب الأوسط ، وستتمكن من الوقوف في وجه الهجمات الإسبانية ، سيقيمها خلفه من بعده ، أي أخوه خير الدين بربروس .

3– ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية :

بعد استشهاد عروج وجد أخوه خير الدين ؛ الذي كان قد خلفه في مدينة الجزائر نفسه في وضعية صعبة ؛ فقد هددته الأخطار من كل جانب ، خطر الإسبان ، وأطماع الحفصيين من الشرق ، وتمرد مدن شرشال ، وتنس ، وبلاد القبائل بقيادة أحمد بن القاضي ، إضافة إلى نقص المؤونة ، والجند . في هذه الظروف الصعبة عزم خير الدين على مغادرة الجزائر ، لكن أعيان المدينة رفضوا ذلك ، وطلبوا منه البقاء [4] ، لذلك تراجع عن قراره وبدأ يعمل على تدعيم أسس الدولة الجزائرية ، التي جعل من مدينة الجزائر عاصمة لها ، والتي ستتولى مواجهة الحملات الإسبانية ، وحماية المنطقة المغربية . وبفضل عبقرية خير الدين ، الذي رأى أنه بحاجة إلى قوة حليفة تقف إلى

---

(1) Mercier : op.cit , p 19 .

(2) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492–1792) ، ط3 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1984 ، ص 189، 190 .

(3) نفسه : ص 190،191 .

(4) محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 29 .

جانبه لمواجهة الخطر المسيحي الإسباني ، ومشروعه الاستعماري ؛ فرأى أن القوة الوحيدة القادرة على حماية البلاد ؛ هي الدولة العثمانية الإسلامية ، فعرض ذلك على أعيان مدينة الجزائر ، الذين رضوا [1] ، ووجهوا رسالة إلى السلطان العثماني سليم الأول ؛ يطلبون فيها التبعية للدولة العثمانية في سنة 1519م [2] . فوافق السلطان على دخول الجزائر إلى أقاليمه ، ومنح خير الدين لقب بيلرباي ، وأرسل إلى الجزائر أسطولا بحريا ، وقوة من الإنكشارية ، وكمية من الأسلحة . وبذلك أصبحت الجزائر مرتبطة بالدولة العثمانية ، ومتحالفة معها ضد إسبانيا والعالم المسيحي ؛ وهذا ما وصفه المؤرخون الأوربيون بأنه بادرة غيرت مجرى التاريخ الإفريقي[3].

وفي سنة 1519م استطاعت الجزائر بقيادة خير الدين التصدي للحملة الإسبانية بقيادة هيجو دي مونكادا Hugo de Moncade ، التي انتهت بهزيمة الإسبان [4] ؛ بسبب مقاومة الجزائريين وجهادهم ، وهو ما أهمله المؤرخون الغربيون ، الذين فسروها بالعوامل الطبيعية [5] .

ومما سبق يمكن القول أنه بعد ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية ، سيبدأ التعاون الجزائري- العثماني ضد المشروع الإسباني الاستعماري ، وستأخذ العلاقات بين الجزائر ، وإسبانيا منعرجا آخر . تكتسب فيه إيالة الجزائر مكانة هامة في حوض البحر المتوسط ، بينما تحاول إسبانيا المضي في تحقيقي مشروعها الاستعماري في السواحل الجزائرية ، محاولة من وراء ذلك تثبيت وجودها في السواحل الجزائرية . فنتساءل عن طبيعة العلاقات بين الطرفين في الفترة ما بعد سنة 1520م.

---

(1) مجهول : المصدر السابق ، ص 42 .

(2) الرسالة موجودة في : عبد الجليل التميمي : أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول في سنة 1519م ، في م ت م ، العدد 06 ، تونس جويلية 1976 ، ص 118 .

(3) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ، ص 325 .

(4) عزيز سامح ألتر : المرجع السابق ، ص 76 .

(5) Haèdo :op.cit, p 37 .

المبحث الثاني :

العلاقات بين الجزائر وإسبانيا من 1520م إلى 1558م

تميزت العلاقات بين الطرفين في هذه الفترة بارتباط الجزائر بالدولة العثمانية ، وظهور الإيالة الجزائرية بقيادة خير الدين بربروس ، التي بدأت محاولاتها لتحرير سواحلها من الاحتلال الإسباني ، متعاونة مع الدولة العثمانية ، في حين حاول الإسبان تثبيت وجودهم في السواحل الجزائرية . وقد تميزت العلاقات بين الطرفين في هذه الفترة بمرحلة من الصراع المتواصل على طول الساحل المغربي، واستمرار المد الإسباني الذي يهدف إلى تحقيق المشروع الإسباني الاستعماري بقيادة الكونت دالكودايت ، الذي فشل بمقتل هذا الأخير . فنتساءل عن طبيعة العلاقات بين الطرفين بعد ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية ، وما هي انعكاساتها على الطرفين ؟ . ويمكن أن نوجز هذه المرحلة من علاقات الطرفين في عدة عناصر أهمها :

1- محاولات الجزائريين التحرير بعد ارتباطهم بالعثمانيين :

تخوف سلطان تونس الحفصي ، وحاكم تلمسان من الانتصارات ، التي حققها خير الدين ؛ لذلك عملوا على توحيد جهودهما ضده ، عن طريق إثارة الفتنة بينه وبين نوابه ، الذين عينهم على المنطقتين الشرقية ، والغربية ، وهما : أبو العباس أحمد بن القاضي ، ومحمد بن علي [1] . هذا ما أدى إلى فتنة في الجزائر ، اضطر على إثرها خير الدين إلى مغادرة مدينة الجزائر ، والتوجه إلى مدينة جيجل ، فاستقر بها خمس سنوات من سنة 1520م إلى سنة 1525م ؛ استغلها في تنظيم أسطوله ، وتنظيم جيشه ؛ ففتح القل في سنة 1521م ، ثم عنابة ، وقسنطينة قي سنة 1522م ، وفي سنة 1525م استغل خير الدين نقمة أهالي مدينة الجزائر على ابن القاضي . فتوجه إلى متيجة وتمكن من الانتصار عليه ، ودخل مدينة الجزائر ، ثم أخضع مدينة شرشال ، وقتل حسن قارة ، ثم توجه إلى عاصمة الزيانيين تلمسان ، وأخضع حاكمها محمد بن عبد الله ، وبذلك تمكن خير الدين من توحيد الجبهة الداخلية ، التي امتدت من مدينة جيجل إلى مدينة مستغانم ، ماعدا مدينة بجاية وقلعة البينيون[2] . التي سيركز جهوده من أجل تحريرها ، وإنهاء الوجود الإسباني فيها بسبب التهديد المستمر لمدينة الجزائر ، وسكانها .

---

[1] مجهول : المصدر السابق ، ص 44 .

[2] محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 32 .

قرر خير الدين تحرير قلعة البينيون في سنة 1529م لتخليص الجزائريين من المدفعية الإسبانية الموجهة إلى منازلهم . كان قائد القلعة هو دون مارتن دي فيرغاس Don Martin de Vergas ، وكانت الحامية الإسبانية تعيش ظروف صعبة ، ونقص في التموين [1] ، لذلك استغل خير الدين هذا الوضع ، وأرسل إلى قائد الحامية الإسبانية ينذره بالتوقف عن أذية سكان المدينة ، لكن الحامية لم تأخذ بإنذاره ؛ لذلك بدأ في قصفها يوم 06 ماي 1529م [2] ، فرد الإسبان بقصف مدينة الجزائر ، استمر القصف المتبادل خمسة عشر يوما ، ورفض أفراد الحامية الاستسلام رغم تعهد خير الدين بضمان حمايتهم ، وحريتهم . وفي يوم 27 ماي 1529م هاجم الجزائريون القلعة ليلا ، وتمكنوا من قتل ، وأسر من كان فيها [3] ، وكان عددهم سبعمائة جندي إسباني [4].

بعد الانتهاء من عملية تحرير حصن البنيون ، أمر خير الدين بتهديم القلعة ، وأقام على أنقاضها رصيف متصل بمدينة الجزائر، وبذلك صار للمدينة ميناء ترسو به السفن ، يحميها من الرياح والأعداء ، وصارت الجزائر معقلا قويا للنشاط البحري في حوض البحر المتوسط .

2- الحملة الإسبانية على شرشال في سنة 938هـ/1531م :

بعد تحرير الجزائريين لقلعة البينيون ، وبسبب شكاوي سكان المدن الساحلية الإسبانية من تهديد البحارة الجزائريين لهم[5]؛ قرر شارلكان توجيه حملة ضد الجزائر في سنة 1530م للانتقام منها ، وإبعاد خطرها عن حوض المتوسط ، فأسند قيادة تلك الحملة إلى أندري دوريا ، وكان خير الدين قد عزز تحصينات مدينة شرشال ، وأقام بها رصيفا لحماية السفن الجزائرية من الهجمات الإسبانية ، استخدم الأسرى المسيحيين في بنائه ؛ وهو مماثل لرصيف مدينة الجزائر [6].

أما أندري دوريا فقد شرع في الإعداد للحملة منذ سنة 1530م . وقد اختار دوريا مدينة شرشال لهذه الحملة نظرا لموقعها الاستراتيجي ؛ لقربها من جزر البليار ، ولإسبانيا ، ولنجدة الأسرى المسيحيين ، الذين كان عددهم بها كبير [7] ؛ وللإنتقام من المهاجرين الأندلسيين ، الذين

---

(1) DE Grammont : op.cit , p 34 .

(2) أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 215 .

(3) Ellie de la Primaudie : documents inédits … « lettre écrite d'Alger par un espion juif » in R.A , Alger 1875 , T19 , p 165 .

(4) سامح التر : المرجع السابق ، ص 87 .

(5) نفسه ، ص 94 .

(6) نفسه ، ص 95 .

(7) Haèdo : op.cit , p 44 .

قد استقروا بها ، وكان لهم دور كبير في الحملات الجزائرية على السواحل الإسبانية [(1)].

وفي شهر جويلية سنة 1531م تحرك الأسطول الإسباني من جنوة باتجاه مدينة شرشال ، والذي كان يتكون من عشرين سفينة على متنها ألف وخمسمائة مقاتل [(2)] ، وعند وصول الإسبان إلى المدينة ، اضطر سكانها إلى إخلائها ، بينما احتمت الحامية الجزائرية وراء أسوار القلعة ، في انتظار وصول المساعدات العسكرية من الجزائر ، ومن داخل البلاد [(3)] . فتمكنت القوات الإسبانية من دخول المدينة دون مقاومة ، وتم تحرير الأسرى النصارى ، وقد أعطيت الأوامر للجنود الإسبان بالعودة إلى السفن عند تلقيهم الإشارة المتفق عليها ، وعدم الانغماس في سلب المدينة خوفا من وصول الأسطول الجزائري[(4)] .

وقد انتهت المعركة بمقتل ألف وأربعمائة إسباني حسب بعض المصادر الإسلامية [(5)] ، بينما ذكرت أخرى مائة وخمسون [(6)]. أدرك دوريا خطورة الموقف بسبب القصف المدفعي ، فقرر الانسحاب بسرعة تاركا ستمائة أسير بيد الجزائريين [(7)]. أما خير الدين فقد وصل إلى شرشال ، وتمكن من الاستيلاء على سفينتين محملتين بالأسلحة ، والمؤن تابعتين للأسطول الإسباني . كما قام بعدة حملات على سواحل إسبانيا ؛ أنقذ خلالها حوالي سبعين ألف لاجئ مسلم ، استقروا في مدينة الجزائر ، استغل خبرتهم في محاربة القراصنة الإسبان . لذلك استثمرت الدولة العثمانية حنكته في مواجهة الخطر الإسباني في الحوض الغربي للمتوسط [(8)].

3- التعاون الجزائري – العثماني في مواجهة إسبانيا في المتوسط :

بعد الانتصارات التي حققها خير الدين ضد الإسبان في الجزائر ، والدور الذي لعبه في إنقاذ مسلمي الأندلس ، ونقلهم للسواحل الجزائرية [(9)] ، استدعاه السلطان العثماني إلى استانبول ؛ من أجل تعيينه قائدا للبحرية العثمانية لمواجهة الأسطول المسيحي ،الذي يقوده دوريا ،ويهدد السفن ،

---

(1) سامح التر : المرجع السابق ، ص 95 .

(2) DE Grammont : op.cit , p 37 .

(3) أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 234 .

(4) Haèdo : op.cit, p 45 .

(5) مجهول : المصدر السابق ، ص 72 .

(6) سامح التر: المرجع السابق ، ص 95 .

(7) Haèdo :op.cit, p 45.

(8) يحي بوعزيز : علاقات الجزائر الخارجية ، المرجع السابق ، ص 39 .

(9) مجهول : المصدر السابق ، ص 82 .

والسواحل الإسلامية في حوض المتوسط ، فأرسل في طلبه في سنة 939 هـ/ 1533م [1].

فاستخلف خير الدين أحد وهو حسن أغا . ثم توجه إلى استانبول على رأس أسطول يتكون من نحو عشرين سفينة [2] ، وفي طريقه هاجم بعض المواقع الإسبانية ، التي تؤذي المسلمين؛ منها سردينيا ، صقلية ، وجزر البليار، واستولى على العديد من السفن المسيحية ، والأسرى . حيث وصل إلى استانبول في سنة 1534م ؛ على رأس أسطول مكون من أربعين سفينة جيّدة التسليح ، ويحمل معه غنائم معتبرة ، وقد حظي باستقبال حارمن طرف السلطان العثماني ، الذي منحه لقب قابودان باشا ، وأعطاه صلاحيات عسكرية [3] . كما زوده بقوة عسكرية قدرت بثمانين سفينة ، وثمانية آلاف جندي مع ما يلزمه لإنجاز تلك المهمة [4].

وبهذا تحالفت البحرية الجزائرية مع البحرية العثمانية ؛ لتشكل جبهة إسلامية قوية في مواجهة الجبهة المسيحية الأوربية بقيادة إسبانيا ، حيث اشتد الصراع بين الجبهتين في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، وكانت أول مواجهة بين الجبهتين في تونس .

4- نشاط البحرية الجزائرية ضد سواحل إسبانيا ردا على احتلال تونس :

كانت تونس إحدى جبهات الصراع بين الجزائر ، وإسبانيا حيث استطاع خير الدين ضمها للدولة العثمانية في سنة 1534م ، من أجل بسط سيطرتها على الحوض الغربي للبحر المتوسط ، والتحكم في طرق مواصلاته ، وهو ما شكل خطرا على إسبانيا . لذلك قرر شارلكان تدعيم مركزه في حوض المتوسط ، خاصة الضفة الجنوبية منه بعد أن احتل تونس في سنة 1535م ، إلا أن ذلك لم يمنع السواحل الإسبانية من تلقي ضربات موجعة على يد البحرية الجزائرية ، التي ظلت تنشط باستمرار في الحوض الغربي من المتوسط .

فقد قرر خير الدين الرد على احتلال تونس بتوجيه ضربة عنيفة للإسبان في عقر دارهم ، واختار مدينة ماهون عاصمة جزر البليار ، التي كان سكانها يحتفلون بانتصار الإسبان في تونس ، فهاجم المدينة فجأة في أواخر شهر سبتمبر سنة 1535م ، واستحوذ على غنائم كثيرة ، ثم احتل جزيرة مينوركة بأكملها ، وعاد إلى مدينة الجزائر محملا بالغنائم مع ستة آلاف أسير [5] ، ثم توجه

---

(1) سامح التر : المرجع السابق ، ص 100 .

(2) أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 229 .

(3) سامح التر: المرجع السابق ، ص 103 ، 104 .

(4) Mercier : op.cit, p 34 .

(5) سامح التر : المرجع السابق ، ص 121 .

إلى استانبول لتلبية طلب السلطان العثماني في 15 أكتوبر سنة 1535م [1] .

كما تعاونت البحرية الجزائرية مع الدولة العثمانية في صراعها ضد الإسبان ، عندما شكلت الدول الأوربية المسيحية حلفا مقدسا لضرب الدولة العثمانية ؛ ضم كل من إسبانيا ، البابوية ، البندقية ، وفرسان مالطة ، وذلك في فيفري سنة 1538م [2] ؛ ضم الأسطول المسيحي مائتي سفينة على متنها أكثر من ستين ألف رجل ، بينما ضم الأسطول العثماني مائة وثلاثون سفينة على متنها ثلاثون ألف رجل ، وكان اللقاء في خليج أرتا Arta ، وبالضبط في بريفيزا Prévéza [3] . قاد الأسطول العثماني خير الدين ، بينما قاد أسطول التحالف المسيحي أندري دوريا . وقد انتهت المواجهات بين الطرفين في معركة بريفيزا بانتصار الأسطول الإسلامي ، وتصدع التحالف الأوربي بعد انسحاب جمهورية البندقية ، التي وقعت معاهدة صلح مع الدولة العثمانية في سنة 1538م [4].

كما تمكن درغوث رايس في شهر جويلية سنة 1539م ؛ وهو أحد تلامذة خير الدين من استرجاع مدينة كاستيل نوفو Castel Nouvo ، التي كان أندري دوريا قد احتلها في سنة 1538م [5] .كما أغار الأسطول الجزائري في سنة 1539م على الموانئ الإسبانية بجبل طارق ، وعاد محملا بالأسرى حيث تم بيعهم في مدينة تطوان المغربية .

ونظرا لنشاط البحرية الجزائرية ، وتحت ضغوط سكان السواحل الإسبانية ، ازداد الصراع بين الجزائر ، وإسبانيا فقرر شارلكان القيام بحملة ضخمة في سنة 1541م للقضاء على الدولة الجزائرية ، وقوتها البحرية بعد انتقال خير الدين ، إلى عاصمة الدولة العثمانية .

5- المفاوضات الإسبانية – الجزائرية (1538م-1541م):

يجب الإشارة إلى قضية تمثل مظهرا هاما في العلاقات بين الجزائر ، وإسبانيا طرحتها المصادر الأوربية باستمرار ، رغم أن المصادر الإسلامية لم تشر إليها ؛ ألا وهي قضية المفاوضات بين حكام الجزائر ومبعوثين عن الملك الإسباني شارلكان . ذكرتها بعض المصادر الغربية ، والإسبانية أنه خلال الفترة مابين سنتي 1538م و1541م ؛ جرت مفاوضات بين شارلكان وخير الدين ، ومفاوضات أخرى بين حاكم وهران الكونت دالكودايت ، وحسن أغا خليفة خير الدين

---

(1) DE Grammont : op.cit , p 40 .

(2) جون .وولف : المرجع السابق ، ص 53 .

(3) وهي قاعدة عسكرية عثمانية بألبانيا . أنظر إلى إسماعيل أحمد ياغي : المرجع السابق ، ص 70 .

(4) محمد فريد بك : المرجع السابق ، ص 235 .

(5) Haèdo : op.cit , p 56 .

على الجزائر، بينما لم تشر المصادر الإسلامية إلى حدوث تلك المفاوضات مثل: صاحب الغزوات .

لقد كان شارلكان يطمح إلى السيطرة على الحوض الغربي للمتوسط ، خاصة بعد احتلاله لمدينة تونس في سنة 1535م ، وتوجيه حملة ضد مدينة الجزائر ، لكنه كان يعاني من مشاكل في أوربا [(1)] ، لذلك لجأت الدبلوماسية الإسبانية إلى أساليب أخرى ، كالخديعة ، والمناورات السياسية ، [(2)]. فقد حاول شارلكان استغلال طموحات خير الدين ، ودفعه إلى قطع صلته بالسلطان العثماني ؛ للقضاء على التحالف العثماني – الجزائري ، وبالتالي الإنفراد بالجزائر ، وعزلها حتى يتمكن من القضاء عليها [(3)].

وحسب المصادر الأوربية فإن المفاوضات بين الطرفين ، بدأت في شهر سبتمبر سنة 1538م؛ أشرف عليها من الجانب الإسباني أندري دوريا ، وقد عرض المفاوضون الإسبان على خير الدين الإعتراف به كملك للجزائر ، والتنازل له عن عنابة ، بجاية ، وطرابلس ، وحتى عن تونس مقابل تبعيته لإسبانيا ، والتخلي عن موالاته للسلطان [(4)] ، وقد استمرت تلك المفاوضات ثلاث سنوات. وتذكر المصادر الأوربية أن خير الدين طوال تلك المدة كان يطلع السلطان على كل التفاصيل [(5)]. وتشير مصادر أخرى أن خير الدين ظل يحاور مبعوث الإمبراطور شارلكان لمدة عامين ، وتسلّم الهدايا ، التي أرسلها الإسبان له ، لكن السلطان العثماني أمر بإلقاء القبض على الدكتور روميرو D.Romero ؛ الذي كان يشرف على الاتصالات ، بتهمة التحريض على الخيانة [(6)] .

ويرجع المؤرخون الأوربيون فشل المفاوضات إلى الدور ، الذي لعبه الملك الفرنسي فرانسوا الأول ، الذي أطلع السلطان العثماني على المؤامرة [(7)]. لكن الراجح أن خير الدين أراد كسب الوقت للإستعداد لمواجهة التهديدات الإسبانية المستمرة للجزائر ؛ لأن الإسبان أنفسهم إعترفوا منذ سنة 1540م ، بإخلاص خير الدين للإسلام وللسلطان العثماني ، وأنه غير قابل للمساومة [(8)] .

---

(1) DE Grammont : op.cit , p 56 .

(2) Watbled et Monnerau : « Négociation entre CHARLES-QUINT et KHEIR-EDDINE (1538-1540) » in R.A , Alger 1871 , T15 , p 139 .

(3) سامح التر : المرجع السابق ، ص 155 ، 156 .

(4) Watbled et Monnerau : op.cit , p 140 .

(5) DE Grammont : op.cit , p 57 .

(6) سامح التر : المرجع السابق ، ص 156 .

(7) مولاي بالحميسي : غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر ، في مجلة الأصالة ، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، الجزائر ماي – جوان 1972 ، العدد 8 ، ص 96 . و جون.وولف : المرجع السابق ، ص 55 .

(8) Watbled et Monnreau : op.cit , p 145 .

وهناك مفاوضات أخرى وردت لدى المصادر الأوربية ، وهي التي كانت بين حاكم وهران الكونت دالكودايت le Conte d'Alcaudète [1] ، وحسن أغا في الجزائر ؛ فحسب المصادر الأوربية أن الإسبان بعدما فشلوا في استمالة خير الدين ، حاولوا كسب خليفته حسن أغا في سنة 1540م . وقد أجرى الإسبان حسب المصادر الأوربية عدة إتصالات عبر حاكم وهران ، مع حسن أغا من أجل تسليم مدينة الجزائر للإسبان [2] .

وترجع المصادر الأوربية فشل المفاوضات ؛ إلى أحد القادة الجزائريين [3] ، الذي إتصل بحسن أغا،وأخبره بعلمه بها ؛ فأدرك حسن أغا العواقب التي قد تلحق به في حالة الإستمرارفيها ، فأعلن رفضه الإستمرار فيها للمندوب الإسباني الدون لوريتزو مانويل Don Lorenzo Manuel [4].

إن المصادر الأوربية حاولت إثبات صحة المفاوضات ، والإتصالات ؛ للتشكيك في نزاهة ، وإخلاص حكام الجزائر ، ورغم عدم تطرق المصادر الإسلامية لهذه الاتصالات ، إلا أنها مثلت مظهرا للعلاقات بين الجزائر ، وإسبانيا .

6- حملة شارلكان على مدينة الجزائر في سنة 948هـ/1541م :

كان شارلكان يفكر في توجيه حملة ضخمة ضد مدينة الجزائر منذ 1535م ؛ يقضي بها على الدولة الجزائرية الحديثة ، ويفرض سيطرته على الحوض الغربي للبحر المتوسط ، لكن انشغاله بالمشاكل الأوربية حال دون تنفيذ مشروعه . وما إن استتب له الوضع في أوربا ، حتى جمع حوله كل الأمم المسيحية ، وتمكن من تجهيز أكبر حملة عسكرية عرفها البحر المتوسط ، خلال القرن 16م ، فكانت حملة 1541م على مدينة الجزائر [5]، والتي جاءت لعدة دوافع منها :

- محاولة شارلكان استغلال فرصة وجود خير الدين بالشرق ، الذي كان قد استدعي من طرف سليمان القانوني ، ظنا منه أن غيابه ترك فراغا كبيرا في الدولة الجزائرية ، وحرمها من تلك القوة المعنوية ، التي كانت تستمدها من شخصية خير الدين وسمعته [6] .

---

(1) حاكم وهران الإسباني في الفترة مابين 1534م و1558م ، كان له دور كبير في تثبيت الاحتلال الإسباني في الغرب الجزائري ، قتل في حملته الأخيرة على مستغانم في سنة 1558م ، وسيتم التطرق لها لاحقا في هذا المبحث الثاني .

(2) DE Grammont : op.cit , p 58 .

(3) اسمه القائد محمد ، وهو أحد يهود الأندلس الذين هاجروا إلى الجزائر ، عبد القادر فكاير : المرجع السابق ، ص 175 .

(4) Berbrugger A : Négociation entre Hassan Aga et le Conte d'Alcaudète gouverneur d'Oran , 1541-1542 , in R.A , Alger 1865 ,T9, p 380 .

(5) مجهول : المصدر السابق ، ص 116 .

(6) أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 271 .

– كانت إسبانيا ترى أن احتلال الجزائر ، يمكنها من طرد العثمانيين من الحوض الغربي المتوسط ، لتتمكن من عزل فرنسا ، وتحرمها من دعم العثمانيين في حربها ضد شارلكان ؛ خاصة وأن فرانسوا الأول كان قد عقد تحالفا ، مع السلطان العثماني سليمان القانوني ضد شارلكان [1].

– محاولة شارلكان تخفيف الضغط العثماني على أوربا ، خاصة النمسا والمجر ؛ بتوجيه اهتمام السلطان العثماني سليمان القانوني إلى الحوض الغربي للمتوسط [2] .

– أراد شارلكان رد الإعتبار للأسطول الإسباني ، الذي مني بهزائم فادحة سواء على الجبهة الشرقية ، أمام الأسطول العثماني – الجزائري ، أو على الجبهة الغربية ؛ بعدما تكسر أمام مدينة الجزائر خلال سنوات : 1516 – 1519 – 1531 [3].

– رغبة إسبانيا ومن ورائها الدول الأوربية في تحطيم الجزائر ؛ باعتبارها أخطر قاعدة للقراصنة ، تسببت في دمار وخراب السواحل الإسبانية ، ثم إنها الوحيدة التي لم تخضع للاحتلال الإسباني ، عكس الموانئ المغربية الأخرى ، كما أن احتلالها يعني السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط، خاصة وأن مدينة الجزائر تراقب كل الطرق الكبرى للبحر المتوسط [4] .

– كما أن الرعايا الإسبان كانوا قد اشتكوا مرارا مما يفعله بهم أهل الجزائر ، لذلك قرر الإمبراطور شارلكان مهاجمة مدينة الجزائر ، خاصة بعد فشل المفاوضات الإسبانية مع خير الدين ، ثم مع خليفته حسن أغا [5] . على حد قول المصادر الغربية .

– أما على الصعيد المحلي فقد كان الجواسيس الإسبان ، يرسلون التقارير المفصلة ، وباستمرار للإمبراطور شارلكان حول الوضع الداخلي للجزائر ؛ منها تقرير مؤرخ في 29 مارس سنة 1536م ، أرسله حاكم بجاية فرانسيسكو بيريز دي إيديا كاييز Francisco Pérez de Idiacayz ، الذي يطلع فيه الإمبراطور شارلكان على طبيعة القوات الموجودة في مدينة الجزائر ، وعن حالة أسوارها [6] ، وعن قلق الأهالي تخوفا من حملة إسبانية مؤكدة ،كما أشار التقرير إلى حالة أسوار

---

[1] محمد فريد بك : المرجع السابق ، ص 209 .

[2] مولاي بالحميسي : المرجع السابق ، ص 95 .

[3] يحي بوعزيز : علاقات الجزائر الخارجية ، المرجع السابق ، ص 15 .

[4] مولاي بالحميسي : المرجع السابق ، ص 94 .

[5] جون .وولف : المرجع السابق ، ص 55 .

[6] النص الكامل للتقرير موجود في : DE la Primaudie : Documents inédits … in R.A , Alger 1877 ,T21, p p 83-86 .

مدينة الجزائر ، التي تهدمت بسبب الأمطار التي تساقطت في فصل الشتاء ، وأن الأهالي يعملون على ترميمها بسرعة ، لكن الأشغال تسير ببطء ، نظرا لقلة البنائين العارفين [1] .

– أما على الصعيد الدولي ، فإن الدولة العثمانية كانت منشغلة بحربها في النمسا والمجر ، فقد وجدت مقاومة عنيفة من طرف المسيحيين ، رغم الانتصارات التي حققتها [2] .

– أما في أوربا الغربية فقد تمكن شارلكان من عقد هدنة مع خصمه فرانسوا الأول ؛ ملك فرنسا في سنة 1537م ، ثم في سنة 1538م ، لعب فيها البابا بولس الثالث دورا هاما [3] ، بهدف توحيد أوربا المسيحية لصد التقدم الإسلامي نحو إيطاليا . وفي سنة 1539م عقد اجتماع بين شارلكان وملك فرنسا فرانسوا الأول في إيغ – مورث Aig - Mortes ؛ دعم الصداقة بينهما ، تعهد فيه الملك الفرنسي فرانسوا الأول التزام الحياد ؛ وهو ما مكن شارلكان من إعداد أسطول صليبي ضخم ، ترأسه لمهاجمة الجزائر في سنة 1541م [4].

أدرك شارلكان بأن الوقت مناسب لتنفيذ مشروعه ، فبدأ في الاستعدادات المادية ، والبشرية، والتي شرع فيها في أواخر سنة 1540م ، وقد أخفى هذا الأمر ؛ مكيدة منه [5] ، وقد وصلت الحملة الإسبانية إلى السواحل الجزائرية مع مطلع شهر اكتوبر سنة 1541م . حيث أرسل شارلكان خطابا متعجرفا مع أحد فرسانه إلى حسن أغا ، يطلب منه تسليم المدينة إليه باعتباره ملك الملوك ، لكن رد حسن أغا جاء متحديا ، ورافضا [6]. وقرر قيادة الجزائريين للمقاومة .

كانت خسائر الجيش المسيحي بقيادة شارلكان كبيرة ماديا ، وبشريا ، وكان للحملة نتائج هامة على الجزائر ؛ أهمها ترسيخ دعائم الوجود العثماني في الجزائر والدولة الجزائرية الحديثة أكثر من أي وقت مضى ، كما غدا موقف الإسبان من موقف هجوم إلى موقف دفاع ، إذ ما لبثوا أن فقدوا مدينة بجاية ، واشتدت الحملات الجزائرية التحريرية على وهران والمرسى الكبير ، كما تفرغ حكام الجزائر إلى توطيد نفوذهم باتجاه الشرق ، الغرب ، والجنوب [7] .

---

(1) Fernand Braudel : les Espagnoles et l’Afrique du Nord , op.cit , p 367 .

(2) أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 272 .

(3) اسمه الحقيقي أليسندرو فارنيز Alessandro Farnèse ، ولد في سنة 1468م ، تولى البابوية في 13 أكتوبر سنة 1534م، توفي في سنة 1549م . أنظر إلى عبد القادر فكاير : المرجع السابق ، ص 180 .

(4) جون .وولف : المرجع السابق ، ص 56 .

(5) مجهول : المصدر السابق ، ص 115 .

(6) جمال قنان : نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830 ،المؤسسة الجزائرية للطباعة ،الجزائر 1987، ص46 .

(7) عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص 31 .

أما دوليا ، فقد كان لهزيمة شارلكان في الجزائر صدى كبير في حوض المتوسط ؛ أكسبها شهرة واسعة مكنتها من لعب دور نشيط في الحوض الغربي منه [1] ، ومنذ هذا التاريخ أخذت الجزائر صفة المحروسة ، وصار يحسب لها ألف حساب . أما شارلكان فبعد هزيمته في الجزائر اعتزل السياسة ، وترك تاجه وعرشه ، وتستر في أحد الأديرة . أما أوربا والعالم المسيحي ؛ فقد أصيبوا بخيبة أمل بعد تلك الهزيمة ، وتكونت لديهم قناعة بأن مدينة الجزائر لا تقهر.

7- القضاء على عملاء الإسبان ، وتوطيد الحكم الجزائري بعد سنة 1541م :

بعد الانتصار الساحق الذي حققه الجزائريون ضد القوات المسيحية ، التي قادها شارلكان، زادت مكانة النظام الجزائري لدى الشعب ، عمل حكام الجزائر على توسيع مجال سلطتهم ليشمل المناطق ، التي مازالت غير خاضعة للحكم المركزي ، وكان زعماؤها تابعين للحكام الإسبان في وهران . فبدأ حسن أغا بإخضاع إمارة كوكو ، التي كان حاكمها أحمد بن القاضي مواليا للإسبان [2] منذ شهر أفريل من سنة 1542م . كما أرسل حسن أغا قوة عسكرية إلى وهران في شهر جويلية سنة 1542م من أجل تحرير المرسى الكبير من الإسبان ، حيث وقعت اشتباكات بين الطرفين انتهت بانسحاب القوات الجزائرية ، ورغم فشله في تحرير المرسى الكبير ، لم يتوقف عن مواجهة الإسبان في الغرب الجزائري ، فتوجه إلى مدينة تلمسان [3] .

كانت تلمسان تشهد صراعا سياسيا على العرش[4]؛ بين أبو محمد عبد الله وأخوه أبو زيان أحمد ؛ ولدي أبو محمد عبد الله ، انتهى هذا الصراع باستيلاء الإبن الأكبر أبو عبد الله على الحكم، الذي أعلن ولاءه للإسبان [5]. فتوجه حسن أغا نحو تلمسان في أواخر سنة 1542م بهدف تضييق الخناق على الإسبان في الغرب الجزائري ، فدخلها وأبعد أبا محمد عبد الله ، ونصّب مكانه أخاه أبا زيان أحمد تابعا له ، ثم عاد إلى مدينة الجزائر[6] ، بعد أن خضعت له كل القبائل المتواجدة في الغرب الجزائري ، باستثناء قبيلة بني عامر . وبذلك أصبح الإسبان محصورين في الساحل الجزائري الغربي [7] .

---

(1) مولاي بالحميسي : المرجع السابق ، ص 108 .

(2) Haèdo : op.cit , p 65 .

(3) عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص 33 .

(4) مارمول : المصدر السابق ، ج2 ، ص 313 .

(5) سامح التر : المرجع السابق ، ص 168 ، 169 .

(6) DE Grammont : op.cit , p 69 .

(7) سامح التر : المرجع السابق ، ص 169 .

8- المد الإسباني ومحاولات التثبيت ، وفشلها :

استغل الإسبان استنجاد أبو عبد الله بهم ضد أخيه أبي زيان أحمد من أجل توسيع دائرة نفوذهم ؛ بإخضاع تلمسان لسلطتهم ، فأمدّ الكونت دالكودايت أبا عبد الله بالقوة العسكرية ، وخاض هذا الأخير معركة عسكرية ضد أخيه في جانفي سنة 1543م ، لكنه انهزم . لذلك قرر دالكودايت توجيه حملة ضخمة ضد تلمسان يتولى قيادتها بنفسه [1] .

فاتجه دالكودايت في 27 جانفي 1543م على رأس قوة عسكرية تتكون من أربعة عشر ألف جندي إلى تلمسان [2]. وفي 25 فيفري سنة 1543م التقى الإسبان بقوات أبي زيان ، التي قدرت بثمانية آلاف وأربعمائة جندي [3] ، ورغم محاولات أتباعه اعتراض طريق الإسبان لكنهم فشلوا في إيقافهم [4]. فانهزم أبو زيان الموالي للدولة الجزائرية ، ودخلت القوات الإسبانية مدينة تلمسان ، حيث تعرضت المدينة لعمليات السلب ، والاعتداء على المقدسات [5] .

أعاد دالكودايت تنصيب أبي عبد الله على عرش تلمسان ، بعد أن اعترف بولائه للإسبان بتوقيع معاهدة في 26 فيفري 1543م ، وفي طريقه تعرضت قواته لهجومات من طرف الجزائريين ولحقت به خسائر كبيرة [6] . ورغم كل ذلك ظل دالكودايت متمسكا برغبته في توسيع النفوذ الإسباني ؛ تأمينا له من التهديدات الجزائرية المتكررة ، فكانت وجهته التالية مدينة مستغانم [7].

فقد أراد دالكودايت احتلال مستغانم لأنها تمثل الموقع الأمامي للدولة الجزائرية من ناحية الغرب ، كما كانت القاعدة البحرية التي تنطلق منها السفن الجزائرية ؛ لشن حملاتها باتجاه القواعد الإسبانية في غرب الجزائر ، خاصة مدينة وهران [8] . فجهز حملة عسكرية ، وتوجه إلى مستغانم في يوم 21 مارس سنة 1543م، واحتل مدينة مزغران ؛ لكنه لم يتمكن من مواصلة السير إليها ، واضطر إلى الانسحاب ليلا عائدا إلى وهران بسبب وصول الامدادات إليها من مدينة الجزائر[9].

---

(1) مارمول : المصدر السابق ، ج2 ، ص 314 .

(2) Haèdo : op.cit , p 67 .

(3) سامح التر : المرجع السابق ، ص 169 .

(4) DE Grammont : op.cit , p 74 .

(5) مارمول : المصدر السابق ، ص 314 ، 315 .

(6) نفسه ، ص 315 .

(7) DE Grammont :op.cit , p 71 .

(8) Moulay Belhamissi : Histoire de Mostaganem , centre National d'etudes historiques , Alger 1976 , p 73 .

(9) Ibid , p 74 .

وأثناء انسحاب القوات الإسبانية باتجاه وهران تعرضت في الطريق إلى هجومات عنيفة ، ومتواصلة من القبائل الجزائرية ، ولم تستطع الوصول إلا في شهر أفريل بعد أن تكبدت خسائر فادحة ، ومنيت بهزيمة كبيرة . وجاءت الحملة الثانية للإسبان على مدينة مستغانم بقيادة الكونت دالكودايت في شهر أوت سنة 1547م ، فحاصرها لكنه اضطر إلى الانسحاب مرة أخرى ؛ بسبب النجدة التي جاءت من مدينة تلمسان [1] .

9- التحرير النهائي للسواحل الجزائرية ، وفشل الإسبان :

استمرت سياسة الدولة الجزائرية في دعم حكام تلمسان ، الذين أبدوا استعدادا للتعاون معها ضد الإسبان ، دون أن تعمل على إزالة الدولة الزيانية ، غير أن ظهور خطر السعديين بالمغرب الأقصى ، الذين سعوا إلى توسيع نفوذها نحو تلمسان منذ حملة محمد المهدي عليها في سنة 957 هـ/1550م . لكن حسن باشا تمكن من هزيمتهم ، وإرغامهم على الانسحاب إلى داخل أراضي المغرب الأقصى [2] . ممادفع حكام الجزائر إلى وضع حد نهائي للدولة الزيانية المنهارة .

عيّن صالح رايس حاكما للجزائر في أفريل سنة 959 هـ/1552م ، وقد ساهم في توحيد الدولة الجزائرية ، وتوسيع نفوذها ؛ حيث ضم كل من إمارة تقرت وإمارة ورقلة [3] . وقد أدرك صالح رايس خطورة التهديدات السعدية للمناطق الغربية للبلاد ،كما إكتشف العلاقات المريبة بين الإسبان ومولاي حسن حاكم تلمسان [4] ، فتوجه إليها في سنة 960 هـ/1553م ، وضمها للدولة الجزائرية في سنة 961 هـ/1554م . من أجل إبعاد الخطر الإسباني ، والسعدي [5].

و بعد أن أصبحت تلمسان قاعدة جزائرية ؛ تهدد المواقع الإسبانية خاصة باتجاه وهران . واصل الجزائريون ضغطهم على الإسبان من أجل تحرير باقي المواقع الجزائرية . فقد توجه صالح رايس إلى بجاية لتحريرها مستغلا ضعف تحصيناتها ، والوضع الحرج للحامية الإسبانية فيها [6]. حيث قاد حملة عسكرية برية إلى مدينة بجاية في شهر جوان من سنة 1555م ، كما أمر

---

(1) Moulay Belhamissi : op.cit , p 75 , 76 .

(2) عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص 35 .

(3) أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 339 .

(4) عبد الرحمان الجيلالي : المرجع السابق ، ص 88 .

(5) أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 343 . هناك من يرى أن ضم الدولة الزيانية كان في عهد حسن باشا ، أنظر إلى: عمار بن خروف المرجع السابق ، ص 36 .

(6) DE la Primaudie : Documents inédits …Lettre de l’ingenieur Librano à sa Majesté , Bougie , 19 janvier 1543 , in R.A , Alger 1877 ,T21, p 267, 268 .

بتوجيه قوة بحرية موازية . وفي 16 سبتمبر بدأ الجزائريون في قصف المواقع الإسبانية ، وتمكنوا من تحطيم القلاع الإسبانية ، واحتلالها ، فاضطرت الحامية الإسبانية إلى الاستسلام [1] . ودخل المدينة فاتحا لها في يوم 30 شوال 962هـ/28 سبتمبر 1555م [2]. لقد كان تحرير مدينة بجاية انتصارا هاما للدولة الجزائرية ، وصدمة مؤلمة للإسبان ، ولكل الدول المسيحية ، كما عمل الجزائريون على تحرير مدينة وهران في عهد حسن قورصو ، لكن المحاولة لم يكتب لها النجاح [3].

بعد الانتصارات التي حققها الجزائريون ضد الإسبان ، حاول الإسبان احتلال مدينة مستغانم لما لها من أهمية للدولة الجزائرية ، فقد أصبحت قاعدة متقدمة لتهديد الوجود الإسباني في وهران[4] ، وقد استخدمت كقاعدة تجمعت فيها القوات الجزائرية ، وانطلقت منها لتحرير وهران في سنة 1556م [5]. حيث جهز الكونت دالكودايت حملة ضخمة جاء بها من إسبانيا بعد مساعي حثيثة ، حيث انطلقت القوات الإسبانية بقيادة دالكوديت في 22 أوت 1558م نحو مدينة مستغانم [6] .

علم حسن باشا [7] بخبر الحملة الإسبانية ، فجهز قوة معتبرة من الجزائريين ، واتجه إلى مستغانم على رأس قوة عسكرية برية ، تعززت بانضمام أعداد معتبرة من الجزائريين في الطريق [8]، كما أعطى حسن باشا أوامره للأسطول الجزائري للاستيلاء على السفن الإسبانية المحملة بالأسلحة ، والمؤونة ، فاستولى عليها جميعا [9] ، وهو ما أثر على معنويات القوات الإسبانية .

وفي 23 أوت دخلت القوات الإسبانية مدينة مزغران بسهولة ؛ لأن سكانها كانوا قد غادروها ، ولم يتركوا فيها شيئا ، لذلك توجه الإسبان إلى مدينة مستغانم ، التي وصلوها في يوم 24 أوت وتمكنوا من اقتحامها ، رغم مقاومة الحامية العسكرية الجزائرية الموجودة بها ، ومقاومة الأهالي المستميتة . وقد أرسل حسن باشا المساعدات العسكرية من مدينة الجزائر [10]. التي

---

(1) أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 347 .

(2) محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 41 .

(3) يحي بوعزيز : علاقات الجزائر الخارجية ، المرجع السابق ، ص 50 .

(4) Haédo : op.cit , p 117 .

(5) يحي بوعزيز : المرجع السابق ، ص 50 .

(6) Haédo :op.cit, p 117 .

(7) وهو ابن خير الدين مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ، عين بيلرباي على الجزائر ثلاث مرات : (1544-1551) ، (1557-1561) ، (1562-1567) . أنظر إلى ، Haédo :op.cit , p 74 , 114 , 127

(8) Moulay Belhamissi : op.cit , p 78 .

(9) DE Grammont : op.cit, p 88 .

(10) سامح التر : المرجع السابق ، ص 206 .

وصلت إلى مدينة مستغانم في 25 أوت، واتحدت مع قوات علج علي التي جاءت من تلمسان ، ووقعت معركة عنيفة بين الطرفين انتهت بهزية دالكودايت ، الذي أرغم على الانسحاب ليلا . فلاحق الجزائريون قواته إلى مدينة مزغران ، حيث وقعت المعركة المصيرية ، التي قضي فيها على الجيش الإسباني وقائده دالكودايت [1] .

انتهت المعركة مساء يوم الجمعة 12 ذو القعدة 965هـ/26 أوت 1558م [2] بانتصار الجزائريين ، وهزيمة القوات الإسبانية ، حيث قتل فيها دالكودايت ، الذي وهب حياته للمشروع الإسباني في بلاد المغرب الإسلامي ؛ منذ تعيينه حاكما على وهران في سنة 1534م ، وأسر إبنه دون مارتن Don Martin ، أما الجيش الإسباني فقد أبيد معظمه وأسر الباقي منه [3] .

كانت هزيمة مزغران [4] أقسى هزيمة تعرض لها الإسبان في الغرب الجزائري ، ومنذ ذلك الحين لم يفكروا في توسيع نفوذهم في الجزائر ، واقتنعوا بضرورة الحفاظ على وهران ، والمرسى الكبير اللذين ظلت محاولات استرجاعهما من طرف الجزائريين تتكرر من حين إلى آخر ، فقد واصل حسن باشا بن خير الدين محاولاته لاسترجاع وهران ؛ ففرض الحصار عليها ، وعلى المرسى الكبير سنة 971هـ/1563م ؛ إلا أن مقاومة الحامية الإسبانية أتاحت الفرصة للأسطول الإسباني بقيادة أندري دوريا إلى تقديم النجدة للحامية الإسبانية [5]، ففشلت المحاولة الجزائرية .

ومما سبق يمكن القول أن محاولات الدولة الجزائرية ستظل مستمرة من أجل تحرير المرسى الكبير ، ومدينة وهران إلى أن تم تحريرهما نهائيا من الاحتلال الإسباني ، وإنهاء وجوده في السواحل الجزائرية ، بعد احتلال طويل دام حتى سنة 1792م . فنتساءل إذن عن طبيعة العلاقات ، التي جمعت بين الطرفين في الفترة ما بعد سنة 965هـ/1558م .

---

[1] مارمول : المصدر السابق ، ج2 ، ص 336 .

[2] عبد الرحمان الجيلالي : المرجع السابق ، ص 91 .

[3] محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 45 .

[4] توجد قصيدة مشهورة تحكي ملحمة مزغران ، أنظر الى جمال قنان : المرجع السابق ، ص ص 47 – 49 .

[5] محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 46 .

المبحث الثالث :

العلاقات بين الجزائر وإسبانيا من 1558م إلى 1610م

أصبحت الجزائر قوة بحرية هامة في حوض المتوسط في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، متحالفة مع الدولة العثمانية ، وبحكم الموقع الجغرافي في الحوض الغربي منه ، وبعد أن استكملت وحدها ، وحررت كل مواقعها ، التي احتلها الإسبان باستثناء مينائي وهران ، والمرسى الكبير اللذان تأخر تحريرهما . ستأخذ العلاقات بينها ، وبين إسبانيا منحى آخر ، وتتغير طبيعتها . فبعد إفشال الجزائر للمشروع الإسباني الاستعماري ، ستبدأ مرحلة الانحسار ، والتراجع الإسباني ، الذي بقي محدودا في مواقع معينة . في حين ستبدأ مرحلة التدخلات الجزائرية في المشاريع العثمانية في مواقع مختلفة من حوض البحر المتوسط . إذن فكيف كانت العلاقات بين الطرفين في هذه الفترة ، وماهي اعكاساتها عليهما ، وعلى منطقة حوض البحر المتوسط ؟ . ويمكن حصر هذه المرحلة من العلاقات بين الطرفين في مايلي :

1- دور البحرية الجزائرية في حرب مالطة في سنة 973هـ/1565م :

تمثل مساهمة البحرية الجزائرية في معركة مالطة ؛ مظهرا هاما لعلاقات العداء بين الجزائر ، وإسبانيا ، فقد ساهمت الجزائر إلى جانب الدولة العثمانية من أجل القضاء على فرسان مالطة .

لأنهم شاركوا في كل الحروب الصليبية ضد بلدان المغرب الإسلامي ، مثل احتلال تونس في سنة 1535م ، وحملة شارلكان ضد مدينة الجزائر في سنة 1541م ، كما كانوا يهاجمون السفن الإسلامية ، ويعترضون طرق الحجاج المتجهين إلى البقاع المقدسة ، ويقومون بنشاط متزايد يتمثل في مراقبة حركة الأسطول العثماني على العموم ، وضرب المواقع العسكرية المغربية عن طريق المباغتة ، والاستيلاء على السفن العثمانية المنعزلة [1] .

نتيجة لكل هذه العوامل قرر السلطان العثماني مهاجمة فرسان مالطة ، فبعث برسائل إلى كل قادة إيالات الدولة العثمانية ، يدعوهم فيها للمشاركة في حملة ضد مالطة ؛ وكان من بينهم حسن باشا بن خير الدين حاكم الجزائر [2] . فقد تلقى حسن باشا بيلرباي الجزائر تلقى عدة رسائل سرية من السلطان العثماني في شهر سبتمبر من سنة 1564م ، ثم في شهر مارس من سنة 1565م،

---

[1] عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 86 .

[2] أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 384.

يطلعه فيها عن عزمه توجيه قوة عسكرية كبيرة ضد جزيرة مالطة ويطلب منه الاستعداد ، وقد حدد له تاريخ الإقلاع ، الذي كان في شهر ماي من سنة 1565م [1] . فتوجه حسن باشا حاكم الجزائر نحو جزيرة مالطة على رأس قوة عسكرية تتكون من ثماني وعشرون سفينة جيدة التجهيز ؛ على متنها ثلاثة آلاف رجل [2] من خيرة المقاتلين الجزائريين ، غير أنه لم يصل إلى مالطة إلا في اليوم الخامس من شهر جويلية سنة 1565م [3] .

لقد كان للبحرية الجزائرية وقائدها دور كبير في الحرب ، فقد اعترف بذلك المؤرخون الغربيون أنفسهم ، وأشادوا بالدور الهام لحسن باشا ، وللبحرية الجزائرية في هذه الحرب ؛ حيث قال المؤرخ هايدو : ((لقد قدم حسن باشا خدمات عظيمة طيلة مدة هذه الحرب)) [4] .

حيث تولى حسن باشا قيادة كل الهجومات الخطيرة ، فقد كلفه مصطفى باشا بمهاجمة حصن سانت ميشال ، ووضع تحت تصرفه ستة آلاف جندي [5] ، وقد ألحق الجزائريون خسائر كبيرة فقد فيها العدو المسيحي أكثر من مائتي جندي ، وإثنين من خيرة الفرسان . كما هاجم حسن باشا حصن سانت ميشال وتكمن الجزائريين من التقدم نحو الساحل ، والنزول به ، حيث وصلوا إلى الحصن المذكور ، ونصبوا عليه سبعة ألوية [6].

ونظرا للدور الفعال ، الذي قام به حسن باشا في حرب مالطة رغم أن الحملة العثمانية كان مصيرها الفشل ، فقد كافأه السلطان العثماني سليم الثاني بن سليمان ، وعينه بعد موت بيالي باشا؛ أميرالا للبحرية العثمانية في رجب 974هـ/جانفي1567م ، فغادر الجزائر نهائيا [7].

لقد كشفت حرب مالطة عن ، الدور البارز للبحرية الجزائرية في الصراع الإسلامي المسيحي في حوض المتوسط . كما مثلت نموذجا من علاقات العداء الجزائري الإسباني .

2- مساهمة الجزائر في نصرة الثوار المورسكيين في سنة 1568م ضد إسبانيا:

تمثل مساهمة الجزائر في تدعيم الثوار الاندلسيين ضد إسبانيا ، والتي شكلت تهديدا داخل إسبانيا نفسها ؛ أحد المظاهر البارزة للعلاقات العدائية بين الطرفين . فقد كان للجزائر دور متميز

---

(1) Haédo : op.cit , p 130 .
(2) Ibid .
(3) DE Grammont : op.cit , p 100 .
(4) Haédo : op.cit , p 130 .
(5) DE Grammont : op.cit , p 100 .
(6) Haédo : op.cit , p 130 .
(7) عمار بن خروف: المرجع السابق، ص 105.

في ثورة المورسكيين ، التي اندلعت في سنة 1568م . ففي 12 مارس 1524م أصدرت الحكومة الإسبانية مرسوما يفرض التنصير على المسلمين ، الذين بقوا في إسبانيا ، أو يتم طردهم ، أو استرقاقهم [1]. كما صدرت ضدهم قوانين أخرى سنوات 1563 م و1567م ؛ لقد كانت تلك القوانين شديدة الوطأة ، والقسوة عليهم . فهاجر العديد منهم إلى بلدان المغرب الإسلامي ، أما البعض المتبقي فقد اضطرتهم الظروف إلى البقاء بديارهم . ورغم عمليات التنصير القسري ، التي كانوا يتعرضون لها ؛ إلا أنهم ظلوا متمسكين بدينهم ، ومتواصلين بإخوانهم المسلمين ، خاصة بالإيالات المغربية ، والمغرب الأقصى[2] .

لم يتردد مسلمو الأندلس في طلب الاستغاثة من الدولة العثمانية بين الحين والآخر ، فقد بعثوا في سنة 1541م بعد الانتصار ا، الذي حققته الجزائر ضد القوات المسيحية المتحالفة ، التي قادها شارلكان ؛ برسالة استغاثة إلى السلطان العثماني سليمان القانوني [3] .

كما أصدرت الحكومة الإسبانية في سنة 1567م مرسوما جديدا يزيد من الاضطهاد لمسلمي الأندلس في عهد فيليب الثاني ، يحرم على المسلمين كل ماله صلة بتاريخهم القديم ، وقد أعلن عن هذا القانون في أول جانفي من سنة 1567م . نتيجة إلى الإجراءات الاضطهادية [4]، التي تعرض لها مسلمو الأندلس ، ورغم أن معاهدة غرناطة تحفظ لهم كل حقوقهم. كل هذا دفع بهم إلى تفجير الثورة ضد إسبانيا في أواخر سنة 1568م [5].

تعددت العوامل ، والأسباب التي أدت إلى إعلان ثورة المورسكيين في هذا الوقت بالذات ، لكن من أهمها ؛ تلك الانتصارات التي حققها الأسطول الإسلامي بفضل التحالف بين الجزائر والدولة العثمانية في حوض المتوسط ، يضاف إلى ذلك إعلان الجزائر و حاكمها علج علي نيتها في مساندة مسلمي الأندلس ، و مواصلة الصراع ضد إسبانيا [6].

اتصل مسلمو الأندلس بعلج علي حاكم الجزائر ،وشرحوا له الوضعية التي يعيشونها ،وطلبوا

---

[1] ليلى الصباغ : ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ / أواخر سنة 1568م والدولة العثمانية ، في مجلة الأصالة ، أكتوبر 1975 ، العدد 27 ، ص 120 .

[2] عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 91 .

[3] عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م ، في م ت م ، تونس ، جانفي 1975 ، العدد 03 ، ص ص 43-46 .

[4] نفسه ، ص 90 ، 91 .

[5] ليلى الصباغ : المرجع السابق ، ص 120 .

[6] سامح التر : المرجع السابق ، ص 225 .

مساعدتهم [1] ، وقد أظهر علج علي استعداده لنصرة مجاهدي الأندلس في ثورتهم ضد إسبانيا ، وتمكن الأهالي الجزائريين من جمع كميات هامة من الأسلحة لتدعيم إخوانهم المسلمين [2] ، كما إتفق علج علي مع مسلمي الأندلس على وقت اندلاع الثورة .

وبهدف تشتيت القوات الإسبانية ، وإضعافها . قرر علج علي القيام بحملة من أجل استرجاع مدينة وهران ، ثم التوجه إلى السواحل الإسبانية حيث تمت عملية الإنزال بالسواحل الإسبانية . وفق الخطة المتفق عليها مع المورسكيين . كما أرسل علج علي أربعين سفينة نحو سواحل إسبانيا ، التي وصلت في يوم الأربعاء المقدس لدى المسيحيين إلى ميناء المرية الإسباني Almeria [3]، ، لكن إسبانيا إكتشفت المشروع ؛ بسبب خطأ ارتكبه أحد قادة الثوار قبل اندلاع الثورة بيوم واحد ، ففشلت الحملة ، وضاعت فرصة مفاجأة القوات الإسبانية [4].

كما استمر علج علي حاكم الجزائر في تدعيم الثوار الأندلسيين ، خلال سنة 976هـ / 1569م ، حيث بعث بعدة أساطيل محملة بالأسلحة ، والجنود ذوي الخبرة ؛ لتأطير المجاهدين الأندلسيين ، وتجددت المساعدات الجزائرية في السنة الموالية [5] . وقد فكر علج علي حاكم الجزائر في تولي الهجوم ضد إسبانيا بنفسه لمساندة الثوار المورسكيين ، لكنه اضطر للبقاء في الجزائر مترقبا الأحداث بسبب الحروب ، التي كانت الدولة العثمانية تخوضها [6]. وبهدف إضعاف القوات الإسبانية هاجم علج علي تونس في شهر أكتوبر سنة 1569م ، من أجل تحريرها من الإسبان [7]. أدركت إسبانيا الخطر الذي يهددها من طرف المجاهدين الأندلسيين ؛ بفضل الدعم الذي يلقونه من الجزائر ، فضلا عن إمكانية تدخل الأسطول العثماني [8] . لذلك قررت تصفيتها في أسرع وقت ممكن ، وهو ما حدث في 28 أكتوبر 1570 [9] .

---

[1] عبد الجليل التميمي : الدولة العثمانية وقضية المورسكيين ، في م ت م ، تونس ، نوفمبر 1981 ، العدد 23-24 ، ص 196 .

[2] Haédo : op.cit , p 139.

[3] Ibid .

[4] علي محمد الصلابي : المرجع السابق ، ص 237 .

[5] Haédo : op.cit , p 139.

[6] أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق ، ص 394 .

[7] Haédo : op.cit , p 140,141 .

[8] عبد الجليل التميمي : الدولة العثمانية وقضية المورسكيين ، المرجع السابق ، ص 198 .

[9] ليلى الصباغ : المرجع السابق ، ص 157 .

لقد لعبت الجزائر دورا بارزا في مناصرة مسلمي الأندلس ، و لم تبخل عليهم بأي مساعدات مهما كان نوعها ، أو حجمها ، لكن الظروف حالت دون نجاح ثورة المورسكيين . ورغم ذلك ظلت الجزائر تدعم المورسكيين إلى غاية النفي الأكبر ، حيث احتضنتهم المدن الساحلية الجزائرية .

3- دور البحرية الجزائرية في معركة ليبانت سنة 979هـ/1571م :

تعتبر معركة ليبانت من مظاهر العداء بين الجزائر ، وإسبانيا في حوض البحر المتوسط ، حيث قررت إسبانيا نقل الصراع بعيدا عن سواحلها ، وإشعال النزعة الصليبية الأوربية في مواجهة الخطر الإسلامي المتنامي ، وتجلت المساعي الإسبانية في معركة ليبانت ، التي وقعت في يوم 07 أكتوبر من سنة 1571م [1]. فقد تمكن البابا بيوس الخامس من توحيد الدول المسيحية الأوربية ، من أجل القيام بعمل عسكري مشترك لمواجهة الدولة العثمانية ؛ فتم توقيع الحلف المقدس في 25 ماي سنة 1570م ، الذي ضم الإسبان ، والألمان ، والإيطاليين ، والبابوية ، وعيّن دون جوان النمساوي قائدا لقوات التحالف الأوربي [2].

وكانت القيادة العثمانية على علم بالتحركات الأوربية ، ونظرا للدور البارز الذي صارت تلعبه البحرية الجزائرية ، المتحالفة مع البحرية العثمانية ؛ فقد وجه السلطان العثماني سليم الثاني رسالة إلى بيلرباي الجزائر علج علي ، مؤرخة في 02 ذو القعدة سنة 978هـ يدعوه فيها إلى تجهيز سفنه ، والالتحاق بالأسطول العثماني [3]. سارع علج علي إلى تلبية النداء ، حيث غادر الجزائر في ربيع سنة 1571م على رأس حوالي خمسين سفينة ؛ قصد الالتحاق بالأسطول العثماني في كورفو ، وأثناء الطريق قام بغزو عدة مواقع مسيحية بالجزر الأيونية [4].

ولقد رأى علج علي أن الأسطول الإسلامي غير مجهز تجهيزا كافيا ؛ لذلك يجب التريث ، في خليج ليبانت إلى غاية انتهاء فصل الشتاء ، حتى تتم تقوية الأسطول ليكون جاهزا للهجوم ، غير أن علي باشا قائد الأسطول الإسلامي خالفه الرأي ، فطلب علج علي أن تتم المعركة في البحر بعيدا عن الساحل. لكن علي باشا خالفه ، وهو ما أدى إلى هزيمة الأسطول الإسلامي [5].

---

[1] عبد الجليل التميمي : الولايات العربية ومصادر وثائقها ، المرجع السابق ، ص 99 .

[2] نفسه ، ص 97 .

[3] سي يوسف محمد : قيلج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية ، رسالة ماجستير ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، الجزائر 1988 ، ص 115، 116 .

[4] Haédo : op.cit , p 146 .

[5] نفسه ، ص 124 ، 125 .

بدأت المعركة في يوم 07 أكتوبر سنة 1571م ، وبعد ساعات قليلة من بداية المعركة هزمت ميمنة الأسطول الإسلامي ، وقتل قائدها كما قتل علي باشا قائد الأسطول الإسلامي . أما علج علي قائد ميسرة الأسطول الإسلامي فقد حقق انتصارات هامة على القوات المسيحية ؛ حيث استولى على عشر سفن منها واحدة تحمل قيادة قوات مالطة ، فاستولى على رايتها ، وقتل ما يقرب على خمسمائة جندي . وبعد مقتل علي باشا تولى علج علي قيادة الأسطول الإسلامي بنفسه (1) ، وقلب المعركة بعد التقهقر ، الذي لحق بميمنة الأسطول الإسلامي ؛ تمكن علج علي من الإفلات من محاصرة الأسطول المسيحي ، وإنقاذ أسطوله والعودة به سالما إلى استانبول ، خلافا لبقية الأسطول العثماني الذي تم القضاء عليه (2) .

كان الأسطول الجزائري هو الوحيد الذي نجا من الهزيمة ، التي حلت بالأسطول الإسلامي ، وعلج علي هو القائد المسلم الوحيد ، الذي ظهر كقائد كفء يملك خبرة عالية . وعندما عاد إلى استانبول استقبل استقبال المنتصرين ، وعينه السلطان العثماني سليم الثاني في منصب قابودان باشا، مع احتفاظه بمنصب بيلرباي الجزائر ، ومنذ ذلك الوقت أصبح يعرف بقيلج علي (3). وستواصل الجزائر دورها البارز في المتوسط من أجل تحرير ما بقي من الثغور الإسلامية في أيدي الإسبان .

4- دور البحرية الجزائرية في تحرير تونس من الاحتلال الإسباني سنة 1574م :

بقيت تونس تمثل إحدى النقاط الساخنة التي اشتد بشأنها الصراع بين الطرفين في هذه الفترة ، فقد صارت تمثل محور الصراع ؛ وهي إلى جانب نابولي ، وصقلية ، وجزيرة مالطة تمثل الحدود الإسبانية (4)، التي تفصل الحوض الغربي للمتوسط الخاضع للسيطرة الإسبانية ، عن شرقه الواقع تحت نفوذ الدولة العثمانية .

وقد قام الجزائرئون بعدة محاولات لتخليص تونس من الهيمنة الإسبانية ، التي عانى منها التونسيون كانت أولها محاولة خير الدين في سنة 1534م ، ثم في سنة 1569 م حيث توجه علج علي تلبية لنداء أهلها ؛ الراغبين في التخلص من حاكمهم أبو العباس أحمد ، الموالي للإسبان (5). وبعد معركة ليبانت سنة 1571م قررت إسبانيا مهاجمة تونس واسترجاعها ، ففي 07 سبتمبر

(1) DE Grammont : op.cit , p 108 .

(2) محمد فريد بك : المرجع السابق ، ص 257 .

(3) محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 48 .

(4) Fernand Braudel : les Espagnoles ….op.cit , p 386 .

(5) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 19 .

1573م تحركت حملة إسبانية بقيادة دون جوان النمساوي Don Juan d' Autriche ، الذي تمكن من الاستيلاء على تونس ، ونصب بها حامية إسبانية تتقاسم السلطة مع الملك الحفصي مولاي محمد الحفصي تحت تبعية إسبانيا [1] .

فأرسل السلطان العثماني سليم الثاني ، الذي عزم على استعادة تونس إلى الأقاليم العثمانية في شمال أفريقيا ؛ يدعوهم إلى المشاركة في الحملة على تونس . تولى قيادة هذه الحملة كليج علي باشا ، وسنان باشا ، والتحقت بهم قوات من القيروان ، وطرابلس ، والجزائر بقيادة أحمد عراب ، إضافة إلى قوات من عنابة وقسنطينة [2].

وفي 13 سبتمبر من سنة 1574م تمكن المسلمون من فتح الباستيون ، وألقي القبض على مولاي الحسن الحفصي ، وقائد الحامية الإسبانية ، وبذلك سقطت الدولة الحفصية ، وضمت تونس نهائيا للخلافة العثمانية ، وأقيم بها نظام مشابه للنظام الجزائري [3] .

العلاقات بين الجزائر وإسبانيا من سنة 1574م إلى 1610م :

لقد كان للجزائر دور كبير وهام في تحرير تونس من الاحتلال الإسباني ، وبعد تحرير تونس، اعترفت إسبانيا بالأمر الواقع ، ووقعت معاهدة سلام مع الدولة العثمانية في سنة 1580م ، باستثناء وهران التي تأخر تحريرها . ورغم ذلك فإن الصراع ميز العلاقات بين الجزائر وإسبانيا ، ويظهر ذلك من خلال حملة حسن فتريانو البحرية على مايوركة ، والسواحل الإسبانية في سنة 986هـ/1578م . كما شهدت الجزائر محاولات إسبانية انطلاقا من المرسى الكبير ، ووهران من أجل توسيع نطاق نفوذهم في الغرب الجزائري ، قابلها الجزائريون بمقاومة أفشلتها في سنة 1008هـ/1599م . وتواصلت الحملات الإسبانية حتى بداية القرن 11هـ/17م . كما حدث تقارب بين أمير كوكو ، وفيليب الثاني سنة 1598م ، كما قام دوريا بحملة على الجزائر في سنة 1601م.[4] واستمر الصراع قائما حتى الطرد النهائي للموريسكيين .

ومما سبق نستخلص:

- كان للعثمانيين دور كبير في ظهور الدولة الجزائرية في العصر الحديث ، التي ارتبط اسمها بالإخوة بربروس خاصة خير الدين ، الذي كان له الدور البارز في إرساء دعائم النظام الجزائري .

---

(1) Fernand Braudel : le Méditerranée ….op.cit , p 422 .

(2) Mercier : op.cit , p 116 .

(3) ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار أفريقية وتونس المطبعة التونسية ، تونس 1286هـ/1870م ، ص 189 .

(4) عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص 111-113-236 .

– إن العلاقات بين إمبراطورية إسبانيا والدولة الجزائرية غلب عليها الصراع المتواصل ، والمستمر لأن الجزائر وقفت في وجه المشروع الإسباني الاستعماري ، الذي استفحل في مطلع القرن 16م ، وأراد احتلال كل الضفة الجنوبية للمتوسط ، بل السيطرة على حوض المتوسط بكامله .

– إن العلاقات بين الجزائر وإسبانيا ؛ هي جزء من العلاقات بين الإسلام والمسيحية في الفترة الحديثة ، أو بالأحرى هي مرحلة من مراحل الصراع الإسلامي المسيحي ،الذي قادته الإمبراطورية العثمانية حامية المسلمين ، والإمبراطورية الإسبانية ، المتحالفة مع الكنيسة الكاثوليكية.

– ظهرت الجزائر في المغرب الأوسط على أنقاض دولة كانت تعيش آخر أيامها ، في وضع يميزه الضعف ، والتبعية للإسبان ، وأصبحت قوة بحرية لها مكانتها في حوض البحر المتوسط .

– لقد حققت الجزائر انتصارات عظيمة في حوض المتوسط في مختلف المعارك ، التي جمعتها مع إسبانيا ، خاصة تلك الهزيمة التي بقيت تؤرق إسبانيا وكل أوربا لعدة قرون بعد الحملة الشهيرة لشارلكان على مدينة الجزائر في سنة 1541م .

– لعبت البحرية الجزائرية دورا بارزا اعترف به المؤرخون الأوربيون في البحر المتوسط ، وكانت بمثابة القاعدة ، الأساسية للدولة العثمانية ، وللعالم الإسلامي أجمع في الحوض الغربي من المتوسط ، ولولاها لما تمكنت الدولة العثمانية من البقاء ووضع قواعد دائمة في منطقة المغرب الإسلامي .

– كما كان للبحرية الجزائرية دور هام في مقاومة الاحتلال الإسباني في منطقة المغرب الإسلامي ، وحماية دويلاته الضعيفة ، وتحرير موانئه التي كانت إسبانيا قد احتلتها منذ بداية القرن 10هـــ/ 16م . كما ساهمت في إلحاق بلاد المغرب الإسلامي بالدولة العثمانية ، وتخليصها من الإسبان .

– كما لعب البحارة الجزائريون دورا هاما في الصراع الإسلامي المسيحي بقيادة إسبانيا ، وبرزوا في مختلف مناطق المتوسط لمواجهة المشروع الاستعماري الإسباني العالمي ، خاصة إنقاذ مسلمي الأندلس ،حتى أن إسبانيا أصبحت تتخوف على نفسها ومصيرها بسبب قوة البحرية الجزائرية .

– لجأت إسبانيا إلى كل الأساليب للقضاء على القوة الجزائرية المتنامية ، فلجأت إلى أسلوب المناورة ، وإلى الحملات الضخمة التي قادها أفضل البحارة الإسبان ، كما لجأت إلى التحالفات لتكسير شوكة البحرية الجزائرية ؛ لكنها كانت في كل مرة تفشل في خططها .

إن كانت هذه هي طبيعة العلاقات التي جمعت بين الجزائر ، وإسبانيا ، فكيف كانت إذن العلاقات بين طرابلس الغرب ، وإسبانيا خلال القرن 10هـــ/16م ؟.

الفصل الثالث

العلاقات بين طرابلس وإمبراطورية إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

المبحث الأول : العلاقات بين طرابلس وإسبانيا قبل سنة 1551م

المبحث الثاني : العلاقات بين طرابلس وإسبانيا ما بعد سنة 1551م

الفصل الثالث :

العلاقات بين طرابلس وإمبراطورية إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

إن العلاقات بين طرابلس الغرب ، وإسبانيا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، تميزت بالعداء المستمر ، لأن طرابلس كانت من أول المدن الساحلية المغربية ، التي وقعت تحت الاحتلال الإسباني . بسبب حالة الضعف التي كانت الدولة الحفصية تعاني منها ، باعتبار طرابلس أحد توابعها . إضافة إلى أن طرابلس كانت ضمن المشروع الاستعماري الإسباني في منطقة المغرب الإسلامي ، نظرا لموقعها الاستراتيجي على البحر المتوسط .

وبالمقارنة مع إيالة الجزائر فإن العلاقات بين طرابلس الغرب ، وإسبانيا أخذت وضعا مختلفا ، نظرا لمحدودية المنطقة من جهة ، وطبيعتها من جهة أخرى . لأن المقاومة الطرابلسية كانت ضعيفة، كما أن اهتمام الإسبان بطرابلس لم يكن كبيرا لذلك منحوا المدينة لفرسان القديس يوحنا ، الذين كانوا تابعين لاإسبانيا في نشاطهم البحري ضد المواقع الإسلامية في منطقة حوض المتوسط .

ورغم حالة الضعف التي ميزت المقاومة الطرابلسية ، إلاّ أن الأهالي الطرابلسيين واصلوا المقاومة ضد الاحتلال الإسباني مدة طويلة ،وظلوا يتحينون الفرص لاسترجاع مدينتهم ، خاصة بعد ظهور العثمانيين في الحوض الغربي من المتوسط ، وارتباط الجزائر بالدولة العثمانية ، حيث وجدوا فيهم السند .

أما بعد مرحلة التحرير ؛ أي بعد سنة 1551م ، فإن العلاقات بين طرابلس الغرب وإسبانيا أخذت منحى آخر ، حيث تحولت طرابلس إلى قاعدة عثمانية هامة ، شاركت في المشروع الإسلامي العثماني ضد الدول المسيحية ، التي تقودها إسبانيا من أجل السيطرة على حوض البحر المتوسط عموما ، والجزء الغربي منه خاصة .

لقد ارتبطت العلاقات بين طرابلس الغرب ، وإسبانيا خلال النصف الثاني من القرن 10هـ/ 16م بشخصية بارزة هو درغوث رايس ، الذي ساهم في تحرير طرابلس من الاحتلال الإسباني ، ثم في الصراع الاسلامي المسيحي . فنتساءل عن طبيعة العلاقات بين الطرفين ، وعن أهم المراحل التي مرت بها ، وعن انعكاساتها في منطقة حوض البحر المتوسط ؟.

المبحث الأول :

العلاقات بين طرابلس و إسبانيا قبل سنة 1551م :

يمكن القول أنه خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1510م و1551م فإن العلاقات بين طرابلس الغرب ، إسبانيا تميزت بالعداء المستمر ، وذلك بسبب الاحتلال الإسباني لطرابلس منذ 1510م ، ومحاولات الطرابلسيين المتواصلة لتحرير مدينتهم . ثم تسليم الإسبان المدينة لفرسان مالطة . إذن فما هي أهم مظاهر تلك العلاقات بين الطرفين ؟ .

1- الاحتلال الإسباني لطرابلس في سنة 916هـ/1510م :

عرف القرن 15م بعصر البروز الإسباني ، المتوج بزواج فرديناند ملك أراغون ، وإيزابيلا ملكة قشتالة والوحدة الإسبانية ، التي فرضت على إسبانيا الالتفات إلى الخارج ؛ يدفعها إلى ذلك سببان : أولهما ملاحقة المسلمين الأندلسيين والانتقام منهم ، وثانيهما التطلع للسيطرة على مناطق المغرب الإسلامي لجعلها مناطق نفوذ لها ، وبما أن تلك المناطق كانت تعاني اضطرابات في أوضاعها الداخلية ، فقد استغلوا تلك الأوضاع ، وبدأوا تحركهم القرصاني منذ سنة 1510م بقيادة بيدرو نافارو ، الذي المدن الساحلية المغربية منذ سنة 1505م ، مثل وهران سنة 1509م ، و بجاية ونهبها في سنة 1510م ، ثم توجه أسطوله إلى السواحل الإفريقية الشرقية [(1)] .

حيث عمل داعية المسيحية الأول الكاردينال اخسيمنيس أسقف طليطلة ، ورئيس وزراء الملك الإسباني فرديناند على توجيه أنظار الإسبان إلى المكاسب ، التي يحصلون عليها لقاء سيطرتهم على إفريقية عامة ، وطرابلس خاصة [(2)] .

فسار بيدرو نافارو مع الخطة التي سهلت له احتلال الساحل الإفريقي الشمالي ؛ والمتمثلة في عملية الإحداق بالمنطقة من طرفيها ، ثم تضييق الدائرة شيئا فشيئا حول الوسط ، فقد رأى أن يفاجئ طرابلس [(3)]، وأن يتمكن منها . وكانت يومئذ آخر حدود الدولة الحفصية جنوبا [(4)] .

---

(1) محمود علي عامر ومحمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 149 .

(2) DE Grammont : op.cit , p 15

(3) توجد رسالة من الملك فردناند إلى بيدرو نافارو يأمره فيها باحتلال مدينة طرابلس الغرب ، مؤرخة في ماي سنة 1510 ، أنظر إلى : Charles Feraud . L : Annales Tripolitaines , publiers avec une introduction et des notes par Augustin Bernard , Librairie Tournier, Tunis , Librairie Vurbert , Paris 1927 , p 22 .

(4) أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 143 .

أ- سير الحملة الإسبانية على طرابلس :

غادر الكونت بيدرو نافارو مدينة بجاية على رأس ثمانية آلاف رجل في 07 جوان من سنة 1510 م ، واتجه إلى فافنينانا Favignnana ؛ حيث ينتظر السفن القادمة من نابولي ، وصقلية للمشاركة في الهجوم على مدينة طرابلس ، وقد نسقت الحملة تحت إشراف وتوجيه نائب ملك صقلية ، وتم تنفيذها بمشاركة جنود إيطاليين ، وخاصة من صقلية . غادر الأسطول فافنينانا في 15 جويلية سنة 1510م ، حيث توقف في غوزو Gozo بمالطة [1]،وانضم إليه بعض المالطيين، وأدلاء لمعرفتهم بطرابلس ، وخبرتهم بكافة سواحل الشمال الإفريقي ، وتفيد بعض المصادر أن مهمة الإرشاد البحري ؛ تولاها الدليل الصقلي يوليانو (جوليانو) أبيلا Guiliano Abella [2] .

كانت الحملة الإسبانية مكونة من ستين سفينة ،ومن غليوطتين ، ومن عدد من المراكب الشراعية، ومن خمسين مركبا ذات الأشرعة الثلاثية ، وانضمت إليها من مالطة خمسة سفن مالطية مسلحة تسليحا جيدا ، وحين غادرت الحملة من مالطة في 20 جويلية باتجاه مدينة طرابلس ؛كانت مكونة من مائة وعشرين سفينة بحرية بين صغيرة وكبيرة وعلى ظهرها جميعا خمسة عشر ألف جندي إسباني ، وثلاثة آلاف جندي إيطالي وعدد من المغامرين [3] .

وصل الأسطول الإسباني إلى المدينة في يوم 25 أوت سنة 1510م ، وعلى الفور باشر بضرب سواحلها ، وأنزل مدفعيته على الشاطئ جنوب شرقي المدينة في منطقة سيدي الشعاب ، ونتيجة للقصف الشديد تمكن الإسبان من اختراق السور ، وفتحت إحدى الأبواب خلال الساعات الأولى من النهار ، وقبل انقضاء ذلك اليوم كان الإسبان قد أتموا احتلال المدينة [4] .

ورغم قلة ما كان لدى المدينة من الجنود وآلة الحرب ، فقد قاومت مقاومة عنيفة ، واستخدم أهل طرابلس النار ، والحجارة . واستشهد منهم 5000 ، ووقع في الأسر 6000 آخرين ، ولكنهم أصابوا الكثير من الإسبان ، وقتلوا عددا من قادتهم. واضطر من بقي من سكان البلد إلى تسليم أنفسهم ، وهرب منهم أكثر من 6000 إلى تاجوراء ، زنزور ، وغريان [5] .

---

[1] اتوري روسي : المرجع السابق ، ص 18 .

[2] أحمد بن حسين النائب الأنصاري : نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان ، تقديم وتعليق : محمد زينهم محمد عرب ، دار الفرجاني للنشر والتوزيع ، مصر 1994، ص 38 .

[3] اتوري روسي : المرجع السابق ، ص 18 .

[4] محمود علي عامر ومحمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 149 .

[5] أحمد بن الحسين النائب الأنصاري : المرجع السابق ، ص 38 .

ب- نظرة المصادر للحملة الإسبانية على طرابلس :

وردت روايات مختلفة حول الاحتلال الإسباني لمدينة طرابلس الغرب ؛ من مصادر إسلامية ، وأخرى أوربية ؛ ومن بين هذه الروايات ما ذكره ابن غلبون في كتابه التذكار : ((وأخذ صاحب جنوة طرابلس سنة ست عشرة وتسعمائة ، وأخذ حلق الوادي صاحب صقلية ، ومكثت طرابلس تحت يد النصارى ثلاثة وأربعين عاما ، وقيل خمسا وأربعين [1]. وسبب أخذهم لها أن أهلها بعد دخولهم في طاعة الموحدين ، كثرت أموالهم وتجارتهم ، واطمأنوا ، و لم يشتغلوا بالحرب ؛ حتى لم تكن لهم به خبرة ، فقدمت عدة سفن للعدو موسوقة بأنواع البضاعة ؛ وفيها من كل نوع كثير ، فقدم إليهم تاجر من تجار المدينة ، فاشترى جميع ما فيها من سلع ، ونقد لهم ثمنها . واستضافهم رجل آخر وصنع لهم طعاما فاخرا ، وأخرج ياقوتة ثمينة فدقها دقا ناعما بمرأى منهم ، وذرها على طعامهم فبهتوا من ذلك ، فلما فرغوا قدم لهم دلاعا (بطيخا) ، فطلبوا سكينا لقطعه ، فلم يوجد في داره سكين ، وكذا دار جاره إلى أن خرجوا إلى السوق ؛ فاتوا منه بسكين . فلما رجعوا إلى جنوة سألهم ملكهم عن حالها فقالوا : ما رأينا أكثر من أهلها مالا ، وأقل سلاحا ، وأعجز أهلا عن دفاع عدو ، فتاقت نفسه لأخذها ، وجهز لها أسطولا ، فأخذها في ليلة واحدة بلا كثير مشقة ، واستولى عليها ، و لم ينج من أهلها إلا من تسور ليلا ، وانحاز المسلمون إلى تاجوراء ، وجبال غريان ، ومسلاتة ، وصارت المدينة للنصارى)) [2] .

أما صاحب المنهل العذب فقد أورد لنا رواية مشابهة لما أورده صاحب التذكار فذكر : ((فبينما أهل طرابلس في أرغد عيش وأهناه ؛ قد استأثروا مهاد الدعة ، واستطابوا خفض العيش ، وطال نومهم في ظل الغرف والسلم ، فاستوت الحامية والرعية ، وتشابه الجندي والحضري .إذ قدمت سفن النصارى الإسبانيول تجارا بسلع كثيرة ...)) ، ويكمل في سرد نفس الرواية لابن غلبون ، كما يذكر صاحب الرحلة العياشية نفس الرواية [3].

إن الروايات الإسلامية (المغربية) تتفق على تفسير الحملة الإسبانية على مدينة طرابلس الغرب ، من خلال :

---

[1] محمد بن خليل غلبون الطرابلسي : المرجع السابق ، ص 93 .

[2] نفسه .

[3] أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي : المرجع السابق ، ص 184 ، 185 . وعبد الله بن محمد العياشي : الرحلة العياشية 1661-1663 ، تحقيق وتقديم : سعيد الفاضلي وسليمان القرشي ، ط1 ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، ج2 ، الإمارات العربية 2006 ، ج1 ، ص143.

– أن العامل الاقتصادي كان دافعا أساسيا للحملة الإسبانية ، فالروايات المتكررة للتجار عن ثراء سكان طرابلس جعلت الإسبان يقومون بتجهيز الحملة .

– ترجع المصادر الإسلامية نجاح الحملة الإسبانية إلى عدم امتلاك السكان للسلاح ، وعدم وجود خبرة حربية ؛ وبالتالي عدم المقاومة .

أما المصادر الأوربية فقد تطرقت إلى سير الحملة ومراحلها؛ من ضمنها ، ما ذكره الحسن الوزان : ((أرسل الملك الكاثوليكي فرديناند أسطولا إلى مدينة طرابلس بقيادة الكونت نافارو ، وصل الأسطول بغتة أمام طرابلس مساءا ، وفي الغد أخذت المدينة ، وأسر جميع أهلها ، وحمل الأمير مع أحد أصهاره إلى ميسين ... وكانت هذه المدينة قد خربت على إثر الاحتلال المسيحي لها)) [1].

يبدو أن الوزان لم يشر من قريب أو بعيد للروايات ، التي وردت في المصادر الإسلامية ؛ بل تطرق مباشرة للحملة واحتلال المدينة ، دون أن يتطرق لعوامل الاحتلال ، أو عوامل سقوط المدينة ، أو كيفية المقاومة من طرف الأهالي ، و من خلال إشارته إلى سقوطها في مدة قياسية يوم واحد ، يدل على قوة الحملة وضعف قوة دفاع المدينة ، وهذا ما يتفق فيه مع المصادر الإسلامية .

أما مارمول فقدم لنا وصفا دقيقا عن الحملة منذ انطلاقها ، بقوله : ((ذهب الكونت بيدرو نافارو لضرب حصار على مدينة طرابلس ، وأوفد في نفس الوقت الضابط دييغو دو فالانسيا Diego De Valoncia إلى مملكة نابولي، لجمع المواد الغذائية والعتاد الحربي . وكانت الجيوش التي يقودها الكونت تتألف من أكثر من ستة عشر ألف جندي ، رابطت كلها بضعة أيام في جزيرة غوزة ؛ القريبة من صقلية في انتظار عودة الضابط دييغو دو فالانسيا ، وما أن عاد هذا الأخير من مهمته ، حتى أمر الكونت بيدرو بالإبحار نحو طرابلس)) [2].

أما بالنسبة للقوة التي جاء بها الإسبان لاحتلال المدينة ، فيضيف مارمول قائلا : ((تألف أسطول النصارى من خمسين مركبا شراعيا ومر بمالطة ، ثم أوقف السفن على أربعة فراسخ من سواحل أفريقيا ، وبما أن البحر لم يكن عميقا بتلك المنطقة ، بعث ضابطا بندقيا يدعى فيونيللو Vionéllo؛ في مهمة استطلاعية قرب الميناء والشواطئ . اجتاز الضابط مشارف المدينة بحرا ودنا من الميناء ، فعرف السكان أنها سفينة لأعدائهم ، وقد علموا قبل ذلك ؛ ما مضى يبيته الكونت لغزو مدينتهم . فانطلقوا يحشدون الجنود من جهات مختلفة ، ويقيمون الحواجز ، ويدعمون

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص 101 .

[2] مارمول : المصدر السابق ، ج3 ، ص 122 .

التحصينات ، ويستعدون للطوارئ ؛ خصوصا أن التجار الجنويين نقلوا لهم أنباء الاستعدادات الجارية في إيطاليا ، وفرنسا ، وإسبانيا ، وصقلية لاحتلال المدينة . ولم يمض يوم واحد حتى بدأت القوات المسيحية تنزل بالميناء ، فواجهها المسلمون بطلقات نيرانهم ، لكن المدمرات البحرية اقتربت من المدينة ، وأخذت تقصفها بشدة حتى أخمدت أجهزة دفاعها)) [1].

وعن كيفية احتلال الإسبان للمدينة ، وعن مقاومة الأهالي ، فذكر مارمول : ((قسم الكونت قواته إلى فرق ، ووعد جنوده بأنهم سينالون نصيبهم من الأسرى ، والعبيد ، والغنائم الأخرى . بدأ الهجوم على المدينة حوالي الساعة التاسعة صباحا ؛ شارك فيه من جانب النصارى ما يزيد عن أحد عشر ألف جندي ، غير أن السكان استبسلوا في الدفاع عن المدينة ، فكان الجرحى القتلى يتساقطون من الجانبين ؛ قتل الأهالي عددا هاما من الشخصيات وكبار الجنود . طال القتال ، وأصاب الإعياء الطرفين ، فتمكن الجنود المسيحيون من فتح أحد أبواب المدينة ، ودخلوها فتحصن الأمير المتصوف بالقصر مع حاشيته ، وأهله ، وتحصن بعض الأهالي بالمسجد ، فتك النصارى بستة آلاف مسلم ؛ ورموا بهم في أبار المسجد ، وأحرقوا البعض ، وأغرقوا البعض الآخر في البحر ، وأسروا أكثر من خمسة عشر ألف مسلم ، وغنموا مغانم كثيرة)) [2] .

وقد أورد المستشرق الإيطالي ايتوري روسي عدة شهادات لقادة الحملة ، تعتبر مصادر هامة عن سير ، ومجريات الحملة ؛ منها الرسالة التي وجهها الكونت بيدرو نافارو إلى نائب الملك بصقلية ، والتي ذكر فيها : ((وصل الأسطول إلى طرابلس صباح الخميس 25 يوليو ؛ وهو يوم القديس يعقوب ، ونزل إلى البر في ساعات قليلة ستة آلاف رجل ، قام نصفهم بمهاجمة المدينة ، بينما بقي القسم الآخر لحماية الهجوم من العرب القاطنين بالريف ، وسرعان ما استولى المهاجمون بمساعدة المدفعية على قسم من السور ، وبرجين ، ثم استولوا على البرج القائم عند باب العرب ، وفتحوا الباب الذي دخل منه الإسبان إلى المدينة ، وظلوا يحاربون ثلاث ساعات داخل شوارعها ؛ إذ كان الطرابلسيون يقاومون في عنف .كان عدد كبير من الموتى العرب ؛ وهم من الكثرة بحيث لن تجد موطئا لقدمك إلا فوق الجثث ، ويقدر عدد القتلى بين العرب بحوالي خمسة آلاف شخص، أما الأسرى فهم أكثر من ستة آلاف ، أما قتلى المسيحيين فقد كانوا قليلين)) [3].

---

[1] مارمول : المصدر السابق ، ج3 ، ص 122 ، 123 .

[2] نفسه ، ص 123 .

[3] ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 18 ، 19 .

كما أن هناك تقرير لأحد القادة الإسبان ، الذين شاركوا في الحملة يصف الحملة الإسبانية على مدينة طرابلس الغرب جاء فيه : ((... وكانت قمة الهجوم قد بلغت عندما تمكن حامل العلم جيم دياز Jaime Diez من رفع العلم الأول فوق السور داخل القلعة ، والباب العربي ، ودخلت القوات البرية المسيحية في المدينة ، كالطيور لا يصدق الإنسان أنها دخلت من الأبواب تقتل ، وتطارد الأعداء ، الذين تحصنوا في القلعة ، والمسجد الكبير ، وبعض الأبراج والحصون ، و لم تتوقف القوات البرية حتى دخلت المدينة ، التي أصبحت كل جهاتها مباحة ، أما الأعداء فقد قتلوا شر قتلة ، وحوصر الأحياء في القلعة والمسجد ،وقد تمكنوا من الاستيلاء عليه بعد قتال مرير، وأسر الملك الذي يدعى الشيخ مع أسرته ، كما أطلق سراح مائة وخمسين مسيحيا ، ومات في هذه المعركة مائة وخمسون مسيحيا ، وألفين من العرب)) [1] .

ج- نتائج الحملة الإسبانية على طرابلس :

ترتب عن الحملة الإسبانية المسيحية على مدينة طرابلس الغرب نتائج مختلفة ؛ على منطقة المغرب الإسلامي خاصة الساحل المغربي ، أو على إسبانيا وأوربا المسيحية ، أو على السكان الطرابلسيون أنفسهم ، ومن هذه النتائج :

- سيطرة الإسبان على ميناء طرابلس ، واتخذوها قاعدة لعملياتهم الحربية في البحر المتوسط ، وأحاطوا الميناء بسور ضخم لحمايته من هجوم الليبيين ، وظل الإسبان يحكمون المدينة قرابة العشرين سنة [2] .

- كانت الخسائر البشرية كبيرة في صفوف الطرابلسيين ؛ بلغت ستة آلاف شهيد ،وأزيد من خمسة آلاف أسير ، إضافة إلى آلاف الذين فروا إلى المناطق الداخلية ، أما خسائر الإسبان فبلغت ثلاثمائة رجل [3] .

- استقبل نبأ احتلال مدينة طرابلس الغرب بفرحة عظيمة ، وبهجة غامرة في أوربا المسيحية ؛ وأثار هذا الاحتلال بهجة خاصة في إيطاليا ، وقد دعا مندوب البلاط البابوي في بولونيا فرانسيسكو أليدوسي Francesco Alidosi ، إلى تنظيم مظاهرة كبيرة تعبيرا عن فرحتهم ، وبهجتهم باحتلال مدينة تسمى طرابلس البربرية ، وهي أرض عامرة بالسكان [4] .

---

[1] ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 20 ، 21 .

[2] شوقي عطا الله الجمل : المرجع السابق ، ص 129 .

[3] أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 144 .

[4] ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 27 .

وتم تنظيم موكب ديني ، وتم تبادل التهاني بين دوق البندقية ، وملك إسبانيا ، ونائب الملك بصقلية ، والمرشد الأكبر لفرسان القديس يوحنا بهذا النصر [1] .

كما أن الكونت بيدرو نافارو أقام الأفراح مهنئا نفسه بالانتصار ، الذي حققه على الطرابلسيين ؛ وعن إعجابه بالمهمة التي أنجزها ، ويظهر ذلك من خلال الرسالة التي وجهها إلى نائب الملك في صقلية يهنئه ، ويبين له أهمية المدينة ، وجمالها ، وحتى عن البعد التاريخي الروماني فيها [2] .

– عمد الإسبان إلى إقامة تحصينات المدينة ، وإقامة أسوار بعد أن هجروا سكانها ، كما قام الإسبان بتحويل القصر الموجود داخل القلعة إلى كنيسة سميت كنيسة القديس ليونارد ، وتم تخريب المدينة ، ففقدت أهميتها التجارية ، وتحولت إلى قاعدة عسكرية رئيسية للتحركات البحرية الإسبانية في البحر المتوسط [3] .

– بدأت التحركات الإسبانية لاحتلال الموانئ المغربية انطلاقا من مدينة طرابلس الغرب ؛ فكانت أول حملة بحرية لاحتلال جزيرة جربة [4].

2– الحملة الإسبانية على جزيرة جربة سنة 1511م:

أخذ بيدرو نافارو ينفذ خطته ، فتوجه إلى جزيرة جربة ، وقد كان سكانها مستعدون لملاقاة العدو الإسباني [5] ، وقبل الحملة العسكرية البحرية وجه بيدرو نافارو رسالة إلى نائب الملك في صقلية ؛ يطلب منه إرسال المدافع والمنجنيق ، وضمانا لاستمرار سيطرته على طرابلس ، واتخاذها قاعدة للعمليات الحربية توجه الكونت إلى جزيرة جربة ، وبعد أن استلم دعما قوامه ثلاثة آلاف جندي بقيادة دييغو دي فيرا Diego de Vèra ، غادر مدينة طرابلس في يوم 28 أوت 1510م على رأس جيشه ،وترك حامية مكونة من ثلاثة آلاف بقيادة كل من القادة سامنيجو Samanigo، وبالومينو Pulomino . وحمل معه إثنا عشر ألف جندي ، ولحقت به في جزيرة جربة سبعة عشر سفينة إسبانية بقيادة دون جارسيا دي توليدو Don Garcia de Tolido ، وعلى ظهرها ثلاثة آلاف رجل [6] .

---

[1] عبد الجليل التميمي: الخلفية الدينية للصراع الإسباني – العثماني ، المرجع السابق ، ص9 .

[2] ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 19 .

[3] محمود علي عامر ومحمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 151 .

[4] محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 20 .

[5] أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 144 .

[6] ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 29 .

لكن الحملة الإسبانية فشلت في الاستيلاء على جزيرة جربة ؛ فقد دافع المسلمون عن الجزيرة بكل شجاعة ، وأرغموا القوات الإسبانية على التقهقر ، والتي تضررت كثيرا من القيظ والعطش ، لأنهم لم يجدوا ماءا يشربونه ، وكان نزولهم في وقت المد ، فلما أرادوا العودة إلى سفنهم صادفوا وقت الجزر لدى رجوعهم ، وكانت السفن الإسبانية قد تراجعت مع الجزر حتى لا ترسو على اليابسة . فوجد الإسبان أنفسهم منهوكين مهددين بخطر جعلهم يقصدون سفنهم بغير نظام ، فلحق بهم الفرسان المسلمون ، فقتل معظم الإسبان ، وأسر البعض ، ولم ينج منهم ، ويلحق بصقلية مع الأسطول إلا القليل [1] .

وتذهب بعض المصادر الأوربية أن الكونت بيدرو نافارو قاد حملة بحرية ؛ تتكون من ثلاثة عشر وحدة بحرية باتجاه جزيرة جربة ، ظنا منه أن العملية سهلة للغاية، فتوجه إلى مضيق القنطرة ؛ وهي مدينة تقع جنوب الجزيرة على الشاطئ . وأوفد سفينة تعرض الاستسلام على السكان ، لكن الأهالي رفضوا ذلك ، وأطلقوا عليها النار ، وأعلنوا استعدادهم للموت من أجل الدفاع عن أرضهم . فأرجأ الكونت عملية الغزو ، وقرر الانتقام من البرابر [2] .

وفي 27 أوت تجمعت السفن القادمة من صقلية ومن مدينة بجاية في مدينة طرابلس الغرب ، وأبحرت باتجاه جزيرة جربة . وقد سبقتها ثلاث وحدات استطلاعية ، والتي اختفت وراء صخور شاطئ الجزيرة ، وفي الليل بدأ الجنود الإسبان في النزول بعيدا عن اليابسة ؛ لأن السفن الكبرى ظلت بعيدة وراء صخور شاطئ الجزيرة ، خوفا من أن تصاب برصاص العرب [3] .

فأصاب الجنود الإعياء ، وتبللت ملابسهم ، كما أنهم كانوا يحملون البارود ، ويجرون المدافع ، وكانت المسيرة شاقة ، والرمال حارة ، فعمت الفوضى بين صفوف الجيش الإسباني ، وامتلأت الأرض بجثث الموتى . فتوجه الجنود الإسبان إلى أبار كانت موجودة بين حطام بنايات عتيقة ، بسبب شدة العطش وعمت الفوضى بينهم ، وهنا خرج فرسان العرب من مخابئهم ، وانقضوا على النصارى ، وقتل بعض القادة من بينهم دون جارسيا Don Garsia . لقد حاول الكونت بيدرو نافارو جمع شتات الجنود ، لكنهم رفضوا متابعة القتال ، وفقد النصارى ما يزيد عن ألف وخمسمائة جندي [4].

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص 95 .

[2] مارمول : المصدر السابق ، ج3 ، ص 109 .

[3] نفسه ، ص 110 .

[4] نفسه .

وبينما غادر الأسطول المسيحي جزيرة جربة باتجاه مدينة طرابلس الغرب ؛ استقبلته العواصف فلم يصل إلى مدينة طرابلس الغرب إلا في 19 سبتمبر ، مصابا بالخيبة الشديدة والحزن العميق ، وعندما أبحر الكونت بيدرو في شهر أكتوبر تاركا مدينة طرابلس ، بعد أن وضع عليها القائد دييغو دي فيرا حاكما، تعرض أسطوله مرة أخرى إلى عاصفة ردته إلى المدينة ، بعد أن تكبد هناك خسائر فادحة في سفنه ، ورجاله [1] .

وفي الشتاء أعد الكونت بيدرو نافارو حملة بحرية ضد جزيرة قرقنة القريبة من جزيرة جربة ، وكان يهدف من ورائها إلى الحصول على قاعدة بحرية لسفنه ، ولعمليات قادمة يقوم بها ضد جزيرة جربة ، أو ضد الموانئ الأخرى على الساحل المغربي ، لكن العملية فشلت لأن السكان العرب هاجموا الفرقة الإسبانية ، التي قادت الحملة ، وقتل أكثر من أربعمائة جندي إسباني ، كما قتل القائد البندقي جيرولامو فيانيللو Girolamo Vianello [2] .

لم تعد حملة الإسبان على مدينة طرابلس بالفائدة ، التي كانوا ينتظرونها لأن البلد كان بعيدا عن الصراع ، ثم أن الطرابلسيين لم يكفوا قط عن المناوشة والمناجرة ، ففي ذي الحجة 916هـ/ فبراير 1511م حاول سكان طرابلس استعادة مدينتهم ، وأمدهم سلطان تونس محمد بن الحسن الحفصي بقوة كبيرة ، ولكن المحاولة فشلت ؛ بسبب قوة تحصينات المدينة ، لكن ذلك زاد الشعور لدى الإسبان بقلة جدوى الاستمرار في احتلال مدينة طرابلس الغرب [3] .

ومن جهة أخرى منحت هزيمة الإسبان في جزيرة جربة أهالي طرابلس متنفسا قويا ؛ دفعهم إلى تجديد مقاومتهم للإسبان ، وصمموا على طردهم من مدينتهم ، حيث أوقعوا بالقوات الإسبانية خسائر كبيرة في 11 شباط 1511م ، وغدا القائد الإسباني دييغوا دي فيرا ؛ حاكم مدينة طرابلس في موقف حرج لا يحسد عليه [4] .

3- أوضاع طرابلس في ظل الاحتلال الإسباني :

وخلال السنوات الأربع الأولى لوجود الإسبان في مدينة طرابلس الغرب ، وخوفا من زيادة الخسائر البشرية والمادية ، ولضمان بقاء المدينة في حوزة المسيحيين ؛ عمد الملك الإسباني إلى إلحاقها مباشرة بمملكة صقلية بحجة قربها . فغدت المدينة مرتبطة مباشرة بحكومة نائب الملك في

---

[1] ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 30 .

[2] نفسه .

[3] أحمد بن الحسين النائب الأنصاري : المرجع السابق ، ص 39 .

[4] محمود علي عامر ومحمد خير فارس: المرجع السابق ، ص 152 .

صقلية ، واستدعي القائد دييغو دي فيرا إلى إسبانيا ، وعين مكانه دون جيم دي ريجوسن Don Jim de Régocen حاكما للمدينة [1] . وفي عهد نائب الملك في صقلية دون هوجو دي مونكادا Don Hugo de Moncade ، بدأ بتشجيع السكان المسيحيين للسفر إلى مدينة طرابلس ، من يرغب تمنح لهم المساكن الملائمة ، وتخصص له الأراضي الزراعية ، ويعفى من الضرائب لمدة عشرة أعوام ، كما يبرأ من كل تهمة مدنية أو جنائية ، لكن المسيحيين رفضوا ذلك ؛ خاصة مع بداية التواجد التركي في السواحل الإفريقية [2] .

وفي سنة 1520م قام نائب الملك في صقلية هوجو دي مونكادا بحملة ناجحة ضد جزيرة جربة ، انتهت بإجبار شيخها على الاستسلام ، وتوقيع معاهدة تبعية للملك الكاثوليكي شارلكان . كما وجه شارلكان رسالة إلى نائب الملك في صقلية ؛ تضمنت الموافقة على إعادة شيخ طرابلس ، الذي كان قد أخذ أسيرا عند احتلال الإسبان لمدينة طرابلس إلى ميسين ، وبقي في الأسر عشر سنوات ، لاستخدامه لتوطيد العلاقات بين المحتلين الإسبان والأهالي ، وتهدئة الحالة في المدينة [3] . و عند زيارة الحسن الوزان للمدينة في سنة 1518م ، وهو مصدر هام عن تلك الفترة ذكر أن المدينة أي طرابلس الغرب تم تحصينها من طرف الإسبان ، وأنه سمع في وقت قريب أن أميرها قد أعيد إليها ؛ بعد أن أمر الإمبراطور شارلكان بذلك ، وأن السكان قد بدأوا يعمرونها ، بعد عودة أميرها السابق إليها [4] .

وفي هذه الأثناء برزت أحداث ، ومتغيرات جديدة على الساحة الدولية ؛ فالقوة العثمانية بوصفها قوة جديدة وناشئة ، حطمت ما حولها من قوى سياسية ، وأعلنت عن نيتها في حماية البقاع الإسلامية ، والدفاع عنها ؛ وتمثل وجودها في الشمال الأفريقي من خلال خير الدين باربروس ، الذي أسس دولة قوية في الجزائر ، أصبح لها أسطولا له مكانته في حوض المتوسط ، والذي أعلن رسميا تبعيته للدولة العثمانية ، والالتزام بمنهجها [5] .

أدرك الإسبان منذ اللحظة ، التي تركز فيها خير الدين باربروس بالجزائر خطورة موقفهم ، وبغية ضمان التواجد المسيحي في الساحل الإفريقي الشمالي ، وطرد الأتراك العثمانيين وممثليهم من

---

(1) محمود علي عامر ومحمد خير فارس: المرجع السابق ، ص 152 .

(2) ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 37 .

(3) نفسه ، ص 38 .

(4) الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص 101 .

(5) محمود علي عامر ومحمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 152 .

المنطقة . رحب الإمبراطور الإسباني شارلكان بالعرض ؛ المقدم من طرف فرسان القديس يوحنا الأورشليمي ؛ بمنحهم مدينة طرابلس الغرب ، لكي تصبح مقرا لنشاطهم البحري إلى جانب جزيرة مالطة ، بعدما طردهم السلطان سليمان القانوني من جزيرة رودس في سنة 1523م [1] وقد تعهد الفرسان بقتال المسلمين ، والوقوف إلى جانب شارلكان [2] .

إن الاحتلال الإسباني لطرابلس الغرب ،الذي استمر خلال عشرين سنة من 1510م إلى 1530م؛ ظل مرتبطا بإعادة تحصين المدينة ، وبناء القلعة ، أما دواخل المدينة فلم تطأها أقدام الإسبان ؛ إلا في شكل حملات قصيرة وسريعة ، ومواجهة للساحل المغاربي [3] .

4- تسليم شارلكان مدينة طرابلس لفرسان القديس يوحنا :

أ- التعريف بمنظمة فرسان القديس يوحنا :

كان فرسان القديس يوحنا فرقة من أشد فرق المسيحيين عداءا للمسلمين ، أثناء الاحتلال الصليبي للقدس ، وعندما فتح المسلمون مدينة القدس بعد معركة حطين ، لجأت هذه الهيئة إلى مدينة عكا ، وجعلتها مركزا لأعمالها في سنة 587هـ/1191م ، وفي سنة 690هـ/1291م استعاد المسلمون مدينة عكا ؛ آخر معقل للصليبيين في فلسطين ، فلجأت هيئة فرسان القديس يوحنا إلى مدينة ليماسول في جزيرة قبرص ، وظلت بها حتى سنة 710هـ/1310م ، ثم انتقلت المنظمة مرة أخرى إلى جزيرة رودس [4] .

ويعود تاريخ فرسان القديس يوحنا الأورشليمي إلى الحروب الصليبية ، فقد تأسس نظام المنظمة ليقدم الخدمات الصحية للصليبيين في الأراضي المقدسة ، وبمرور الزمن أصبح أعضاؤه فرسان محاربين . ولما حل القرن 09هـ / 15م تطوروا إلى نظام من البحارة الصليبيين ، وكونوا قاعدة حصينة في جزيرة رودس ، بالإضافة إلى فروع أقاموها في فرنسا وبروفانس ، إسبانيا ، وإنجلترا ، وإيطاليا ، وألمانيا ، وكانت بعض هذه الفروع غنية جدا ؛ لأن النبلاء المسيحيين كانوا يتركون جزءا من أراضيهم لهؤلاء الرهبان. وبذلك أصبح فرسان القديس يوحنا يملكون ، ويحتفظون بأملاك عريضة في أوربا الرومانية الكاثوليكية [5] .

---

[1] محمود علي عامر ومحمد خير فارس: المرجع السابق ، ص 152 .

[2] نفسه .

[3] عبد الجليل التميمي : الولايات العربية ومصادر وثائقها ، المرجع السابق ، ص 74 .

[4] أحمد بن الحسين النائب الأنصاري : المرجع السابق ، ص 40 .

[5] جون .وولف : المرجع السابق ، ص 77 .

ونتيجة لمثابرة فئة فرسان القديس يوحنا في مواصلة الحرب الصليبية ضد المسلمين ، حظوا بتأييد وتشجيع من البابوية ، وتمويل من معظم البلاد المسيحية ، ونتيجة لاجتهادهم في التعرض لأساطيل الدولة العثمانية في البحر المتوسط ، عمد العثمانيون إلى القضاء عليهم [1].

ففي 13 ربيع الأول سنة 885هـ/23 ماي 1480م حاصر العثمانيون الجزيرة ، وبعد ثلاثة أشهر من الحصار فشل العثمانيون في اقتحام الجزيرة ، ولكن السلطاني العثماني سليمان القانوني استغل الظروف الملائمة ؛ بسبب انشغال ملوك أوربا بمشاكلهم الداخلية ، فجهز حملة بحرية لمحاصرة الجزيرة في 26 جوان 1522م ، وقصفها بالمدفعية [2].

اضطر فرسان القديس يوحنا إلى الاستسلام ، وسمح لهم السلطان العثماني سليمان القانوني بالخروج من الجزيرة ، وإخلائها ، ومنحهم حق الشرف الحربي . فتوجهت هذه الفئة في 13 صفر 929هـ أول جانفي 1523م إلى جزيرة مالطة ، التي منحها لهم شارلكان [3] ، وأصبحوا يعرفون بفرسان مالطة .

ب- طرابلس في ظل احتلال فرسان القديس يوحنا :

كما سبق ذكره أن المرشد الأكبر لفرسان القديس يوحنا ، أرسل في أكتوبر سنة 1523م وفدا إلى شارلكان ؛ يطلب منه منحهم جزيرة مالطة ، وقد أبدى الإمبراطور ترحيبا بهذا الطلب ، واشترط شارلكان أن تتولى المنظمة مهمة الدفاع عن قلعة ، ومدينة طرابلس . وقد أرسل المرشد الأكبر ثمانية من الفرسان لزيارة جزيرة مالطة ، وغوزو ، ومدينة طرابلس ، وقدموا تقريرا عن أحوال قلعة ومدينة طرابلس الغرب [4] .

وبعد مفاوضات طويلة بين المرشد الأكبر للفرسان ، والإمبراطور شارلكان انتهت بتوقيع الإمبراطور في 24 مارس 1530م ؛ المرسوم في كاستل فرانكو مينيتو Kastel Franco Minito ، الذي سلّم بموجبه شارلكان مدينة طرابلس الغرب لفرسان القديس يوحنا [5].

استقرت منظمة فرسان مالطة في طرابلس الغرب منذ سنة 1530م ، وبدأت العمل بتحصين المدينة ، وزيادة استحكاماتها الداخلية والخارجية ، ورممت الأسوار والقلاع الدفاعية ، وتحمل أبناء

---

[1] محمد فريد بك المحامي : المرجع السابق ، ص 176 .

[2] نفسه ، ص 176 ، 205 ، 206 .

[3] علي محمد الصلابي : المرجع السابق ، ص 185 .

[4] ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 50 .

[5] نفسه ، ص 52 .

المدينة مسؤولية البناء ، والترميم تحت سياط فرسان القديس يوحنا . فقد كان تصرف فرسان مالطة يوحي بأن التغييرات ، التي يحدثونها في معالم المدينة ، تدل دلالة واضحة على أنهم يسعون للاستقرار في مدينة طرابلس الغرب بصورة دائمة ، وجعلها مقرا دفاعيا لهم [1].

وقد أطلقوا على البرجين الواقعين في الطرف الشرقي من المدينة ؛ اسم القديس جورج على البرج الأول ، و اسم القديس جاكومو على الآخر ، كما أطلقوا على الساحة الواقعة بينهما اسم القديسة بربرا . وقد حكم مدينة طرابلس أحد عشر حاكما من فرسان القديس يوحنا ؛ كان من أشهرهم : اورليو بوتيجلا Aurelio Bottigella ، الذي حكمها مرتين ، وجيوفالي لافالتي Giovanni La Vallette [2].

إن سلطة حاكم طرابلس في عهد فرسان مالطة ، كما هي في عهد الحكم الإسباني ؛ لم تتعد نطاق المدينة ، وكانت بعض القرى الواقعة على الساحل الغربي مثل : جترور ، والماية ، وزواغة تدفع الضريبة بطريقة غير منتظمة [3] . أما مدينة تاجوراء ، التي تقع على مسافة الخمسة عشر كيلومتر شرقي مدينة طرابلس الغرب ، فقد فر إليها المسلمون بعد احتلال مدينة طرابلس من طرف الإسبان ، وقادوا المقاومة لاسترجاع المدينة [4] .

لم يطمئن بال فرسان القديس يوحنا في مدينة طرابلس ، خاصة بعد وصول العثمانيين إلى الساحل الغربي للمتوسط ، ووجود خير الدين حاكم الجزائر ، الذي تزايدت قوته البحرية . كما لم يكن لهم من تمويل مالي ؛ لذلك لجاؤا إلى غزو القرى المجاورة ، وفرضوا الضرائب عليها . لكن الطرابلسيين لم يكفوا عن مهاجمتهم ومناوشتهم للحامية المالطية ، وظلوا يضايقونها ، من أجل تحرير المدينة من الاحتلال ، وكانت بداية عمليات التحرير مدينة تاجوراء [5] .

ومما سبق يمكن القول أن العلاقات بين طرابلس الغرب ، واسبانيا في تلك المرحلة تميزت بالعداء المستمر، بسبب الاحتلال الإسباني المباشر من 1510م إلى 1530م ، أو احتلال فرسان مالطة منذ سنة 1530م إلى سنة 1551م ، الذي يعتبر المرحلة الثانية للاحتلال الإسباني . فنتساءل عن طبيعة العلاقات بين الطرفين في المرحلة ما بعد سنة 1551م .

---

(1) محمود علي عامر ومحمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 155 .

(2) ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 83 .

(3) نفسه ، ص 61 .

(4) محمد بن خليل غلبون الطرابلسي : المرجع السابق ، ص 93 .

(5) أحمد بن الحسين النائب الأنصاري : المرجع السابق ، ص 41 .

المبحث الثاني :

العلاقات بين طرابلس وإسبانيا مابعد سنة 958هـ/1551م

أما في الفترة التي ما بعد سنة 1551م فإن العلاقات بين طرابلس الغرب ، وإسبانيا ميزتها العداء المستمر ، وذلك بسبب ظهور العثمانيين على مسرح الأحداث في السواحل الطرابلسية ، حيث هددوا الوجود الإسباني فيها . وكان أهم مظاهر الحملة التي قادها العثمانيون ، وانتهت بفتح طرابلس ، وضمها للخلافة العثمانية ، وتتحول إلة إحدى القواعد العثمانية في مواجهة المشروع الإسباني الاستعماري في حوض المتوسط . فما هي أهم مظاهر العلاقات بين الطرفين في هذه المرحلة ، وماهي انعكاساتها على المنطقة ؟ .

1- التواجد العثماني في تاجوراء وأثره على طرابلس :

أغار خير الدين بربروس على مدينة طرابلس في سنة 1531م ، وكان قائد الفرسان إذ ذاك هو جاسبارو دي سانجيسا Casparo de Sanguisa حاكما عليها ، الذي تمكن من الثبات في وجه خير الدين ، فتوجه خير الدين إلى مهاجمة قرية تاجوراء ؛ حيث كان نفر من العرب يتعاونون مع الإسبان ، ومع فرسان القديس يوحنا ، فطردهم منها وولى عليها قائدا من رجاله يسمى خير الدين كرمان ، وترك معه بعض الأسلحة ، والجنود ، والقطع الحربية [1] .

قاد حاكم طرابلس أوراليو بوتيجلا في محرم من سنة 943هـ/ 1536م حملة ضد مدينة تاجوراء ، بعد أن تلقى نجدة من مالطة ؛ قدرت بأربعة مراكب ، وخمسمائة وخمسين مقاتلا . هاجموا المدينة ، ونهبوا وسلبوا ، وقتل خير الدين كرمان في الصراع ، فعين خير الدين بربروس قائدا آخر ؛ وهو مراد أغا [2] . وتذهب المصادر الإسلامية أن سكان تاجوراء أرسلوا جماعة من الأعيان على متن سفينة إلى السلطان العثماني سليمان القانوني ، يطلبون منه الإعانة من أجل مساعدتهم في تحرير مدينة طرابلس من احتلال فرسان القديس يوحنا [3] .

فولى السلطان العثماني في سنة 1537م على سكان تاجوراء مراد أغا ، الذي كان مقاتلا باسلا ؛ أصله من صقلية أسر من طرف المسلمين ، فدخل في الإسلام ، وقد استطاع الثبات في

---

(1) Charles Feraud . L : op.cit , p 36 , 37 .

(2) ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 63 .

(3) محمد بن خليل غلبون الطرابلسي : المرجع السابق ، ص 93 .

وجه فرسان القديس يوحنا ، ومضايقتهم ، رغم أنه عجز عن فتح مدينة طرابلس الغرب ، فتمركز بمدينة تاجوراء وقام بتحصينها [1] .

استطاع مراد أغا أن يجعل من تاجوراء مدينة صغيرة ، ومحصنة ، وقد عمل على تقريب المواطنين المحليين بفضل مرونة سياسته [2] . وقد بنى مراد أغا مدرسة وجامعا كبيرا ، وأعطى طابعا عثمانيا لكل تحركاته ؛ خاصة عندما أخبر الباب العالي بخط سياسته مطلعا إياه على مرامي السياسة المالطية في مدينة طرابلس ، وملتمسا المساعدة لإنقاذ أهالي مدينة طرابلس الغرب [3] .

توفي خير الدين بربروس في ربيع الثاني من سنة 953هـ/ 1547م ، وخلفه في الجهاد البحري تلميذه ومعاونه درغوث رايس ، الذي اشتهر ببسالته وشجاعته في محاربة الإسبان في البحر المتوسط حتى سموه بالشيطان [4] .

2– ظهور شخصية درغوث رايس :

ظهرت هذه الشخصية على ساحة الأحداث في حوض البحر المتوسط ، بعد وفاة خير الدين بربروس في سنة 1547م ،وسيلعب درغوث دورا رئيسيا في بلورة أحداث الساحة المغربية، ويسيطر عليها تماما بفضل قوة شخصيته ، وذكائه ، وروحه المغامرة [5] .

ولد درغوث حوالي سنة 1485م في مقاطعة منتشيه Menteshe على السواحل الغربية للأناضول ، وانصرف منذ شبابه إلى القرصنة في بحار الشرق ، عمل مع البحارة العثمانيين ، الذين كانوا يهاجمون سفن البندقية في بحر إيجة ، وفي سنة 1533م انتقل إلى العمل تحت قيادة خير الدين بربروس ، واشتهر بسلب السفن المسيحية في مياه شمال إفريقيا [6] . وفي سنة 1540م فاجأه جيانتينيو دوريا Giannettino Doria عند سواحل كورسيكا ، فأسره وباعه إلى أسرة لوملليني Lomellini من جنوة ، الذين استخدموه في التجديف فوق مراكبهم ، وافتدي في سنة 1544م بناء على طلب من خير الدين ، فاستأنف نشاطه القرصاني تحت علم السلطان القسطنطينية [7] .

---

(1) شوقي عطا الله الجمل : المرجع السابق ، ص 130 .

(2) أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي : المرجع السابق ، ص 189 .

(3) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 75 .

(4) أحمد بن الحسين النائب الأنصاري : المرجع السابق ، ص 42 .

(5) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 75 .

(6) ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 69 .

(7) نفسه .

ومما ذكره مارمول : ((أصله من حصن صغير بأسيا ، يقع قبالة جزيرة رودس في إقليم مانطيشيا التركي ، كان أهله أتراكا من أتباع محمد ، وفقراء من البدو لذلك دخل في خدمة خير الدين بربروس منذ طفولته . وقد اعتاد على ركوب البحار عدة سنين حتى صار من أعظم رؤساء السفن في بحر المشرق ، واكتسب خبرة في معرفة الجزر ، والمراسي في البحر المتوسط . ولما صار بربروس قائد أسطول السلطان الأعظم عينه رئيسا للقراصنة . استطاع أن يلحق أضرارا جسيمة بالنصارى في السواحل الإيطالية ، أمر شارلكان أندري دوريا بمطاردته ، فلحق به في جزيرة كورسيكا ، وقبض عليه فبقى محبوسا أربعة أعوام . حتى تدخل خير الدين لافتدائه بثلاثة آلاف دوكا ذهبية ، ثم عاد إلى نشاطه القرصاني)) [1] .

بينما تذكر مصادر أوربية أخرى أن أصول درغوث رايس مغطاة بسحب من الأساطير ، لكنه يميل إلى أنه يوناني . منذ نعومة أظفاره لفت نظر خير الدين إليه ، وسرعان ما صعد إلى وضع القوة ، والتأثير في الدوائر الداخلية لجماعة البحارة الأتراك ، وعندما كان درغوث على رأس أحد أجنحة الأسطول العثماني في بريفيسا ، ولسوء حظه اعتقله إبن أخ أندري دوريا ، فوجد نفسه عند خشبة مجداف سفينة مسيحية . وعندما كان خير الدين في طولون بفرنسا إتفق مع أندري دوريا على تحرير درغوث ، لكن فديته كانت غالية ؛ فقد حصل لوميلليني البيت الجنوي على امتياز إقامة مرسى ومصنع لصيد المرجان على جزيرة طبرقة Tabarque ؛ الواقعة خارج ساحل بونة ، بينما حصل دوريا على ثلاثة آلاف دوكا ذهبية [2] .

وسرعان ما رفض درغوث رايس الاعتراف بالهدنة التي وقعت بين السلطان العثماني سليمان القانوني ، والملك الإسباني وأصبح زعيما للبحارة الأتراك ، الذين استمروا في نهب التجارة الإسبانية ، والسواحل الإسبانية ، والإيطالية [3] .

3- نشاط درغوث رايس ضد الإسبان في السواحل المغربية :

سطع نجم درغوث رايس في حوض البحر المتوسط ؛ حيث صار له أسطولا مكونا من أربعة وعشرون سفينة ، وشرع في الإغارة على السواحل الإسبانية والإيطالية ، متخذا من جزيرة جربة قاعدة لأسطوله ، بعد أن رحب به شيخ من أهلها ومنحه مرسى بها مقابل سهم من الغنائم .

---

[1] مارمول : المصدر السابق ، ج3 ، ص 73 .

[2] جون .وولف : المرجع السابق ، ص 65 .

[3] نفسه .

ورغم احتجاج الإسبان لدى السلطان العثماني ؛ بسبب الهدنة الموقعة بين الدولة العثمانية وإسبانيا في سنة 1545م ، لكن نشاط درغوث تواصل ، واتسع ، لذلك راح يبحث عن ميناء أوسع ؛ فوقع اختياره على مدينة المهدية ، التي تلبي حاجته نظرا لموقعها الاستراتيجي [1] .

وكانت مدينة المهدية تابعة لإسبانيا منذ سنة 1535م ؛ فقد تنازل عنها السلطان الحفصي مولاي الحسن لشارلكان ، وكانت ذات موقع استراتيجي حصين ، وميناء تجاري هام ، شكل درغوث إمارة بالسواحل التونسية ؛ بعد أن ضم كل مدن الساحل التونسية ، وثبت نشاطه البحري حتى سنة 1549م ، فضلا عن نجاحه في عرقلة حركة المرور الأوربي ، وضرب الموانئ الإسبانية ، والإيطالية وقام بمظاهرات بحرية عديدة أمام ميناء المهدية [2] .

تمكن درغوث رايس في سنة 1549م بمساعدة مراد أغا ، الذي أرسل له مائة من الرماة من احتلال مدينة المهدية ، ومنها كانت سفنه تقوم بالحملات ضد المركب والسواحل المسيحية ؛ خاصة سواحل إيطاليا . لذلك قرر شارلكان استرجاع مدينة المهدية ، والقضاء على درغوث رايس ، فقام أندري دوريا بحملة بحرية تحت قيادة نائب الملك بصقلية جيوفاني دي فيجا Giovani de Véga ، ومساندة منظمة فرسان مالطة ، التي بعثت بأربعة مراكب ومجموعة من الفرسان ، واحتلت المدينة في 10 سبتمبر من سنة 1550 م [3] .

أما درغوث فقد ترك أحد نوابه في المهدية لقيادة حامية بها ، والتي صمدت في وجه الهجمات الإسبانية لمدة شهر ، وبعد أن احتل الإسبان المدينة ألحقوا بها مختلف عمليات النهب والسلب ، والتدمير انتقاما من أهلها [4]. فتوجه درغوث إلى جزيرة جربة حيث سمح له شيخها بتجنيد الجنود ، وفي شهر أفريل سنة 1551م فوجئ درغوث بحصار أسطول أندري دوريا له في ميناء جزيرة جربة ، لكنه تمكن من شق قناة أرضية ، وسحب سفنه وخرج إلى البحر المتوسط ، واستولى على المراكب الرئيسية القادمة من صقلية لدعم أسطول دوريا ، وباغت جزيرة مالطة وسلب قرية سيجيوي Siggeui ، ثم تابع رحلته إلى مقر الخلافة العثمانية ، وقابل السلطان ، والتحق بالأسطول العثماني ، حيث ساهم في وضع تقرير للحملة العثمانية على مدينة طرابلس[5].

---

[1] جون .وولف : المرجع السابق ، ص 66 .

[2] عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 76 .

[3] ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 71 .

[4] أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي : المرجع السابق ، ص 189 .

[5] عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 77 .

4- الفتح العثماني لطرابلس وتحيرها من الاحتلال في سنة 1551م:

كان رد الخلافة العثمانية سريعا وحاسما ، على تهديم الإسبان المهدية ، واسترقاق أهلها [(1)] ، خاصة بعدما أحاط درغوث رايس السلطان سليمان القانوني بالخطر الإسباني ، وخطر فرسان القديس يوحنا على الوجود العثماني في المغرب الإسلامي ، خاصة وأن الدولة العثمانية كانت تدرك حقيقة الوضع الداخلي للإيالات المغربية ، ولمرامي السياسة الإسبانية . لذلك قرر السلطان سليمان القانوني إرسال حملة لاسترجاع طرابلس الغرب [(2)] .

ظهرت قوة بحرية ضخمة أمام السواحل الإيطالية في شهر أوت سنة 1551م ، فهاجمت جزيرة مالطة ، وتمكنت من نهب جزيرة جوزو وأسر المسلمون خمسة آلاف مسيحي [(3)] . وقد كان الأسطول العثماني مكونا من مائة وعشرين سفينة شراعية [(4)] ، بينما تذهب مصادر أخرى إلى مائة وخمسين سفينة عثمانية [(5)]، وقد أسندت قيادة الأسطول العثماني إلى سنان باشا ؛ القائد العام للأسطول العثماني ، يسانده درغوث رايس ، وصالح بك حاكم رودس ، توجهت القوة البحرية العثمانية إلى السواحل الإيطالية ، ثم مضت إلى مالطة ، ثم توجهت إلى مدينة طرابلس . فوصلت الحملة في 04 أوت سنة 1551م إلى مدينة طرابلس الغرب وحاصرها العثمانيون لمدة عشرة أيام ، حيث أصبح سقوط المدينة أكيدا [(6)] .

وحسب المصادر الأوربية كانت حامية فرسان مالطة المتواجدة داخل مدينة طرابلس ؛ تتكون من مائة من الفرسان وخمسمائة من الجنود من كلابريا ، صقلية ، مالطة ، ورودس ، إضافة إلى بعض المئات من العرب الموالين ، وقد طلب قائد الأسطول العثماني سنان باشا من الحامية المالطية تسليم القلعة ، لكن قائد الحامية جاسباري فاليس Gaspari Vallis رفض الاستسلام [(7)].

وحسب المصادر الإسلامية فإن خطة قائد الأسطول العثماني سنان باشا ؛ كانت تقضي التريث ، والتشاور ، والاستعداد ، وتنسيق الجهود مع مراد أغا حاكم تاجوراء [(8)] ، والعمل على

---

(1) أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي : المرجع السابق ، ص 189 .

(2) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص77 .

(3) ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 75 .

(4) أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي : المرجع السابق ، ص 189 .

(5) Ernest Mercier : op.cit , p 73 .

(6) جون .وولف : المرجع السابق ، ص 68 .

(7) ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 76 .

(8) محمد بن خليل غلبون الطرابلسي : المرجع السابق ، ص 94 .

مناوشة العدو برا ، وعدم الاقتراب من ميناء طرابلس الغرب ، لأن مدفعية حصن كاستليو Castellajo كانت تمنع السفن العثمانية من الاقتراب ، أو الدخول إلى الميناء . لذلك وجب حصار القلعة برا وبحرا ، فقد حصن العثمانيون مدينة زوارة ؛ الواقعة في غرب مدينة طرابلس ، وأقاموا المتاريس ، والخنادق ، وفقا لحركة هجومية شاملة ، معززة بقصف مدفعي متواصل عن طريق البر ، فقد كان هناك ستمائة جندي مزودين بأربعمائة مدفع . وقد دافعت الحامية المالطية بشجاعة عن مواقعها لكن ظروف النصركانت لصالح العثمانيين؛ فالحصار أثّر على معنويات الجنود المسيحيين ، خاصة وأن المنطق الاستراتيجي ، الذي كان يتمتع به العثمانيون في التموين ، والاستعدادات ، وكسب الأنصار ، وتجنيد المواطنين خلق جبهة إسلامية قوية متحالفة [1] .

وصادف أن كان السفير الفرنسي دارا مونت Daramant في طريقه إلى وظيفته لدى الدولة العثمانية، فتوقف في مدينة طرابلس الغرب حيث لاحظ حصار الأسطول العثماني للحامية المالطية، وعندما أصبح واضحا وجوب استسلام فرسان القديس يوحنا ، أقنع السفير الفرنسي الأميرال العثماني سنان باشا بأن يسمح لفرسان القديس يوحنا بالجلاء في سفينة فرنسية مقابل استسلامهم. لقد كان الأتراك مترددين في عقد أي إتفاق مع (الكلاب) ؛ لأنهم لم يلتزموا سابقا بالإتفاق ، الذي عقده معهم سليمان القانوني ، ومنحهم حق الشرف الحربي . وأخيرا قبل سنان باشا وسمح للفرسان ، الذين قدر عددهم بمائتين بالجلاء ، أما الجنود فأخذوا أرقاء [2].

فتحت القلعة ومدينة طرابلس أبوابها للعثمانيين في11شعبان 958هـ الموافق ل 14 أوت من سنة 1551م ، ومما ذكر في المصادر الإسلامية : ((وحاصروها برا وبحرا ، فأخذوها قيل عنوة ، وقيل طلب أهلها الأمان لأنفسهم ، فأجابوهم لذلك ، وخرجوا عنها)) [3] .

لقد كانت الظروف ملائمة للعثمانيين لتحرير طرابلس من الاحتلال المسيحي لفرسان مالطة المتحالفين مع إسبانيا ، فقد كان التفوق العسكري لصالح العثمانيين ، كما أن إستراتجية الحصار البري ، والبحري ، التي طبقها الأسطول العثماني كانت مجدية . يضاف إلى ذلك استخدام أسلوب المدفعية لتحطيم قلعة المدينة المحاصرة ، بالإضافة إلى ذلك أن الماء كان قليل؛ لأن الآبار كانت خارج أسوار المدينة ، علما أن الحملة كانت في فصل الصيف ؛ في أوت من سنة 1551م [4].

[1] عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 77 .

[2] جون .وولف : المرجع السابق ، ص 68 .

[3] محمد بن خليل غلبون الطرابلسي : المرجع السابق ، ص 94 .

[4] عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 77 .

– نتائج الحملة :

كان للحملة العثمانية على مدينة طرابلس الغرب نتائج مختلفة ، على منطقة الحوض الغربي للمتوسط ، وعلى العلاقات بين القوى الكبرى المتصارعة ؛ ومن هذه النتائج :

- تدخل الدبلوماسية الفرنسية نظرا لعلاقات فرنسا المتميزة مع الدولة العثمانية ، في الوساطة لإنقاذ حامية فرسان القديس يوحنا ، والسماح لهم بالخروج ، مقابل تسليم مدينة طرابلس الغرب في 14 أوت 1551م [1].

– قام سنان باشا بتعيين مراد أغا حاكما على مدينة طرابلس الغرب (1551م-1556م) ، وقد عادت إلى المدينة مكانتها الإستراتجية ، والتجارية في عهده ، رغم أن المصادر الأوربية تعطي الأحقية لدرغوث رايس في حكم المدينة ، وتراه أولى بذلك من مراد أغا [2].

- إنهاء الاحتلال الإسباني ، والتواجد المسيحي من مدينة طرابلس الغرب ، رغم المحاولات المتكررة من طرف فرسان مالطة ، وإسبانيا لاسترجاع المدينة ؛ فقد وجه فرسان مالطة حملة عسكرية إلى مدينة زوارة القريبة من مدينة طرابلس في سنة 1552م ، لكنها فشلت . كما تدخلت سفن منظمة فرسان مالطة في شؤون طرابلس سنة 1589م ، كما هوجمت المدينة سنوات 1639م و1642م . يضاف إلى ذلك التحالف الأوربي ضد مدينة طرابلس الغرب ، ثم توجه إلى جزيرة جربة في سنة 1560م لكنه فشل[3] .

– نبهت الحملات المسيحية المتكررة لاسترجاع مدينة طرابلس الغرب ، العثمانيين إلى ضرورة التوجه إلى تحرير كل الموانئ المغربية من الوجود المسيحي الإسباني ، وسيكون الاعتماد على مدينة طرابلس ؛ باعتبارها قاعدة إستراتجية هامة ، وعلى شخصية درغوث رايس ، فستوجه الدولة العثمانية اهتمامها إلى تونس [4].

5– دور طرابلس في المشاريع العثمانية ضد إسبانيا في المتوسط :

أ– دور درغوث رايس في مهاجمة المواقع الإسبانية :

بعد وفاة خير الدين بربروس، استنجد الملك الفرنسي فرانسوا الأول بالسلطان سليمان القانوني

---

(1) جون .وولف : المرجع السابق ، ص 68 .

(2) Charles Feraud.L : op.cit , p 53 .

(3) ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 81 .

(4) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 78 .

مرة ثانية ؛ ضد عدوه شارلكان ، فأنجده السلطان العثماني بأسطول عثماني قاده درغوث(طرغود) باشا ؛ المعروف لدى الأوربيين Dragut ، في سنة 960هـ/ 1553م ، فاتجه مع رئيس الأساطيل الفرنسية القبودان بولان Boulin ، وخلص درغوث باشا نحو سبعة آلاف أسير من المسلمين ؛ كانوا لدى الإسبان في قلعة بشتيا Bestia من أعمال كورسيكا ، ثم عاد إلى استانبول بعد اختلافه مع قائد الأسطول الفرنسي[1].وفي سنة 961هـ/ 1554م استنجد الفرنسيون مرة أخرى بالعثمانيين ، فأرسل السلطان العثماني سليمان القانوني أسطولا بقيادة بياله باشا ،ودرغوث باشا ،فحقق انتصارات هامة ضد الإسبان ،ثم عاد إلى عاصمة الخلافة العثمانية[2].

وستلعب مدينة طرابلس الغرب دورا سياسيا ، وعسكريا هاما في حوض البحر المتوسط في عهد درغوث رايس ، بعد أن تم تعيينه حاكما لها ؛ بفرمان سلطاني في سنة964 هـ/ 1556م ، وتذكر المصادر الإسلامية : ((أنه في سنة 964هـ قدم طرغود باشا إلى مدينة طرابلس واليا ، ومعه مقدار من العساكر البيكيجيرية ، وتولى زمام الأمر فيها ، فعمر البلاد ، ولم شعثها ، ووضع الاستحكامات ، وجعل الثغر في غاية المكانة والقوة ، وبسط العدل ، وأمّن البلاد ، وتشبث بالأسفار في أساطيله ، وبث السرايا على الأعداء .)) [3]. وسع درغوث سيطرة العثمانيين لتشمل السواحل الطرابلسية بكاملها (الليبية اليوم) ، كما استولى على مدن تونس الشرقية ، والجنوبية مثل: صفاقس ، والقيروان ، وقد اقتصر نفوذ العثمانيين على المدن الساحلية [4] .

وتتفق المصادر التاريخية على أن درغوث رايس شخصية متميزة ؛ فهو بحار ذو تجربة ميدانية بالسواحل الإفريقية ، والأوربية ، وذو خبرة جيدة بالمناخ النفسي للمجتمع المغربي ، وذو معرفة بالعدو ، الذي جابهه لأكثر من 25 سنة مدركا ضعفه وقوته .كما ساهم في تكوين قادة لامعين مثل علج علي باشا ، الذي سيكون له دور كبير في الصراع الإسلامي المسيحي في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفي إيالة الجزائر [5] .

عمل درغوث رايس على احتواء منطقة الجنوب ، والوسط التونسي ؛ وقام بتوحيده وضمه لطرابلس الغرب ، وإعلانه جزءا من الخلافة العثمانية ، ففي 20 سبتمبر سنة 1556م دخل مدينة

---

[1] محمود السيد الدغيم : المرجع السابق ، ص 398 .

[2] نفسه .

[3] أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي : المرجع السابق ، ص 209 .

[4] جميل بيضون و شحادة الناطور : تاريخ العرب الحديث ، ط1 ، دار الأمل للنشر والتوزيع ، أربد 1991 ، ص 50 .

[5] عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 79 .

قفصة ، ثم توجه إلى جزيرة جربة واستولى عليها ، وأقام بها برجا كبيرا للدفاع عنها ، ثم دخل مدينة صفاقس . ومع حلول سنة 1558م كانت السواحل الجنوبية لتونس خاضعة لدرغوث رايس ، وتابعة لإيالة طرابلس الغرب [1] .

ب– نكسة الإسبان في جزيرة جربة سنة 1560م :

نتيجة للدور الهام الذي لعبه درغوث رايس في حوض البحر المتوسط ، وتهديده للسواحل المسيحية ، جعل إسبانيا والدول الأوربية تتوحد ، وتسوي خلافاتها ؛ فعقد صلح كاتو–كامبرسيس بين إسبانيا وفرنسا في سنة 1559م.حيث تحالفت كل من إسبانيا ، فرنسا ، البندقية، والحكومات الإيطالية ، والبابا ، وفرسان مالطة ، وقرروا القيام بحملة عسكرية ضد طرابلس الغرب ، وضد الخطر الرئيسي ؛ المتمثل في شخصية درغوث رايس[2].

كان الأسطول المسيحي ضخما ، والقوات من جنسيات مختلفة ، فقد جهز الملك الإسباني فيليب الثاني Philippe2 حملة ضخمة في ديسمبر من سنة 1559م ، لاحتلال مدينة طرابلس ؛ وقد تكونت من ثلاثين سفينة كبيرة إسبانية على رأسها دون ألفار ودي ساندرو Don Alvaro de Sandro ، ومن خمسة وثلاثين سفينة إيطالية بقيادة أندري دي قونزاقي André de Gonzague ، وأربعة عشر سفينة ألمانية ، إلى جانب قوات فرنسية ، وأربعمائة فارس من مالطة ، بالإضافة إلى سفن الحمولة ، المؤونة ، والذخيرة ، وأعطيت القيادة العامة لجون أندري دوريا Jean André Doria .ولم تتوجه القوات المتحالفة إلى مدينة طرابلس ، بل توجهت إلى جزيرة جربة[3].

اجتمعت الأرمادة الأوربية التي تقودها إسبانيا في جزيرة مالطة ، ولم تستطع مغادرة مراسيها إلا في فصل الشتاء من سنة 1560م ، بسبب العواصف البحرية . فقرر الإسبان عدم التوجه إلى مدينة طرابلس للقضاء على درغوث رايس ، الذي كان يستعد للحملة ، بل التوجه إلى جزيرة جربة للاستيلاء على عش القراصنة ؛ حسب تعبير المصادر الأوربية [4] .

اختار الإسبان هذا الوقت بالذات للحملة ظنا منهم أنه يمكنهم مباغتة العثمانيين ، الذين تعودوا الخروج للبحر في فصل الربيع ، لكنهم أخطأوا في تقديراتهم ، كما أخطأوا في عدم التوجه مباشرة إلى مدينة طرابلس ، التي كانت بها حامية عثمانية ؛ تتكون من قوة قليلة من الإنكشارية ،

---

[1] عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 81 .

[2] جون .وولف : المرجع السابق ، ص 73، 74 .

[3] Charles Feraud.L : op.cit , pp 65-74 .

[4] جون .وولف : المرجع السابق ، ص 74 .

كما أن درغوث رايس قام بتمويه الإسبان ؛ عندما كان يتحرك بين طرابلس ، وجزيرة جربة في محاولة منه للتخطيط ، والتنسيق ، ونقل الأسلحة في انتظار وصول الأسطول العثماني ، الذي خرج من ميناء استانبول ، ووصل إلى السواحل الطرابلسية في مدة قياسية خلال عشرين يوما فقط ؛ بقيادة بياله باشا ، ويعزز قيادته درغوث ، وتلميذه علج علي [1].

باغت الأسطول العثماني الأسطول المسيحي في جزيرة جربة ، التي كان الإسبان قد احتلوها من قبل ، فدارت معارك بحرية بين الأسطولين انتهت بنكسة [2] أوربية في جزيرة جربة . حزن لها المسيحيون في كل أوربا ، لأنهم خسروا فيها أكثر من إثنين وثلاثين سفينة ،كما تم القضاء على الحامية الإسبانية التي كانت متواجدة في الجزيرة [3] .

كانت هزيمة جربة نسفا مريعا للسمعة الإسبانية ، بل هددت أمنها أيضا ، لأن ذلك الانتصار قوى عزائم الأتراك في غرب المتوسط ، وشجع المورسكيين على الثورة . ولم تنته مشاكل إسبانيا البحرية في حوض المتوسط بهزيمة جربة ، فقد فاجأ درغوث رايس الأسطول الإسباني ، وأغرق عددا من سفن الملك الإسباني فيليب الثاني ، التي كانت متواجدة خارج الساحل الجنوبي لصقلية . لذلك فإن البحرية الإسبانية لم تستطع أن تقوم مرة ثانية باستعراض قوتها ، بشكل جدي في حوض البحر المتوسط إلا في سنة 1564م [4] .

ج– دور البحرية الطرابلسية في حرب مالطة :

كانت جزيرة مالطة تشكل قاعدة بحرية هامة ؛ تؤثر على حرية التنقل في المتوسط ، وتهدد المصالح الإسلامية التجارية ، كما كان فرسان مالطة يعيقون حركة الحجاج المسلمين باتجاه الأماكن المقدسة ؛ خاصة المتوجهون من الإيالات المغربية . وقد أدرك درغوث جيدا حساسية موقع مالطة ، وخطورتها على العثمانيين ، وقد طلب من السلطان مرارا على الاستيلاء عليها [5] .

وعندما فشل حسن باشا حاكم الجزائر في سنة 1563م في تحرير مدينة وهران من الإسبان ، الذين كانوا قد احتلوا أيضا مدينة باديس المغربية ، كما عززوا مواقعهم في مدينة حلق الوادي . ونظرا لتلك الخلفية قرر السلطان العثماني سليمان القانوني توجيه حملة بحرية إلى جزيرة مالطة ،

---

(1) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 84 ،85 .

(2) Ernest Mercier : op.cit , p 98 .

(3) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 85 .

(4) جون .وولف : المرجع السابق ، ص 75 .

(5) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 87 .

وكان قراره بالتنسيق مع القيادات العثمانية ؛ باستثناء معارضة درغوث رايس وتلميذه علج علي باشا ، اللذين ألحا على توجيه الحملة لتحرير الموانئ المغربية ؛ باديس ، وحلق الوادي ، ووهران ؛ باعتبارها امتداد للدولة العثمانية ، وخطرها أشد تأثيرا ،خلافا لمالطة البعيدة عن الأراضي العثمانية. وقد كان درغوث رايس على علم بأمر الحملة منذ أواخر سنة 1564م [1].

وصلت الحملة العثمانية بقيادة كل من بياله باشا ، ومصطفى باشا إلى جزيرة مالطة بتاريخ 18 ماي 1565م ، وقد اختلفت المصادر حول تعداد قوتها [2]. بينما التحق درغوث رايس بالأسطول العثماني في مالطة على متن ثلاثة وعشرين سفينة ؛ منها ثلاثة عشر سفينة كبيرة على متنها ألف وثلاثمائة جندي ، وعشر غليوطات على متنها ثمانمائة جندي ، حيث وصل في يوم 02 من جوان 1565م [3] .كما التحق به تلامذته حسن باشا حاكم الجزائر ، وعلج علي باشا من الإسكندرية ،وكان كل منهما محمل بما قدر عليه من السلاح ، والجنود ، والبارود ، والبواخر[4] .

لقد فشلت الحملة العثمانية على جزيرة مالطة ، ولم يستطع العثمانيون الاستيلاء على الجزيرة، رغم القوة العسكرية الضخمة التي ميزت الحملة ، والاستعدادات الطويلة لها ، حيث خسر الأسطول العثماني أهم شخصية بحرية ، الذي كان موته نسفا خطيرا يعادل آلاف الجنود الأتراك . كما تذكر ذلك المصادر الأوربية [5] . قتل درغوث في 23 جوان من سنة 1565م بسبب شظية أصابت رأسه [6] ، ونقل درغوث رايس إلى مدينة طرابلس الغرب ودفن بها .

د- دور البحرية الطرابلسية في معركة ليبانت :

ورغم استشهاد درغوث رايس ، وخسارة طرابلس ، والبحرية الإسلامية لقائد متميز ، وشخصية بحرية اعترفت الدول المسيحية بقوتها ، إلا أن دور طرابلس الغرب سيتواصل ، ويظهر ذلك من خلال مشاركة البحرية الطرابلسية في معركة ليبانت سنة 1571م . فقد قاد القوات الليبية جعفر باشا ، الذي خلف علج علي في ولاية طرابلس ، وقد قدم الليبيون الكثير من أبنائهم في المعركة ، كما قدموا مساهمات مادية كبيرة [7].

---

(1) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 87 .

(2) Ernest Mercier : op.cit , p 103 .

(3) Charles Feraud.L : op.cit , p 75 .

(4) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 87 .

(5) جون .وولف : المرجع السابق ، ص 81 .

(6) De Grammont : op.cit , p 100 .

(7) محمود علي عامر ومحمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 178 .

هـــ- دور البحرية الطرابلسية في تحرير تونس :

كان للبحرية الطرابلسية دور كبير في إنهاء الاحتلال الإسباني في تونس من خلال مشاركة مصطفى باشا بقواته في الحملة العثمانية ، التي حررت تونس نهائيا من الإسبان في سنة 1574م [1]. فبعد أن تلقى مصطفى باشا خطابا من السلطان العثماني يدعوه للمشاركة في تحرير تونس من الاحتلال الإسباني[2] . توجه إليها على رأس أربعة آلاف رجل[3] ، حيث التقى بالقوات الإسلامية هناك ، فتولى مع حيدر باشا حاكم القيروان الهجوم على تونس ، بعدما أن أمدهم سنان باشا بقوات إضافية ، وعدد من المدافع.فتمكنوا من دحر القوات الإسبانية ، ودخلوا مدينة تونس [4].

و- محاولات الإسبان وفرسان مالطة لاسترجاع طرابلس :

قام الإسبان وفرسان مالطة بمحاولات متكررة لاسترجاع المدينة ؛ فقد وجه فرسان مالطة حملة عسكرية إلى مدينة زوارة القريبة من مدينة طرابلس في سنة 1552م ، لكنها فشلت .كما تدخلت سفن المنظمة في شؤون طرابلس سنة 1589م ، بالإضافة إلى تعرض المدينة إلى حملتين عسكريتين سنوات 1639م و1642م [5].

ومما سبق نستخلص :

- إن العلاقات بين إسبانيا وطرابلس الغرب تميزت على طول الخط بالعداء المتواصل سواء في مرحلة الاحتلال ، أو بعد الفتح العثماني لطرابلس .
- سارعت إسبانيا منذ مطلع القرن 10هـــ/16م ؛ وتحديدا في سنة 1510م إلى احتلال مدينة طرابلس الغرب ؛ لاستكمال مشروعها التوسعي ، الذي يهدف إلى محاصرة منطقة المغرب الإسلامي بكاملها ، والذي كانت قد بدأته باحتلال المرسى الكبير سنة 1505م .
- إن مدة الاحتلال الإسباني لمدينة طرابلس الغرب نظريا تقدر بعشرين سنة ؛ أي ما بين سنتي 1510 و1530م ، لكنها واقعيا تمتد ما بين 1510م و1551م ؛ أي لمدة واحد أربعين سنة .

---

(1) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 105 .
(2) نفسه .
(3) Ernest Mercier : op.cit , p 116 .
(4) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 24 .
(5) ايتوري روسي : المرجع السابق ، ص 81 .

–كان احتلال الإسبان لمدينة طرابلس سهلا ، رغم المقاومة الضعيفة للسكان ، و ذلك بسبب غياب سلطة فعلية قوية فيها ، رغم التبعية الاسمية للدولة الحفصية ، التي كانت ضعيفة .

–اكتفى الإسبان بتحصين المدينة ، ولم يتوغلوا في المناطق الداخلية لطرابلس ؛ خوفا من الهجمات التي تهدف إلى استرجاع المدينة ، أو محاولة العثمانيين الاستيلاء عليها ، خاصة عندما تمكن خير الدين بربروس من تأسيس دولة قوية في الجزائر ، سيكون لها دور كبير في مضايقة الاحتلال المسيحي في مدينة طرابلس الغرب ، إلى أن تم تحريرها نهائيا .

–نظرا للظروف التي كانت تمر بها إسبانيا ، ولانشغالها بأوربا ، فإن شارلكان أراد التخلص من عبء مدينة طرابلس ، ونفقات تحصيناتها ، لكن بدون التفريط فيها نهائيا ، أو تركها للعثمانيين . لذلك فرض على فرسان القديس يوحنا ، قبول المدينة ، إلى جانب منحهم جزيرة مالطة ؛ حتى يضمن بقاء المدينة تابعة للمسيحية ، وللسلطة الإسبانية ، نظرا لموقعها الهام .

–انحصر وجود فرسان مالطة ، مثل الإسبان في مدينة طرابلس الغرب ، التي قاموا بتحصينها ، وجعلوها قاعدة موازية لجزيرة مالطة لعملياتهم البحرية ضد السفن الإسلامية ، إلا أنهم لم يتوسعوا في مناطق أخرى ، أو باتجاه مدن ليبية ؛ بل اكتفوا بفرض الضرائب على القرى المجاورة ، وضمان الولاء الاسمي لبعض القبائل .

–رغم مدة الاحتلال الطويلة لمدينة طرابلس (1530م-1551م) من طرف فرسان القديس يوحنا ، كانوا يظنون أنهم سيحتفظون بالمدينة بصفة دائمة ، إلا أن الوجود العثماني في الحوض الغربي للبحر المتوسط ؛ وفي الجزائر بشكل خاص سرّع عملية استرجاع المدينة من الاحتلال .

– ارتبط تحرير مدينة طرابلس بدرغوث رايس ، الذي وصفه الأوربيون بالشيطان ؛ وهو أحد تلامذة خير الدين ، الذي ساهم في تكوينه العسكري . ومنذ وصوله إلى الحوض الغربي للمتوسط ؛ بدأ يتحرك في المناطق القريبة من طرابلس ، ويجمع التقارير الهامة ، إلى أن أقنع السلطان سليمان القانوني بضرورة تحرير المدينة ، وإنقاذ أهلها من الاحتلال المسيحي ، لبسط النفوذ العثماني في منطقة الحوض الغربي للمتوسط ؛ لما لها من أهمية إستراتجية وعسكرية للعثمانيين .

– إن الإستراتجية التي طبقها العثمانيون في حملتهم على مدينة طرابلس الغرب ، كانت ناجحة ، وأثبتت فاعليتها ؛ بينت كيف يمكن توظيف موازين القوى لتحقيق الانتصار ، واستغلال الظروف الملائمة لصالحهم . لم تكن الخسائر العثمانية لتذكر ، بل إن فتح المدينة كان يمثل دقة التنظيم الذي

وصلت إليه القوة العثمانية ، وقمة التفكير العسكري للقادة العثمانيين ، فقد اعتبر فتح مدينة طرابلس الغرب أهم انتصار منظّم تحققه البحرية العثمانية ، وبدون خسائر .

– إن استرجاع مدينة طرابلس الغرب من طرف العثمانيين يعتبر أداة فعالة ، وذات أهمية بالغة في الصراع ضد المسيحيين ، كما يمثل حلقة وصل مع بلدان المغرب الإسلامي . فضلا عن الدور الاقتصادي ؛ باعتبار مدينة طرابلس الغرب تشكل منفذا هاما للتجارة المغربية والإسلامية ، مع مداخل أفريقيا ، وقد استرجع مدينة طرابلس مكانتها التجارية مباشرة بعد تحريرها ، والتي كانت قد انتقلت إلى مدينة تاجوراء عند احتلالها من طرف الإسبان ، وفرار أهلها إليها .

– نبه استرجاع المسلمين لمدينة طرابلس الدول الأوربية المسيحية ، إلى الخطر المتعاظم للدولة العثمانية الإسلامية في حوض المتوسط ، وفرض عليها ضرورة التوحّد ، ونسيان خلافاتها الداخلية لتقف في وجه الانتصارات العثمانية المتزايدة ، وتجلى هذا التحالف الأوربي في توجيه حملة أوربية ضخمة ضد طرابلس ، والتي تحولت فيما بعد إلى جزيرة جربة في سنة 1560م.

– لعبت إيالة طرابلس دورا هاما سياسيا ، وعسكريا في العلاقات الدولية في منطقة الحوض الغربي للمتوسط ، وفي الصراع الإسلامي المسيحي فيه ؛ في عهد درغوث رايس ، الذي تولى بايلك طرابلس الغرب في سنة 1556م. وذلك من خلال مساهمة البحرية الطرابلسية في تحرير السواحل التونسية الشرقية ، والجنوبية من الاحتلال الإسباني ، وإتباعها لطرابلس الغرب . إضافة إلى إلحاق الهزيمة بالدول الأوربية المسيحية المتحالفة في جزيرة جربة ، والتي اعتبرها المؤرخون ، والأدباء الأوربيون نكسة كبيرة لحقت بالعالم المسيحي ؛ كان لها انعكاسات هامة عليه في جميع الجوانب . لم تتخلص أوربا ، والبحرية الإسبانية خاصة من عقدتها إلا في سنة 1565م .

– كما تواصل دور إيالة طرابلس في الصراع الإسلامي المسيحي ، وتجلى ذلك في حرب مالطة سنة 1565م ، التي استشهد فيها القائد المتميز درغوث رايس . ورغم ذلك سيتواصل دور الإيالة الطرابلسية كقاعدة إستراتجية إسلامية ، استخدمت لمواصلة تحرير القواعد الإسلامية المغربية من الاحتلال الإسباني ؛ فقد شاركت معركة ليبانت ، وفي تحرير تونس نهائيا من السيطرة الإسبانية في سنة 1574م .

إذا كان هذا ما ميزّ العلاقات بين طرابلس ، وإسبانيا . فبماذا تميّزت العلاقات بين تونس ، وإسبانيا خلال القرن 10هـــ/16م .

الفصل الرابع

العلاقات بين تونس وإمبراطورية إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

المبحث الأول : العلاقات بين تونس وإسبانيا قبل سنة 1535م

المبحث الثاني : العلاقات بين تونس وإسبانيا من 1535م إلى 1574م

المبحث الثالث : العلاقات بين تونس وإسبانيا من 1574م إلى 1610م

الفصل الرابع :

العلاقات بين تونس وإمبراطورية إسبانيا خلال القرن العاشرالهجري / السادس عشر الميلادي

إن العلاقات بين تونس ، وإسبانيا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي تمثل مرحلة هامة ، ومكملة لعلاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط . لكن الظروف التي تحكمت في علاقات تونس ، وإسبانيا اختلفت بعض الشيئ عن باقي الإيالات ؛ ذلك أن في تونس ظلت الأسرة الحفصية موجودة إلى غاية سنة 1574م ، رغم فترات الضعف ، التي مرت بها . كما أن طبيعة تلك العلاقات ، التي جمعت الطرفين تنوعت من حيث أشكالها ، كالاحتلال ، والحماية ، والاتفاقيات ، والتبعية ، والتحالف ، اختلفت عن علاقات الإيالتين السابقتين .

ذلك أن الأسرة الحفصية الحاكمة ، كانت دائما تلجأ للإسبان من أجل طلب المساعدة ، والنجدة حفاظا على السلطة ضد العثمانيين ، خاصة بعد أن ارتبطت الجزائر بالدولة العثمانية ، وأصبحت قاعدة هامة لضرب المشروع الإسباني ، ومحاولة توحيد منطقة المغرب الإسلامي تحت سلطة العثمانيين . وإلى غاية حلول الربع الأخير من القرن 16م ظل الحفصيين في صراع متواصل مع العثمانيين ، وهو ما أدى إلى تحالفهم المستمر أيضا مع الإسبان .

وبعد التحاق طرابلس الغرب بإيالة الجزائر ، وارتباطها بالدولة العثمانية ، ازدادت مخاوف الحفصيين ، خاصة مع وجود شخصية درغوث رايس ، الذي كان يعرف المنطقة مثل معلمه خير الدين ، ثم علج علي .

وستأخذ العلاقات بين تونس ، وإسبانيا منحى آخر مع مطلع الستينات من القرن 10هـ/16م ، حيث تتحول تونس إلى منطقة صراع بين العثمانيين ، والإسبان .

فنتساءل إذن عن طبيع تلك العلاقات التي جمعت بين الطرفين ، وعن الظروف التي ساهمت في خلق تلك العلاقات بينهما ، وعن أهم مميزاتها ، وخصوصياتها ، وعن مظاهرها ، وانعكاساتها على الطرفين؟ وعن منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط عموما ؟ .

المبحث الأول :

العلاقات بين تونس وإسبانيا قبل سنة 1535م

إن العلاقات بين تونس ، وإسبانيا في مطلع القرن 10هـ / 16م ، وتحديدا الفترة ما قبل سنة 1535م تحكمت فيها الظروف ، التي ميزت الطرفين في تلك الفترة . فقد كانت الدولة الحفصية ضعيفة ، وهو ما استغله الإسبان لاحتلال مدنها الساحلية . كما أن مجيئ العثمانيين إلى تونس كان له أثر كبير على العلاقات بين الطرفين . ويمكن أن نلخص تلك المرحلة في عناصر أهمها :

1- ضعف الدولة الحفصية وبداية الاحتلال الإسباني لسواحلها :

تولى أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد المسعود (1494م-1526م) الحكم في تونس ، لكنه جاء في آخر أيام الدولة الحفصية ، تميزت فترة حكمه بعدم الاستقرار ، بسبب حروبه مع القبائل العربية ، فهزموه في عدة معارك ، وخرجت في عهده عدة مناطق عن سلطة الدولة الحفصية ؛ مثل مدينة الجزائر ، التي استولى عليها الأتراك (الإخوة بربروس) ، ومدينتي بجاية ، وطرابلس اللتان احتلهما الإسبان 916 هـ / 1510 م [1]. كما تعرضت جزيرة جربة لحملة إسبانية بقيادة الكونت بيدرو نافارو ، في سنة 917 هـ / 1511م ، لكنها فشلت [2]. لقد كانت العائلة الحفصية ما تزال تحكم في القسم الشرقي من بلاد المغرب ، لكنها ضعيفة غير قادرة عن الدفاع عن نفسها ، أو صد الهجومات التي تتعرض لها [3] .

ومهما يكن من تلك الأوضاع التي ميزت الدولة الحفصية ، فقد بدأت بوادر تغيير جديدة في الساحل الشرقي من بلاد المغرب مع مطلع القرن 10هـ / 16م ؛ متمثلة في الاحتلال الإسباني للسواحل التونسية ، وبداية وصول الأتراك العثمانيون إلى تونس .

2- مجيء الإخوة بربروس إلى تونس وأثره على علاقاتها مع إسبانيا :

في عهد السلطان أبي عبد الله محمد بن الحسن الحفصي ، أتى عروج بأسطوله إلى جزيرة جربة التونسية ، فهادى السلطان الحفصي بتحف ، وحسان من الجواري مما غنم ، فوقع ذلك من السلطان أبي عبد الله موقعا حسنا ، واستأذنه في الإقامة بأسطوله في بعض مراسي المملكة . فأذن

---

(1) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج1 ، ص 241 .

(2) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ، ص 324 .

(3) جون وولف : المرجع السابق ، ص 23 .

له على شرط أن يدفع إليه خمس ما يغنمه ، فرضي عروج بذلك ، وسافر إلى جزيرة جربة [1] . وذكر هايدو أن عروج جاء إلى حلق الوادي ، واتصل بالسلطان الحفصي في تونس في ربيع سنة 1504 م ، وطلب منه الإذن للإقامة بأسطوله [2] .

التقى خير الدين بأخيه عروج في جزيرة جربة ، بعد أن جاءها خير الدين ، واستقر الأخوان في مدينة تونس ، بعد أن قدّما هدية إلى سلطانها أبي عبد الله . وواصل الإخوة نشاطهم البحري ، واكتسبوا شهرة كبيرة في حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ بفضل الشجاعة التي كانوا يتميزون بها، والتي أظهروها في نشاطهم ضد السواحل الإيطالية خاصة . فقد تمكن الإخوة من الاستيلاء على ثلاث سفن محملة بالغنائم ، بعد رحلة دامت عشرين يوما ، ثم عادوا بها إلى تونس ، ووزعوا جزءا هاما منها على فقراء المدينة [3] .

استمر الإخوة عروج وخير الدين في نشاطهم البحري في حوض البحر المتوسط ؛ ضد السواحل الإسبانية ، والمسيحية خلال سنوات 1510م و1511م، ووصلوا بالقرب من السواحل الإيطالية ، حتى ذاع صيتهم في تونس ، ولدى المسلمين ، وفي البلاد المسيحية الأوربية ، وأطلق عليهم الأوربيون لقب (بربروس) [4] .

وقد أورد شارل أندري جوليان عن نشاط الإخوة بربروس في تونس ، ما ذكره في كتابه : ((ذاع صيتهم بين المسلمين من سنة 1504م إلى 1510م ، لما اشتهروا به من سطو على مراكب النصارى ، وخاصة الإسبانية منها ، وبفضل ما حققه عروج وإخوته من إنقاذ لآلاف الموريسك ، ونقلهم إلى بلاد البربر ، تقاطر عليه المغامرون الراغبون في الغنيمة ؛ بالمئات للانضمام إليه والخضوع لإمرته ، فاستغل الأمير الحفصي ذلك بمهارة ، ورغبة في الربح ؛ فمنحه رخصة للتمون في مراسيه ، وأسند له حكم جزيرة جربة ، التي أصبحت قاعدة لعشرة ، أو إثني عشر من مراكب عمارته)) [5]. ومهما كان من قول المصادر حول بداية نشاط الإخوة بربروس في تونس ، أوحول مجيئهم إلى الى الحوض الغربي للمتوسط ، فإن ذلك كان بداية لنشاطهم البحري لتحرير المواقع المغربية الإسلامية من الاحتلال الإسباني المسيحي .

---

(1) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 10 .

(2) Haédo : op.cit , p 6 .

(3) مجهول : المصدر السابق ، ص 15 .

(4) Haédo : op.cit , p 8 .

(5) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ، ص 326 .

3– محاولة الإخوة بربروس تحرير بجاية الحفصية من الإسبان :

كانت المحاولة الأولى لتحرير مدينة بجاية من الاحتلال الإسباني في سنة 1512م [1] ، وقد ذكر ابن أبي الضياف ؛ أن سكان مدينة بجاية قد طلبوا النجدة من عروج لتحرير مدينتهم ؛ فقد أرسل سلطانها الحفصي إلى عروج يطلب مساعدته على تحرير بجاية من يد الإسبان . ((فكاتبه العلماء ، والأعيان من أهل بجاية يستصرخونه في إنقاذ مدينتهم من العدو ، فتوجه لها ، ومعه أخوه عروج ، وحاصرها بأسطوله)) [2] . ويتفق شارل جوليان معه في ذلك حيث ذكر : ((ففي سنة 1512م حاول عروج الاستحواذ على بجاية ، استجابة لنداء الوالي الحفصي المطرود ، ولكنه لم يستطع مواصلة الحصار)) [3]. أما صاحب الغزوات فقد أورد : ((وقد كان سمع بأن بجاية أخذها النصارى من أيدي المسلمين ، فظهر له أن يغزوها ...)) [4] .

انطلق خير الدين وعروج لنجدة مدينة بجاية ؛ بقوة بحرية مكونة من إثني عشر سفينة على متنها ألف تركي ، وانضم إليهم الآلاف من سكان المناطق الجبلية ، بقيادة السلطان عبد الرحمان المخلوع [5] . وبعد محاصرته للمدينة ، قام عروج بهجوم بري على رأس قوة برية ، لكن بسبب قوة التحصينات الإسبانية ، وقوة مدفعيتها حال دون نجاح المحاولة . مما اضطر الإخوة بربروس إلى الانسحاب إلى تونس ، بعد أن بترت ذراع عروج اليسرى ، بسبب قذيفة أصابته [6] .

أعاد عروج المحاولة مرة أخرى ، لتحرير مدينة بجاية في شهر أوت من سنة 1514م ؛ حيث حاصرها من جهتي البر ، والبحر على رأس قوة قدرت بعشرين ألف رجل ، كما سانده سكان القبائل ، وبعد حصار دام ثلاثة أشهر ، كادت المحاولة أن تنجح لولا نفاذ الذخيرة ، والبارود لعروج ، وبعد أن رفض السلطان الحفصي محمد بن الحسن ، تزويده بالإمدادات التي طلبها ،خوفا على ملكه [7]. فاضطر عروج إلى الانسحاب إلى مدينة جيجل ، وهو ما أورده صاحب الغزوات بقوله : ((وكانوا قد فرغ عليهما البارود ، فوجه خير الدين ، وأخوه عروج إلى سلطان تونس رسلا برسم إعانتهما بالبارود ، وغيره من آلات الحرب ، فدب إليه الحسد ، والعياذ بالله ودخلت

---

(1) محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 24 .
(2) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 10 .
(3) شارل أندي جوليان : المرجع السابق ، ص 326 .
(4) مجهول : المصدر السابق ، ص 17 .
(5) De Grammont : op.cit , p 18,19 .
(6) Haédo : op.cit , p 13, 14 .
(7) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 11 .

أفكار سودائية ، ونزعات شيطانية ، فامتنع عن إسعافهما بما طلباه ، فسمع بذلك المجاهدون ، وخير الدين وأخوه ، فتغيرت قلوبهم عليه ، وحق لهم ذلك)) [1] . بعد زيادة صيت الإخوة بربروس في حوض البحر الأبيض المتوسط ، بدأ السلطان الحفصي محمد بن الحسن يحقد عليهم ، ويكن العداء لهم ، وللعثمانيين ، فبدأ الخلاف بين الطرفين ، وقد ذكرت بعض المصادر أن الأسرة الحفصية الحاكمة في تونس في هذه الفترة ، كانت تتزعم العداء ضد خير الدين ، وأخوه عروج ، وارتبطت مع الملك الإسباني شارلكان ، وأصبحت تابعة له ، وهذا ما استغله شارلكان لإبعاد الإخوة بربروس عن تونس وعن سواحل بلاد المغرب [2].

استغل شارلكان أوضاع الدولة الحفصية للسيطرة على حكامها ، فقد شهدت حالات من التراجع ، والضعف ، خاصة بعد أن توفي السلطان الحفصي محمد بن الحسن ، الذي ترك عددا كبيرا من الأولاد ، حيث توفي السلطان محمد في سنة 932 هـ/1526م ، وكان قد أوصى بالخلافة لأصغر أبنائه مولاي الحسن [3].

4- ولاية الحسن الحفصي في سنة 1526م وتبعيته للإسبان :

بويع الحسن الحفصي في يوم وفاة أبيه ؛ يوم الخميس 25 ربيع الثاني من سنة 932 هـ/ 1526م، ساءت سيرة الحسن الحفصي بين الناس ،واضطربت عليه البلاد ، وخرجت عن طاعته ؛ فقد انحصر نفوذ السلطان حوالي سنة 1530م في الشمال الغربي من البلاد التونسية (الحالية) ، كما انفصلت المدن النائية مثل : سوسة ، والقيروان ، وعنابة ، أما بقية الجهات فقد استعاد سكانها خاصة القبائل استقلالهم عن السلطة المركزية [4].

وقد أورد ابن أبي دينار بعض التفاصيل حول ذلك الوضع ، الذي كانت تعيشه البلاد التونسية في هذه الفترة، بقوله : ((وقد خرجت عن طاعته مدينة سوسة ؛ فقام فيها صهره القليعي ، وقام عليه في القيروان الشيخ عرفة ، وهو من قبيلة الشابيين . وفي أيامه كانت قسنطينة في أيدي الترك ، وفي أيامه تغلبت الأعراب على جل البلاد ، وكانت الشوكة في أولاد سعيد ، لأنهم استقلوا بالبلاد ، وهادنهم السلطان الحسن بستين ألف دينار على)) [5] .

---

[1] مجهول : المصدر السابق ، ص 26 .

[2] سامح التر : المرجع السابق ، ص 109 .

[3] ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج1 ، ص 242 .

[4] محمد الهادي الشريف : المرجع السابق ، ص 64 ، 65 .

[5] ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 152 ، 153 .

لقد كانت تونس تعيش اضطرابات ، وخلافات بين أمرائها على الحكم ؛ فقد كان السلطان الحسن الحفصي غير محبوب من طرف الرعية ، فقد قام بقتل إخوته للانفراد ، و لم ينج منهم من أحد سوى الرشيد ، الذي لجأ إلى خير الدين بربروس . ومما ذكره الدمشقي في أخبار الدول : ((وكان محمد بن الحسن منشغلا باللهو ، ومهملا لأمور الملك ، وترك خمسة وأربعين ذكرا ، خلفه منهم الحسن ، فقتل إخوته ، و لم ينج منهم إلا الرشيد ، وعبد المؤمن لغيبتهما ، واشتغل مثل أبيه بالخمور ، والفجور ، فمالت عنه الأمة إلى الرشيد)) [1] .

بينما ذهبت المصادر الغربية في أمر ولاية الحسن الحفصي : ((إن محمد بن الحسن الحفصي ترك عددا من الأولاد ، ولكنهم كانوا جميعا فاسقين لدرجة أنه لم يهتد إلى من سيخلفه منهم ، وأخيرا استقر رأيه على مولاي الحسن ، الذي كان أصغرهم ، والذي كان من نسل أميرة عربية ، وقد أمل والده أن الأقارب سيؤيدون هذا الإبن الشاب ، وعندما جلس على العرش ؛ قام بقتل كل إخوته ، سوى أمير شاب حفصي واحد وهو الرشيد [2]. إن آخر ممثلي الحفصيين الضعاف ؛ كانوا قد وضعوا أنفسهم تحت الحماية الإسبانية للنجاة بأنفسهم [3] .

ومن جهة أخرى كانت الفرصة مواتية لأتراك الجزائر ، والدولة العثمانية للسيطرة على تونس ، التي كانت تمثل موقعا استراتجيا هاما في حوض البحر المتوسط ، قبل أن تسقط بيد الإسبان ، الذين كانوا يريدونها لوقف توسع العثمانيين ، و لم يتردد خير الدين في تنظيم حملة على عليها [4] .

5- إتباع خير الدين تونس للدولة العثمانية سنة 1534م :

كان خير الدين يركز اهتمامه على تونس ، بسبب ضعف الحفصيين والخلافات الداخلية ، التي تمزق الأسرة الحفصية ، كما كان لتونس أهمية استراتجية كبيرة ؛ لإشرافها على المضيق الصقلي ، بحيث تسمح له السيطرة عليها في تهديد ، أو قطع المواصلات بين حوضي البحر المتوسط الشرقي ، والغربي . وكان خير الدين يعرف كره السكان التونسيون لسلطانهم الحسن الحفصي ، بسبب طغيانه وفسقه ، فقدكان له عيون في البلاط الحفصي يمدونه بأنباء البلاد [5] .

---

[1] نقلا عن توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 229 .

[2] Alphonse Rousseau :Annales Tunisiennes ou aperçu sur la Régence de Tunis , édition Bouslama , Tunis 1980 , p 13 .

[3] أندريه رايمون : المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، ترجمة : لطيف فرج ، ط2 ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة 1991 ، ص 21 .

[4] صالح عباد : المرجع السابق ، ص 62 .

[5] محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 33 .

لجأ الأمير الرشيد إلى خير الدين بربروس ، فوجد فيه هذا الأخير فرصة ؛ فاصطحبه معه إلى استانبول ، وتمكن من إقناع السلطان العثماني سليمان القانوني ، بمهاجمة تونس ، وفتحها ؛ خاصة وأن فتحها يمكن الدولة العثمانية من بسط نفوذها على شمال إفريقيا [1] . وقد ذكر الدمشقي في أخبار الدول : ((ولجأ الرشيد إلى خير الدين صاحب الجزائر ، واستعان به على حرب أخيه ، فشكاه الحسن إلى سلطانه سليمان ، فاستقدمه ، وأمره باستصحاب الرشيد ليمسكه عنده ، لكن خير الدين لما وفد عليه زين له احتلال تونس، ليتمكن في البحر ،وعرفه سخط الأمة على الحسن ، فأذن له)) [2]. إن الدور الذي سيلعبه الرشيد أخو مولاي الحسن الحفصي ، سيمكن خير الدين من تحقيق هدفه ، إزاء ذلك أعطى الرشيد أهمية خاصة ، وخصص له معاشا محترما ، ومنح له حق الاستقرار في استانبول ، وبعد أن أتم خير الدين إعداد الأسطول . زوده السلطان العثماني سليمان القانوني بثمانية آلاف جندي إنكشاري ، وثمانمائة قطعة ذهبية ، ثم أذن له بالتحرك باتجاه الشمال الإفريقي ، لاحتلال تونس ، وطرد الإسبان منها بصورة نهائية [3] .

وصل خير الدين بأسطوله إلى بترزت في 15 أوت سنة 1534م ، وعندما علم مولاي الحسن بذلك ، انطلق يجول شوارع مدينة تونس يطلب نجدة الأهالي ، لكن الشعب التونسي كان ناقما عليه ؛ فلم يستجب لندائه ، وفي اليوم الموالي دخل خير الدين حلق الوادي دون عناء ، وبعدها توجه إلى مدينة تونس ، حيث فتحت له أبوابها واستقبله أهلها ، الذين كانوا يعتقدون أنه أحضر معه الأمير الرشيد لينصبه على العرش ، لكن خير الدين كان ينوي إلحاق تونس بالخلافة العثمانية مباشرة ، فلما علم الأهالي بذلك ؛ إتصلوا بمولاي الحسن ، وطلبوا منه العودة إلى تونس ، ووعدوه بالمساعدة على طرد الأتراك [4].

لقد أورد مارمول باعتباره من المصادر الهامة ؛ المعاصرة لتلك الفترة بعض التفاصيل عن كيفية استيلاء خير الدين على تونس ، بقوله : ((ذهب بربروس (يقصد خير الدين) إلى تونس ، ومعه تسعة آلاف جندي ، على متن ستون سفينة حربية ، ثم استولى على القلعة ، ولما علم الأهالي أن الكلام يدور حول سليمان ، وبربروس ، وأن الرشيد بقي بالقسطنطينية ، وانكشفت الخديعة ، أرسلوا على وجه السرعة في طلب الحسن ، ثم حملوا السلاح ، وبدأوا يقاتلون الأتراك ،

---

(1) سامح التر : المرجع السابق ، ص 110 .

(2) نقلا عن ، مبارك بن محمد الميلي : المرجع السابق ، ص 414 .

(3) سامح التر : المرجع السابق ، ص 110 .

(4) DE la Primaudie : Documents inédits …op.cit , p 345 , 346 .

ويعاملونهم معاملة العدو . لكن بربروس أمر فرسانه بشن الغارات عليهم ، فاضطروا للاستسلام ، وقبول الولاء للسلطان الأعظم ، وتحالف بربروس مع الأعراب ، واستعملهم للاستيلاء على بعض المدن مثل : القيروان ، أما مولاي الحسن ففر إلى حلفائه من القبائل العربية)) [1] .

تشجع مولاي الحسن ، وخرج إلى تونس يرافقه أربعة آلاف فارس ، وبعد مواجهات عنيفة بين الطرفين ، كانت الغلبة في البداية لمولاي الحسن ن فاضطر خير الدين بربروس إلى طلب إمدادات جديدة ؛ تمثلت في ألف وثمانمائة مقاتل ، مزودين بأسلحة نارية ، فأرغم مولاي الحسن على الفرار ؛ بعدما قتل من رجاله ثلاثمائة جندي ، أما الأهالي، فأعلنوا ولاءهم لخير الدين [2] .
ثم توجه مولاي الحسن إلى مدينة القيروان ، حيث جمع حوالي الخمسة عشر ألف جندي ، وما إن سمع به خير الدين ، حتى جمع بدوره خمسة عشر ألف جندي ؛ مزودين بالمدفعية ، ونقلها باتجاه مولاي الحسن ، الذي فر تحت نيران المدفعية ، وأعلن التونسيون ولاء الطاعة للسلطان العثماني سليمان القانوني ، بينما فر السلطان الحفصي مولاي للإسبان [3] .

ولقد أورد ابن أبي الضياف بعض التفاصيل عن سير المعركة بين الطرفين ، وعن عوامل تفوق خير الدين على مولاي الحسن الحفصي ، بقوله : ((ثم إن السلطان الحسن داخل أشياخ العرب في الثورة على خير الدين ، فأجابوه ، وجاهروا بالثورة والعصيان ، والتفوا عليه حول القيروان ، فخرج لهم خير الدين بقوة العدة وكثير العدد ، واستصحاب المدافع على العجلات ، ولم تكن معروفة يومئذ في المغرب . فطاشت عقولهم ، ورأوا ما لا قبل لهم به ، فولوا منهزمين ، وأثخن فيهم بالقتل ، والأسر ، فبادروا بطاعة السلطان العثماني ، وطلبوا الأمان ، فأمنهم وكتب لهم بذلك ، ورجعوا لأوطانهم . ولما رأى السلطان الحسن أن لا قدرة له على مقاومة خير الدين ، لوي عنانه إلى الصبنيول ، فركب إليه البحر مستصرخا ، وأخبره أن البلدان ، والبوادي من أهل المملكة معه ، وبذل له ما أرضاه في العاجل ، والآجل))[4] .

كما أورد صاحب الغزوات رواية مشابهة ، وبذلك تكون المصادر الإسلامية تجمع على أن الانتصار ، الذي حققه خير على حساب السلطان الحفصي ، وتمكنه من تونس مرده إلى استغلاله للأوضاع الداخلية للبلاد من جهة ، وللتفوق العسكري من جهة أخرى ، فقد امتلك خير الدين

---

[1] مارمول : المصدر السابق ، ج3 ، ص 31 .
[2] DE la Primaudie : op.cit, p 345, 346 .
[3] سامح التر : المرجع السابق ، ص 113 .
[4] ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 13 .

أسلحة أكثر فعالية ؛ وهي المدفعية ، أما مولاي الحسن والقبائل المتحالفة معه ، فقد اعتمدت أسلحة أقل جدوى ، وأقل تطور [1].

بعد انتهاء المعارك بين مولاي الحسن الحفصي ، وخير الدين بربروس ، أعلن السكان التونسيون ولاءهم لخير الدين ، واعترفوا به ملكا عليهم . لقد استطاع خير الدين بربروس أن يجمع القبائل التونسية حوله ، وأن يضع تونس بموقعها الاستراتيجي تحت سلطته ، وبذلك خضعت تونس إلى جانب الجزائر للخلافة العثمانية ؛ وصار خير الدين ، والدولة العثمانية بحكم موقعها الاستراتيجي في الحوض الغربي للبحر المتوسط ؛ تشكل خطرا كبيرا على الوجود الإسباني في شمال أفريقيا ، لذلك عجل الملك شارلكان بحملته على تونس [2] .

ومما سبق يمكن القول أنه نظرا للظروف التي ميزت تونس في تلك الفترة ، فإن علاقاتها مع إسبانيا ، التي تميزت بالاحتلال ، والتبعية للإسبان ، أصبحت مهددة بعد وصول العثمانيون إلى منطقة المغرب الإسلامي ، خاصة بعد ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية ، وهو ما هدد الوجود الإسباني في تونس ، لذلك كان ضروريا على الإسبان التحرك للحفاظ على مصالح الاستراتجية في تونس . فنتساءل إذن عن طبيعة العلاقات التي ربطت الطرفين في الفترة ما بعد سنة 1535م .

---

[1] مجهول : المصدر السابق ، ص 94 .

[2] Braudel Fernand : Les Espagnoles …op.cit , p 353 .

المبحث الثاني :

العلاقات بين تونس وإسبانيا في الفترة (1535م–1574م) :

إن العلاقات بين تونس ، وإسبانيا في الفترة ما بعد سنة 1535م ؛ وهي السنة التي قام فيها الإمبراطور شارلكان بحملته الشهيرة على تونس ، واسترجعها من العثمانيين ، وفرض الوجود الإسباني بالقوة فيها.فكيف كانت طبيعة العلاقات بين الطرفين ؟ وما هي انعكاساتها عليهما ، وعلى منطقة حوض المتوسط ؟.ويمكن أن نوجز هذه المرحلة في العناصر :

1- حملة شارلكان على تونس سنة 1535م وفرض الحماية الإسبانية :

بعد أن فشلت محاولات الإسبان للسيطرة على الجزائر ، وجد الملك شارلكان الفرصة للتوجه إلى تونس ، وقد كانت الدول الأوربية تخشى بشدة من توحيد بلاد المغرب ؛ تحت سلطة دولة إسلامية كبيرة ، مثل الدولة العثمانية [1] . وخاصة بعد أن حقق خير الدين انتصارا عظيما في تونس ؛ بحكم موقعها الاستراتيجي في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وألحقها بالخلافة العثمانية ، فاعتبر الملك الإسباني شارلكان ذلك تهديدا للإمبراطورية الإسبانية ، ولمواقعها في صقلية ،ونابولي ، ولمصالحها في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، والسيطرة على الطرق التجارية فيه ، وهو ما اعتبره شارلكان تهديدا موجها ضد إمبراطوريته [2] .

وجاءت هذه الحملة الإسبانية على تونس ، بناءا على عدة أسباب كان من بينها ؛ استنجاد السلطان مولاي الحسن الحفصي بالملك الإسباني شارلكان .

أ -استنجاد مولاي الحسن بالإسبان :

ما كان استيلاء خير الدين على مدينة تونس الهامة ،ليرضي الإسبان ،وسائر دويلات إيطاليا ، والبابا نفسه ، ولذلك صمم شارلكان على إقصائه منها ، وزاد تصميمه لما إتصل به الحسن الحفصي المخلوع [3] . فقد وجد شارلكان في الخطاب ، الذي وجهه له السلطان الحفصي ، إثر نصيحة قدمها له علج جنوي كان صديقا لمولاي الحسن ؛ واسمه اكسيما أو خيما Ximea [4] ،

---

[1] إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر : تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، 2ج ، دار المريخ ، المملكة العربية السعودية 1993 ، ج2 ،ص 120 .

[2] محمد خير فارس ، المرجع السابق ، ص 34 .

[3] عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص 29 .

[4] Alphonse Rousseau : op.cit , p 15 .

فرصة مناسبة تمكنه من الاستيلاء على تونس ، وطرد العثمانيين منها ، وقد أورد السلطان الحفصي خطابه إلى شرلكان يستعطفه ، ويتعهد له بالتبعية مقابل إعادة ملكه ، والقضاء على بربروس [1] .

لم يعد الملك الإسباني شارلكان قادرا على البقاء بدون مبالاة ؛ أمام استيلاء الأتراك على تونس ، فقبل أن يضع أمامه طلب المعونة من مولاي الحسن ، كان أندري دوريا قد حثه على أن يتحرك لطرد القراصنة ، والأتراك من البلاد التونسية . وقد كان الظرف مناسبا ؛ فالسلام كان مستتبا بين فرنسا ، ودولة الهابسبورغ [2] . كما أن الملك الإسباني شارلكان استغل فرصة انشغال الدولة العثمانية ، في حربها ضد إيران [3] . ونتيجة لذلك بدأت الاستعدادات العسكرية الإسبانية ، من أجل القيام بحملة ضخمة ضد تونس ، للقضاء على الوجود العثماني فيها .

ب– الاستعدادات الإسبانية :

شرع الملك الإسباني شارلكان بإعداد حملة صليبية حقيقية في مدينة برشلونة ، حيث تمكن من جمع أسطول ضخم ؛ يتألف من أربعمائة قطعة بحرية من مختلف الأنواع ، والأحجام . وانطلقت الأرمادة الإسبانية في يوم 31 ماي 1535م ؛ وقد كانت مؤلفة من عدة عناصر : إسبانية ، إيطالية ألمانية ، وبرتغالية وعناصر مالطية ، قدرت القوات بأربعة وعشرين ألف جندي [4] . بينما تذهب مصادر أخرى إلى ستة وعشرين ألف ، وخمسمائة رجل ، إضافة إلى عدد من المؤرخين الأوربيين ، الذين تم استقدامهم لتسجيل مجريات الحملة [5] .

وقد وصف مارمول ؛ باعتباره مصدرا أوربيا هاما لتلك الفترة ، كيفية إعداد الإمبراطور شارلكان للحملة على تونس ، بقوله : ((وقد أعطى الإمبراطور أوامره سرا ، بأن تعد للحرب سفنه (القاليرات) في موانئ إسبانيا ، جنوة ، ونابولي ، وصقلية ، وأن تعد مع سفن الحرب ، سفن أخرى للنقل ضخام ، وأن تشترى الأقوات ، والذخائر ، وغيرها من لوازم الحرب . وكتب الإمبراطور إلى الدون يان Don Yan ملك إسبانيا ، بأن يبعث إليه غليونه ، أي سفينته الحربية الكبرى ، وكذا عددا من قطع أسطوله الحربي)) [6] .

---

(1) مجهول : المصدر السابق ، ص 95 .

(2) جون وولف : المرجع السابق ، ص 47 .

(3) محمد فريد بك : المرجع السابق ، ص 232 .

(4) جون وولف : المرجع السابق ، ص 47 .

(5) Alphonse Rousseau : op.cit , p 17 .

(6) مارمول : المصدر السابق ، ج3 ، ص 33 .

أما عن قوات الأرمادة المسيحية الإسبانية ؛ فقد كانت ضخمة ، تكونت حسب بعض المصادر الأوربية من [1]:

أ– القوات البحرية مكونة من عدة فرق وهي :

– الفرقة الاسبانية الجنوية ، وبلاد الفلاندر ؛ تتكون من 54سفينة (غالير) ، و70 سفينة كبيرة ، و24 سفينة إبريقيه ، تحت قيادة أندري دوريا André Doria .

– الفرقة البرتغالية ؛ تتكون من 27 سفينة تحت قيادة أنطوان سالدانا Antoine de Saldanha .

– الفرقة الإيطالية المالطية ؛ تتكون من 36 سفينة حربية (غالير) ، و28 سفينة ضخمة تحت قيادة ألفار بازان Alvar Bazan .

ب– القوات البرية مقسمة بدورها إلى عدة فرق وهي :

– الفرقة الإسبانية ؛ تتكون من 4000 رجل من قدماء المحاربين الايطاليين ، تحت قيادة الجنرال ماركي دي قاست Marquis de Guast .

– الفرقة الإسبانية ؛ تتكون من الجنود الجدد ، وعددهم 8000 جندي ، تحت قيادة دوق الألب فرديناند الطليطلي Ferdinand de Tolède .

– الفرقة الألمانية ؛ وتتكون من 7000 رجل ، تحت قيادة ماكسيمليان بيادرا بونا Maximilien Piedra Buena .

– الفرقة الايطالية ؛ تتكون من 4000 رجل ، تحت قيادة أمير سالرن .

– الفرقة البرتغالية ؛ تتكون من 2000 رجل ، تحت قيادة دون لويس Don Louis ابن ملك البرتغال .

– الفرسان وهم من النبلاء من جميع أمم أوربا ، وعددهم 1000 رجل ، و500 فارس إسباني ، تحت قيادة الماركي دي مونديخار Marquis de Mondejar [2].

ويؤكد مارمول المؤرخ الإسباني على ضخامة الاستعدادات الإسبانية ، وقوة الأرمادة ، حيث أعطى بدوره إحصاءات دقيقة ، بقوله :((كان الجيش مكون من كتائب الإسبانيين ،والإيطاليين ، والألمانيين ، انطلق الإمبراطور في يوم 30 ماي 1535م من برشلونة ، على متن سفينة حربية صنعت خصيصا في جنوة ، بأمر من أندري دوريا ، وركب معه عدد من السادة ، ونبلاء القوم

---

(1) Alphonse Rousseau : op.cit , p 17 .

(2) Ibid , p 17, 18 .

الإسبانيين ، وكان الأسطول الأوربي مكون من 74 سفينة حربية خاصة بالإمبراطور ، و70 سفينة من السفن الضخام ؛ كان من بينها عدد من سفن النقل جاءت من فلاندرا ، إضافة إلى 24 سفينة من السفن الحربية (الكرافيلات) ، التابعة لجيش البحر ، وسفينة ضخمة (غليون) أرسلها ملك البرتغال)[1]. وبعد هذا الوصف الدقيق للأرمادة الإسبانية ، يواصل المؤرخ مارمول كلامه عن تحرك الأسطول المسيحي ، بقوله : ((إن الجيش اجتمع في مينورقة ، ولما هدأ البحر اتجه الأسطول إلى سردينيا ، ثم وصل ماركي دوكوات ، ومعه 28 سفينة نقل ، و36 من القاليرات الملكية ، وعدد كثير من أنواع السفن الصغرى)) [2].

لقد كانت الحملة الإسبانية ضخمة ، تكونت في مجموعها من أسطول قدر عدد قطعه بأكثر من أربعمائة سفينة ، من أنواع مختلفة ؛ منها تسعون سفينة ملكية [3] . ومما يمكن استنتاجه من المصادر الغربية ، أن الحملة الإسبانية على تونس كانت ضخمة ، لأن الإمبراطور شارلكان أرادها أن تكون حملة صليبية حقيقية [4].

ج -الاستعدادات الإسلامية :

حسب بعض المصادر الغربية كان الحل أمام خير الدين عندما علم بأمر الحملة ، أن يطلب النجدة من السلطان العثماني ، لكن السلطان منشغلا بحربه في أسيا [5] . لكن المصادر الإسلامية تجزم أن خير الدين لما علم بخبر الحملة الإسبانية على تونس ، بدأ في القيام بالاستعدادات لمواجهتها ، رغم أنها تتفق على أن هذه الاستعدادات كانت عند اقتراب الحملة من تونس ، ومن جهة أخرى تتفق المصادر على أن القوات الإسلامية كانت قليلة ، مقارنة بحجم الحملة الإسبانية ، فقد ذكر ابن أبي الضياف : ((ولما بلغ خبر ذلك إلى خير الدين بالحاضرة ، احتقر عدوه وأضاع الحزم، اعتمادا على علو كعبه ، وشيوع صيته ، فجاءه أهل الحاضرة ، وطلبوا منه أن يحضر أسطوله لدفاع الصبنيول قبل نزوله إلى البر ، وغالب ما يأتي على الشجعان من هذا الباب)) [6] .

أما صاحب الغزوات فقد ذكر أن خير الدين ، علم بأمور الحملة الإسبانية بعد عمليات الإنزال

---

(1) مارمول : المصدر السابق ، ج3 ، ص 34 .

(2) نفسه ، ص 35 .

(3) جون وولف : المرجع السابق ، ص 48 .

(4) Ernest Mercier : op.cit , p 36 .

(5) Ibid .

(6) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 13 .

عند برج بحلق الوادي ، وبالتالي فإن الاستعدادات لمواجهة الإسبان ، ستكون قليلة لأن الفترة محدودة ، وأن خير الدين لا يمكنه جلب الإمدادات اللازمة [1] .

في حين يؤكد مارمول أن علم خير الدين بخبر الحملة الإسبانية ، كان مسبقا ، وأنه تلقى أخبارا دقيقة ، حتى أنه علم أن شارلكان سيقودها بنفسه ، وهو ما يدل على قوتها ، لذلك سارع إلى طلب النجدة من السلطان العثماني سليمان القانوني ، ومما ذكره مارمول : ((علم باربروس بأمر الحملة عندما حل بحلق الوادي راهب فلورنسي ، مبعوث من ملك فرنسا إلى إمبراطور الترك، وأكد له أن الإمبراطور يشارك بنفسه في الحملة ، لذلك أرسل باربروس مركبين صغيرين إلى القسطنطينية ، لإطلاع سليمان القانوني ، وأبلغه بضرورة التعجيل بالأنجاد ، وإلا ضاع جيش البحر ، وضاعت معه ولايات الترك في بلاد البربر)) [2].

وحسب بعض المصادر فإن خير الدين شرع في إعداد الترتيبات الدفاعية اللازمة ، لمواجهة الحملة الإسبانية ؛ فأقام الحواجز في مضيق حلق الوادي ، ونصب المدافع ، وتم تجهيز إثني عشر سفينة حربية ؛ كانت راسية في الميناء ، بينما قام بإخفاء سفن أخرى عن الأنظار [3] . وتتفق المصادر الإسلامية أن تعداد قوات خير الدين كان إثني عشر ألف جندي [4] . بينما تذهب مصادر إسلامية أخرى ، إلى أن عدد قوات خير الدين ومن تحالف معه من أهالي تونس ، كان ثمانية عشر ألف رجل ((ولما نزلت النصارى قابلهم الأتراك ، ومن انحاز إليهم من المسلمين)) ، في حين قدرت نفس المصادر تعداد القوات الإسبانية بمائة ألف جندي [5] .

د- المواجهات بين الطرفين (المعركة) :

حاولت سفن خير الدين التي كانت راسية في ميناء حلق الوادي ؛ رغم قلتها ، ضرب السفن الإسبانية ، وإبعادها عن المناطق التي أرادت الإنزال فيها ، وأجبرتها على التراجع [6] .

وفي 14 جوان 1535م قامت القوات الإسبانية بعمليات الإنزال في حلق الوادي ، كما تم إنزال الذخائر ، والأسلحة ، والمدافع [7]. بينما تتجه مصادر أخرى إلى القول : ((فأصبح أسطول

---

(1) مجهول : المصدر السابق ، ص 95 .

(2) مارمول : المصدر السابق ، ج3 ، ص 33 .

(3) Ernest Mercier : op.cit , p 36 .

(4) مجهول : المصدر السابق ، ص 96 . وابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 13.

(5) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 154 .

(6) DE la Primaudie : Documents.. , op.cit , p 356 .

(7) Ibid .

الصبنيول ناشرا أجنحته بحلق الوادي ، ونزل للبر بمحل يقال (برج العيون) ؛ قرب حلق الوادي ، وأنزل عساكره ، ومدافعه ، وآلات حربه ، وسفنه وراءه ؛ غادية رائحة ، بما يلزمه من ضروريات الحرب ، والجيش)) [1].

وقعت مواجهات كبيرة بين القوات المسيحية المتحالفة بقيادة الإمبراطور الإسباني شارلكان ، والقوات الإسلامية بقيادة خير الدين ، التي كانت متحصنة في حلق الوادي ، حيث تمكن المسلمون من تحقيق نجاحات كبيرة ؛ فقد قتل من المسيحيين نحو ستة آلاف، إضافة إلى المعطوبين ، والجرحى ، كما تذكر ذلك المصادر الإسلامية [2]. ولم تستطع القوات الإسبانية احتلال قلعة حلق الوادي ؛ إلا بعد شهر أي في 14 جويلية ، بعد أن كانت الإمدادات تصل إلى قوات الإمبراطور شارلكان ؛ فقد تلقى نجدة قدرت بألف ، ومائتي جندي ، إضافة إلى المدفعية الثقيلة ، التي استخدمها الإسبان في تهديم أسوار التحصينات ، التي أقامها خير الدين في حلق الوادي ، مما أدى إلى سقوطها ، فاحتلها الإسبان [3].

انسحب خير الدين إلى مدينة تونس بعد سقوط قلعة حلق الوادي ، بهدف الدفاع عنها ، والاحتماء بها. وفي 17 من شهر جويلية تحرك الإمبراطور شارلكان بقواته إلى مدينة تونس ، وكان في طريقه يقطع أشجار الزيتون ، ويحرق القرى التي صادفها [4].

وعندما وصل الإمبراطور شارلكان إلى مدينة تونس دار بينه ، وبين خير الدين قتال عظيم ، يذكر ذلك صاحب كتاب المؤنس ، بقوله : ((والتقى الجمعان بخربة الكلخ شرقي تونس ، وخير الدين معهم ، وانتشب القتال بينهم ، وكانت مقتلة عظيمة)) [5]. وبينما كان خير الدين ، وجنوده منشغلين بقتال النصارى ، والدفاع عن المدينة ، تمكن الأسرى المسيحيون الموجودين داخل قصبة المدينة ، من تحرير أنفسهم ؛ وكان عددهم إثني عشر ألف أسير ، وهاجموا القوات الإسلامية من الخلف ، فضعف موقف خير الدين ، فاضطر إلى الخروج من تونس، والتوجه إلى مدينة عنابة ، التي كان قد ترك بها قوات احتياطية ؛ قدرت بخمسة عشر سفينة [6].

---

(1) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 13 .

(2) مجهول: المصدر السابق ، ص 96 .

(3) DE la Primaudie : op.cit , p 357 .

(4) جون وولف : المرجع السابق ، ص 48 .

(5) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 154 .

(6) مجهول : المصدر السابق ، ص 98 .

حاول الإمبراطور شارلكان ملاحقة خير الدين ، والقضاء عليه في عنابة ، فقد أرسل أسطولا مكونا من ثلاثين سفينة ، بقيادة أندري دوريا عليها ألفي رجل ، لكن ما إن اقتربوا من ميناء مدينة عنابة (بلاد العناب) ؛ حتى واجههم خير الدين بطلقات المدافع ، فاضطروا إلى التراجع ، وبعد ذلك توجه خير الدين إلى مدينة الجزائر ، حيث استقبله أهلها بالترحاب [1].

2- احتلال شارلكان مدينة تونس ونهبها :

دخل جيش الإمبراطور شارلكان مدينة تونس في يوم21 جويلية 1535م ، وصرح شارلكان لجنوده بنهب المدينة ، فقتلوا ،ونهبوا ، وفسقوا ،وارتكبوا كل أنواع المحرمات ، وهدموا المساجد ، وحرقوا ، ومزقوا أغلب الكتب النفيسة [2]. لقد كانت الخسائر كبيرة في وسط التونسيين ، فقد قتل الجنود الإسبان الأهالي دون تمييز في الجنس ، أو في العمر ، وأسروا ، وسبوا . فقد ذكرت بعض المصادر : ((وهذه الواقعة هي المعبر عنها ؛ بمخطرة الأربعاء ، وكان السلطان الحسن أباح البلاد للنصارى ثلاثة أيام ... وقيل في هذه الواقعة ، أسر الثلث ، ومات الثلث ، وهرب الثلث ، قيل عدد كل ثلث ستون ألفا .وكانت هذه الواقعة سنة إحدى وأربعين وتسعمائة)) [3] .

لقد كانت عمليات العنف والقتل ، التي قام بها الجنود بدافع الحقد الصليبي ؛ فقد اشترط الملك الإسباني شارلكان على السلطان الحفصي مولاي الحسن ؛ استباحة المدينة لجنوده ، وكان ذلك على حين غفلة منهم ، فقد أورد لنا ابن أبي الضياف ما حدث حين دخل الجنود الإسبان مدينة تونس ، ومما ذكره : ((وذلك أن الصبنيول اشترط على هذا السلطان الحسن ؛ استباحة البلاد ثلاثة أيام ، والتزم بذلك ، ولا علم لأحد من أهلها ، فبينما الناس في سكون ، وعافية ، واغترار بطلب ذلك الأمان ، وأسواقهم مفتوحة ، فهجم عليهم عسكر الصبنيول على حين غفلة ، وامتدت أيديهم لاغتيال النفوس ، ونهب الأموال ، وفر إلى جبل زغوان من أمكنته الفرصة بنفسه ، وأهله ، يقال : في هذه الواقعة مات الثلث من أهل تونس ، ونجا الثلث ، وأسر الثلث ، وتغيرت البلاد ، وطمست أعلامها)) [4].

وما يؤكد ذلك الحقد الصليبي للإسبان ، وتعمد الإمبراطور شارلكان وجنوده ، القيام يتلك المجازر والفظائع ، تلك الرسالة المؤرخة في يوم 23 جويلية 1535م ، التي بعث بها الملك الإسباني

---

[1] مجهول : المصدر السابق ، ص 98 .

[2] محمد فريد بك : المرجع السابق ، ص 233 .

[3] ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 155 .

[4] ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 14 .

شارلكان إلى حاكم بجاية ، والتي تؤكد مسؤولية شارلكان على تلك الأعمال ، ومما جاء فيها : ((بما أن سكان مدينة تونس ، لم يقابلوا ملكهم كما يجب أن يكون ، وكما هو واجبهم ، فقد إرتأينا معاقبتهم لعنادهم ؛ والسماح بنهب المدينة)) [1]. في حين تذهب بعض المصادر إلى أن عدد التونسيين ، الذين قتلوا على يد الإسبان خلال الثلاثة أيام ؛ كان أكثر من سبعين ألف من كل الأجناس والأعمار [2]. وأن كل مدخرات تونس ، وخيراتها ، ونفائسها ، وأسواقها ، قد ذهبت ضحية النهب ، والسلب ، ولا يوجد في تاريخ المسلمين أشد فظاعة من تلك المذبحة [3].

لقد عاث الجنود الإسبان في المدينة سلبا ، ونهبا ، وتقتيلا ، كما نهبوا جامع الزيتونة ، وبددوا ما كان به من نفائس ، ومحفوظات . ونصب الإمبراطور شارلكان الحسن الحفصي ، وأعاده إلى كرسي الحكم ، وأمضى الطرفان معاهدة في 6 صفر 942هـ/ 26 جويلية 1535م [4]. في حين تذهب مصادر أخرى إلى أن تاريخ المعاهدة كان في يوم 8 أوت سنة 1535م [5] ، بينما ترجح المصادر الأوربية تاريخ 6 أوت من سنة 1535م [6]، وهو الأرجح .

3- معاهدة الاستسلام بين الحسن الحفصي وشارلكان وفرض الحماية [7]:

ومن بين المظاهر الهامة للعلاقات بين الطرفين تلك المعاهدة ، التي فرض فيها شارلكان الحماية الإسبانية على تونس ، والتي عرفت بمعاهدة الاستسلام بين السلطان الحسن الحفصي ، و الإمبراطور الإسباني شارلكان ؛ في يوم السادس من أوت سنة 1535م ، والتي أقرت تبعية تونس للإمبراطور شارلكان ، كما أقر ذلك السلطان الحفصي مولاي الحسن في خطابه ، الذي كان قد وجهه للإمبراطور الإسباني فيما قبل . وقد تضمنت المعاهدة شروطا قاسية ضد التونسيين ، وضد السلطان الحسن ، الذي قبل بها ؛ ومما جاء فيها :

-أن يلتزم ملك تونس بدفع تعويضات الحملة .

-إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الموجودين بتونس .

- أن يدفع مولاي الحسن الحفصي للإمبراطور شارلكان ضريبة سنوية ؛ قدرت بألف دوكة ذهبية

---

(1) DE la Primaudie : op.cit , p 496 .

(2) Alphonse Rousseau , op.cit , p 20 .

(3) توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 233 .

(4) شوقي عطا الله الجمل : المرجع السابق ، ص 86 .

(5) سامح التر : المرجع السابق ، ص 119 .

(6) Alphonse Rousseau : op.cit , p 20 .

(7) للإطلاع على بنود المعاهدة أنظر إلى . Alphonse Rousseau : ibid , p p 408 - 414

–أن يتنازل مولاي الحسن الحفصي لشرلكان عن الموانئ التونسية وهي : حلق الوادي ، عنابة ، والمهدية ، ليقيموا بها حاميات إسبانية .

–أن يلتزم الملك الحسن الحفصي بعدم السماح لسفن البحارة ، أو القراصنة المسلمين بالرسو في الموانئ التونسية ، وأن لا يستقبل في بلاده المهاجرين الأندلسيين .

–أن يسمح السلطان الحفصي للإسبان بتجارة المرجان في تونس .

–يسمح السلطان الحفصي مولاي الحسن لجميع المسيحيين بالاستيطان في إقليم تونس ، وإقامة شعائر دينهم بكل حرية .

–أن يقدم السلطان الحفصي إثني عشر حصانا عربيا سنويا للملك الإسباني ، وقدرها من المهارة العربية ، قبل يوم من عيد القديس جاك .

–في المقابل يتعهد الإمبراطور شارلكان بحماية التونسيين .

وبعد أن تم إبرام المعاهدة بين الطرفين ، اشترط شارلكان على السلطان الحسن الحفصي ؛ أنه لو خالف أحد شروط المعاهدة المبرمة ، يدفع أول مرة خمسين ألف دوكا ذهبية ، وفي المرة الثانية مائة ألف ، وفي المرة الثالثة يسقط حق مولاي الحسن في الملك بتونس [1].

عاد شارلكان إلى صقلية متجها منها إلى إسبانيا في 17 أوت سنة 1535م ، تاركا في حلق الوادي حامية عسكرية ؛قدرت بألف جندي إسباني بقيادة برنار مندوزا ،وعشرة مراكب حربية ، تحت قيادة خوان دوريا ابن أخ دوريا [2]. وحاول شارلكان بعد ذلك أن يجعل المدن الأخرى في إقليم تونس ، خاضعة لتابعه الجديد مولاي الحسن ، ومما لاشك فيه أن وضع الحاميات الإسبانية ، وحكم كل الإقليم التونسي لم يكن زهيد الثمن ، لكنه لم يكن من الحكمة في شيء ؛ أن يتعهد الإمبراطور شارلكان بانتصاراته إلى شخص ضعيف ، وغير مستقر مثل مولاي الحسن [3].

غير أن الاستيلاء على تونس ، قد عزز مكانة الملك الإسباني ؛ تعزيزا قويا في حوض البحر المتوسط ، فحلق الوادي الواقعة على الطريق الجنوبي من مضيق صقلية ، قد أكملت تقريبا مراقبته على مدخل غرب البحر المتوسط ؛ فمن خلال أتباع شارلكان في صقلية ، مالطة ، طرابلس ، وحلق الوادي ، يمكن له أن يصد فعلا أي اعتداء من الشرق [4].

---

[1] محمد فريد بك : المرجع السابق ، ص 233 .

[2] نفسه .

[3] جون وولف : المرجع السابق ، ص 50 .

[4] نفسه .

4- توطيد الحكم الحفصي في تونس بمساعدة الإسبان :

قام الإمبراطور شارلكان قبل مغادرته تونس ، وتطبيقا للمعاهدة المبرمة مع السلطان الحفصي ؛ بالاستيلاء على مدينة عنابة (بونة) ، التي تمكن منها في سنة 1535م ، لكنه فشل في الاستيلاء على المهدية (إفريقية) ، بسبب وجود العثمانيين فيها [1]. في حين ترجع المصادر الغربية سبب الفشل ؛ إلى عاصفة بحرية شتت سفن الأسطول الإسباني ، فاضطر الأسطول إلى التوجه إلى صقلية ، لكنه استطاع الاستيلاء على مدينتي بترزت ، وبونة قبل أن يتوجه نهائيا إلى إسبانيا [2] ، حيث ترك بها حامية إسبانية تحت قيادة القائد ماركو قوماز زاقال Marco Gomez Zagal [3]. حاول السلطان الحسن الحفصي فرض وجوده في تونس ، وإعادة توطيد سلطانه ضد شعبه ، لكنه لم يستطع ، لذلك لجأ إلى حلفائه الإسبان في حلق الوادي ، بعد أن ثارت في وجهه القيروان بقيادة الشابيين ، الذين هزموه ، وقرر استباحة القيروان مثل تونس ، لكنه فشل [4].

وفي سنة 1540م استولى أندري دوريا على كل من مدن : قليبية ، سوسة ، صفاقس ، والمنستير ، ووضعت فيها حاميات إسبانية [5]. ما أن الجنوب التونسي بقي خارجا عن سلطة مولاي الحسن الحفصي ، فقد تخلت عنه جيوشه عندما قام بحملة على القيروان [6] .

وفي سنة 1542م استغل الأمير أحمد (حميدة) ؛ وهو أبو العباس أحمد الحفصي ، الذي كان عاملا في عنابة ، فرصة غياب والده الحسن الحفصي ، الذي توجه إلى أوربا لطلب النجدة من الإسبان ، فثار عليه ، وخلعه بعد استشارة أعيان دولته في ذلك ، فلما سمع مولاي الحسن بأمر إبنه ، جاء بالإسبان الذين كانوا في قلعة حلق الوادي ، ووقعت معركة كبيرة بين الطرفين ، في نفس المكان الذي التقى فيه مولاي الحسن ، وخير الدين ؛ أي في خربة الكلخ شرقي مدينة تونس [7] . هزم مولاي الحسن وجيشه ، وجيش الإسبان المتحالف معه ، والتفّ سكان تونس حول أبي العباس ، لأنهم تخوفوا من أن يحدث لهم ما حدث على يد الإسبان في الحملة السابقة لشرلكان .

---

(1) علي محمد الصلابي : المرجع السابق ، ص 204 .

(2) مارمول : المصدر السابق ، ج3 ، ص 56 .

(3) Alphose Rousseau : op.cit , p 21 .

(4) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 156 .

(5) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ، ص 346 .

(6) نفسه .

(7) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 156 ، 157 .

وبذل السلطان أبو العباس أحمد الحفصي أموالا كثيرة ، من أجل تشجيع الناس على قتال أبيه ، والإسبان المتحالفين معه[1].

انهزم مولاي الحسن ، وألقي عليه القبض ، وأمر السلطان أحمد الحفصي بعد استشارة الأعيان بسمل عيني والده ، وأطلق سراحه بعد ذلك ، أما الإسبان فبقوا متحصنين بقلعة حلق الوادي [2].
ورغم القضاء على الحسن الحفصي إلا أن التهديد الإسباني ظل مستمرا يهدد التونسيين .

5- الاحتلال الإسباني لمدينة المهدية في سنة 958هـ/1551م ونهبها :

كانت المهدية (المعروفة باسم أفريقية) مدينة محصنة ، وكان مرساها نسبيا أكثر أمنا ، ولكن أعيانها لا يريدون أي شيء من البحارة، غير أن البحار العثماني درغوث رايس نجح في رشوة رجلفساعده على إدخال ملاحين شرقيين من السفن إلى المدينة [3].
إن تحصينات المدينة كانت ضعيفة ، ولكن عندما أصبح وراءها رجال ذوو عزم متين ، أصبحت المهدية مركزا معتبرا ، ومنها انتشر البحارة في وسط البحر المتوسط ، وكانت النتيجة نكبة على الإسبان ، لذلك احتجت الحكومة الإسبانية لدى السلطان العثماني [4].

لقد كانت مدينة المهدية قريبة جدا من حلق الوادي ، وصقلية ، وكان موقعها أكثر خطورة على الإسبان ؛ خاصة وأنها تتوسط الدولة التونسية التابعة لإسبانيا [5]. وقد حدث في هذه الفترة تعاون بين السلطان أحمد الحفصي ، ودرغوث رايس ضد الشابيين من جهة ، وضد الحاميات الإسبانية المتواجدة في الموانئ التونسية من جهة أخرى ، وبدأ النفوذ العثماني يصل إلى المناطق التونسية ، ويهدد الموانئ الإسبانية ، والإيطالية ؛ خاصة في ميناء المهدية ، لذلك قرر الإمبراطور الإسباني شارلكان استرجاع المدينة ، والقضاء على النفوذ العثماني فيها [6].

فقام أندري دوريا بحملة بحرية ضد مدينة المهدية ، بقيادة نائب الملك بصقلية الدون جوان دي فيجا Don Juan de Vega في 10 سبتمبر 1551م ، لكن درغوث رايس علم بخبر الحملة ، فترك المدينة ، لكنه ترك بها حامية تركية إلى جانب الأهالي ، الذين استفحلوا في الدفاع عن

---

(1) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 156 ، 157 .
(2) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 17 .
(3) جون وولف : المرجع السابق ، ص 66 .
(4) نفسه .
(5) نفسه .
(6) عبد الجليل التميمي : الولايات العربية ومصادر وثائقها ، المرجع السابق ، ص 76 .

مدينتهم ؛ فقد قتل الإسبان ألف ومائتي مسلم خلال حصار المدينة ، وأسروا تسعة آلاف . وبعد احتلال مدينة المهدية ترك الدون جوان نائب الملك ؛ أخيه الدون ألفار Don Alvar حاكما على المدينة ، ومعه ألف وخمسمائة رجل [1].

لكن بسبب عدم تحمل العبء الكبير في نفقات تحصينات المدينة ، والحامية الموجودة بها ، أمرالملك الإسباني شارلكان في سنة 1553م ، أحد قادته وهو دون فرناند دي أكينا Don Fernand d'Acuna ؛ بتدمير المدينة ومختلف تحصيناتها ، وأخذ الحامية إلى إسبانيا [2]. لقد أوردت بعض المصادر الإسلامية عمليات التدمير ، التي ألحقها الإسبان بالمهدية ، وأهلها ، ومنها ما ذكره ابن أبي الضياف : ((وعلى ضعف الدولة الحفصية غزا أهل نابلي ، وجنوة المهدية ، وأخذوا ما فيها ، وتفرق أهلها ، وهدموا سورها ، ثم أقلعوا عن المدينة ، وتراجع إليها بعض أهلها ، وكان ذلك في سنة 957 هـ / 1550 م)) [3]. وقد اعتذر الإسبان على هجومهم على المهدية ، وتخريبها على أساس أنهم فعلوه كحلفاء لسلطان تونس ، ومساعدين له ، وتخليصا لبلاده من قراصنة غير مرغوب فيهم ، استولوا على أحد مراسيه [4]. في حين أن مصادر إسلامية ذكرت أن السلطان الحفصي ؛ كان في صراع دائم مع الإسبان ، بسبب تهديدهم لأهالي تونس باستمرار : ((والسلطان أحمد في خلال هذه المدة مستمر القتال مع الصبنيول المتغلبين على حلق الوادي ، ولاقى منهم أهل تونس الشدائد ، فكانوا يرسلون شوانيهم إلى البحيرة ترمي البلاد بالمدافع)) [5].

لقد واصل الإسبان تهديدهم للسواحل التونسية ، لكن استقرار العثمانيين في طرابلس الغرب ؛ بعد تحريرها من سيطرة فرسان القديس يوحنا حلفاء الإسبان في سنة 1551م ، وتولي درغوث رايس على حكمها مكنه من تحرير الموانئ التونسية الجنوبية : ققصة سنة 1553م ، والقيروان سنة 1557م من يد الشابية [6]. وأصبح بذلك يهدد النفوذ الإسباني في تونس ، وقد ظل فيليب الثاني ملك إسبانيا مركزا اهتمامه دائما على حلق الوادي ، غير أن إسبانيا منيت بهزيمة نكراء في سنة 1557م ، فتعذر عليها تحقيق حلمها في التوسع ، لذلك شكل ملك إسبانيا تحالفا أوربيا مسيحيا

---

(1) Alphonse Rousseau : op.cit , p 24 .

(2) Ibid , p 25 .

(3) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 18 .

(4) جون وولف : المرجع السابق ، ص 67 .

(5) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 18 .

(6) محمد الهادي الشريف : المرجع السابق ، ص 66 .

ضد جزيرة جربة في سنة 1560م ، من أجل القضاء على الوجود العثماني فيها ، وتوطيد النفوذ الإسباني في تونس ، لكن الحملة منيت بهزيمة كبيرة [1].

ومما سبق يمكن القول أن تلك المرحلة من العلاقات بين تونس ، وإسبانيا تميّزت بالتبعية المباشرة ، خاصة بعد أن فرض شارلكان معاهدة الحماية على الحفصيين ، الذين كانوا غير قادرين على حماية أنفسهم ، أو بلدهم. وذلك بسبب التنافس بين الإسبان ، والعثمانيين للسيطرة على تونس . فبماذا تميزت العلاقات بين الطرفين في المرحلة اللاحقة ؛ أي مابعد سنة 1574م ؟.

---

[1] شارل أندري جوليان : المرجع السابق ، ص 347 ، 348 .

المبحث الثالث :

العلاقات بين تونس وإسبانيا من 1574م إلى 1610م :

أما عن العلاقات بين تونس ، وإسبانيا في تلك المرحلة فيمكن أن القول أنها تميزت بالصراع المتواصل بين الإسبان ، والعثمانيين للسيطرة على تونس . مع استمرار تحالف الحفصيين معالإسبان من أجل المحافظة على سلطتهم . فقد شهدت هذه المرحلة عدة حملات من الطرفين على تونس . ويمكن أن نلخص هذه المرحلة في العناصر :

1- حملة الجزائر لتحرير تونس ، واستنجاد الحفصيين بالإسبان سنة 1569م :

عند قيام العثمانيين بحملة بحرية ضد فرسان مالطة في سنة 1565م ، كان علج علي ودرغوث رايس من القادة المعارضين لتلك الحملة ، لأنهم كانوا يفضلون تحرير المواقع المغربية ، التي يحتلها الإسبان مثل : حجر باديس ، وهران ، وحلق الوادي بتونس ، لذلك فإنه بمجرد تولي علج علي باشا الحكم في طرابلس في سنة 1565م ، ستتغير العلاقات بين طرابلس ، والسلطان أحمد الحفصي ، فقد كان هذا الأخير متخوفا من سياسة علج علي حاكم طرابلس ((وكانت بين السلطان أحمد وعلي باشا ضغائن في النفوس ، من وقت استخدامه بمدينة طرابلس)) (1).

ورغم أن السلطان الحفصي أوفد وزيره الأكبر أبا الطيب تاج الخضار ، إلى علج علي بيلرباي الجزائر ، فتذكر المصادر أن الوزير إرتبط معه بعلاقات تعاون ، وتفاهم ؛ وربما كان يطلعه على طبيعة العلاقات القائمة بين أحمد الحفصي ، والحامية الإسبانية الموجودة بحلق الوادي ، والتي كانت تهدد أمن سكان تونس (2).

وعندما تولى علج علي الحكم في الجزائر في سنة 1568م ، راسله أعيان تونس ، وطالبوا منه إنقاذ بلادهم ، وهم : قائد الفرسان بن جيبارة ، والقائد أبو الطيب ، والقائد الخضر ، ووعدوه بتسليم الحكم في مدينة تونس (3). أما بعض المصادر الإسلامية فتذكر ، أن من بين الذين راسلوا علج علي حاكم الجزائر ، وطالبوا منه غزو تونس ، واحتلالها كان الوزير الأول للسلطان أحمد الحفصي أبي الطيب الخضار ، لأنه أحس بالخديعة من سلطانه (4).

---

(1) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 163 .

(2) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 93 .

(3) Haédo : op.cit , p 141 .

(4) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 18 .

فقرر علج علي حاكم الجزائر مع بداية سنة 1569م مهاجمة تونس ، لإشغال الإسبان عن ثورة المورسكيين من جهة ، ومن جهة أخرى لتخليص أهلها من الاحتلال الإسباني [1]. وترى بعض المصادر الغربية ؛ أنه وقع اتصال بين عدد كبير من التونسيين ، وبين علج علي بيلرباي الجزائر ، عبروا له عن نيتهم في التخلص من سلطانهم المستبد ، والمتعاون مع الإسبان ، وطلبوا منه المساعدة للقضاء عليه . وقد أعطت ثورة المورسكيين في إسبانيا ؛ فرصة ذهبية لسلطة الجزائر ، لبسط نفوذها على تونس ، لأن الثورة شلّت حركة الجيش الإسباني [2] .

كما تذكر المصادر أن علج علي باشا ، علم أن الملك الإسباني فيليب الثاني كلف أخاه غير الشرعي دون جوان النمساوي ؛ بتهيئة الأسطول الإسباني في محاولة منه للتخطيط للقيام بهجومات مسلحة في شرق البحر المتوسط ، والعمل على تعزيز المراكز الإسبانية في شمال أفريقيا ، وهذا ما جعله يعمل على قطع الطريق على الإسبان [3].

غادر علج علي الجزائر في شهر أكتوبر سنة 1569م ؛ متوجها إلى تونس برا ، وترك مكانه في حكم الجزائر ؛ العلج السرديني مامي قورصو ، وكان معه قوة تتألف من خمسة آلاف رجل [4] ، ((وخرج بمحلة عظيمة)) [5] ، وفي طريقه إلى تونس مرّ بعنابة ، وقسنطينة ، فانضمت إليه قوات أخرى من المتطوعين من قبائل عمراوة ، وقرفة ، وسويد قدرت بنحو سبعة آلاف رجل[6]، كما أخذ معه أسلحة قدرت بعشرة مدافع [7] ، حيث وصل إلى تونس بعد يومين [8].

وعندما علم السلطان أحمد الحفصي بقدوم قوات علج علي لمهاجمة تونس ، خرج إليهم في قواته البالغ عددها ثلاثون ألف رجل ، والتقى الجيشان في منطقة باجة [9] ، غير أن عددا كبيرا من قوات الجيش الحفصي ، وقادته التحقوا بصفوف القوات الجزائرية [10] ، فهزم السلطان أحمد الحفصي ، وأرغم على الفرار إلى مدينة تونس ، ولحقه علج علي بجيشه ، والتقى الجيشان للمرة

---

(1) توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 397 .

(2) جون وولف : المرجع السابق ، ص 85 .

(3) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 94 .

(4) Haédo : op.cit , p 141 .

(5) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 163 .

(6) نفسه .

(7) Haédo :op.cit , p 141.

(8) Ibid .

(9) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 163 .

(10) DE Grammont : op.cit , p 107 .

الثانية قرب منطقة سيدي علي الحطاب ، فهزم السلطان الحفصي مرة أخرى ، واضطر إلى الفرار إلى تونس [1]. وبعدما تيقن السلطان بفقد ملكه ؛ فر في أحد الليالي وتوجه إلى الحامية الإسبانية الموجودة بحلق الوادي ، وكان معه أزواجه ، وأبناؤه ، وبعض أتباعه ، الذين كانوا يحملون ثرواته ، وأمواله ، لكنه تعرض للنهب في الطريق من طرف الأعراب [2].

فتحت مدينة تونس أبوابها لعلج علي باشا ، ودخلها دون صعوبة في 977سنة هـ / 1569م ، وأعلن أهل المدينة ، والمناطق المجاورة لها الولاء له ، وأخذ البيعة للسلطان العثماني سليم الثاني ، وأتبعت تونس الخلافة العثمانية ، وقد عامل علج علي سكان تونس باللين ، وأعاد لهم الأمان ، ونظم أمور الإيالة ، و لما توجه علج علي عائدا إلى الجزائر ، ترك على رأس الإيالة التونسية القائد رمضان باشا حاكما عليها ، وترك معه حامية عثمانية قدرت بثلاثة آلاف جندي ، لتهدئة أوضاع البلاد ، وضمان استقرارها [3].

ورغم تخليص تونس من النفوذ الإسباني ، وتبعية السلطان أحمد الحفصي ، إلا أن التهديد الإسباني استمر من ؛ خلال التواجد الإسباني في حلق الوادي . وقد أجّل علج علي تحريرها ، بسبب الظروف التي كانت تمر بها الخلافة العثمانية ، التي كانت في حاجة إلى دعم الأسطول الجزائري ؛ من أجل محاصرة قبرص ، وانشغالها فيما بعد بمعركة ليبانت [4].

2- حملة دون جوان الإسبانية على تونس سنة 981هـ/1573م :

شرع الملك الإسباني فيليب الثاني في إعداد حملة كبيرة ، أوكل قيادتها إلى أخيه دون جوان دو تريش [5]، وبعد أن لجأ السلطان أحمد الحفصي إلى الإسبان ، اشترط عليه الملك فيليب الثاني إعادته للحكم ؛ مقابل اقتسام عرش تونس ، لكنه رفض ، ولجأ إلى صقلية سنة 980هـ/ 1572م وخلع نفسه ، وبقي فيها إلى أن توفي . أما أخوه محمد بن الحسن فقبل بعرض الإسبان [6].

---

[1] ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 18 .

[2] نفسه ، ص 19 .

[3] عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، 95 .

[4] محمد فريد بك : المرجع السابق ، ص ص 255-257 .

[5] ولد هذا الأمير من إحدى عشيقات شارلكان سفاحا ، بمدينة راتسيون سنة 1545م ، وبعد موت أبيه أراد أخاه فليب الثاني ، إدخاله ضمن إحدى المدارس الدينية ، لكنه رفض . فعينه قائدا للجيش ، وفي سنة 1570م كلفه بالقضاء على ثورة الموريسكيين بغرناطة ، شارك في معركة ليبانت . توفي سنة 1578م . أنظر إلى : وديع أبو زيدون : تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط ، ط1 ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن 2003 ، ص 144 .

[6] شوقي عطا الله الجمل : المرجع السابق ، ص 108 .

خرج دون جوان النمساوي في 07 أكتوبر ليقود حملة بحرية لاحتلال تونس ، تشبه الحملة التي قادها أبوه عليها سنة 1535م ؛ كانت الحملة ضخمة تتكون من حوالي 138 سفينة ، وبارجة حربية ، وعدد من سفن النقل ، والغليوطات ، وغيرها التابعة للخواص ، وكان الجيش المسيحي يتألف من 13ألف جندي إيطالي ، و09 آلاف جندي إسباني ، و05آلاف جندي ألماني، وخمسمائة فارس ؛ أي مجموع قوات الحملة سبعة وعشرون ألف جندي ، وخمسمائة فارس [1].

وصلت الحملة الإسبانية إلى حلق الوادي ، ثم توجهت إلى مدينة تونس بقيادة سنتا كروز Santa Cruz ، حيث هاجمها واستولى عليها دون مقاومة ؛ إذ لم يكن بمقدور الحامية العثمانية الموجودة بها ؛ والبالغ عددها ألفي جندي بقيادة رمضان باشا ، الوقوف في وجه القوات الإسبانية، التي تجاوزت 27 ألف ، فاضطر الأتراك إلى التوجه إلى الحمامات ، التي أغلق أهلها أبوابها دونهم[2]. وبعد ذلك توجهوا إلى مدينة القيروان ، التي كان على رأسها حيدر باشا ، وفي طريقهم لاحقتهم القوات الإسبانية ، ودار بينهم قتال كبير ؛ تمكنت فيه القوات الإسلامية من الانتصار. أما الإسبان فصبوا غضبهم على الأهالي ؛ حيث توجهوا إلى مدينة الحمامات ، واستولوا عليها ، وقتلوا الرجال ، والنساء ، والأطفال ، ونهبوا المدينة [4]. أما رمضان باشا ، وقواته فقد استقبلوا بالقيروان من طرف الشابية ، والأهالي بحفاوة [5].

وصلت القوات الإسبانية إلى مدينة تونس في 11 أكتوبر سنة 1573م ، بعدما هجرها أهلها ، وغادرتها الحامية العثمانية المتواضعة . وتصف بعض المصادر الإسلامية تخوف سكانها من الإسبان ((فلما علم أهل تونس بمجيئه ، هربوا من البلد خيفة من هول الأربعاء ، وهربوا إلى ناحية جبل الرصاص ، واختفوا هناك في الدواميس ؛ وهذه الواقعة يعبر عنها بمخطرة الدواميس)) [6].

دخل الجنود الإسبان المدينة ، وكانت تؤرقهم أساطير الكنوز ، التي خبأها السكان ، فانطلقوا يطوفون شوارع المدينة ،وظلوا لأيام عدة ينبشون المنازل، ويدقون الجدران، ويحفرون في المساحات والسطوح ، ويقشرون جوانب الأسوار ؛ حتى لم يبق بيت واحد سليما في المدينة كلها [7].

---

(1) صالح عباد : المرجع السابق ، ص 95 .

(2) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ص 22 .

(4) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 167 .

(5) Ernest Mercier : op.cit , p 115 .

(6) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 167 .

(7) محمود السيد الدغيم : المرجع السابق ، ص 413 .

وعند بوابة باب البحر تجمع الجنود على صفين ، ووقفوا على طول ربع ميل يعرضون المسروقات للبيع ، وأخذ البحارة ، والمتسوقون يتباعون بأرخص الأثمان بضائع الترف النادرة ، وسجاجيد القيروان ، والأقمشة الفاخرة ، وحمل الضباط معهم أعمدة بكاملها من الرخام ، والحجر الأرجواني ، الذي كانت تزدان بها زوايا المنازل التونسية ؛ حتى أن دون جوان لم يتمالك نفسه ؛ فأمر بانتزاع أحد أعمدة المسجد الكبير ، وأرسله إلى إيطاليا [1].

أما دون جوان فقد نصّب محمد الحفصي ملكا على تونس ، بعد أن خلع أخوه أحمد الحفصي نفسه ؛ بسبب الشروط الإسبانية القاسية التي فرضت عليه ، ولم يكن محمد الحفصي يتمتع بكامل الصلاحيات في السلطة ؛ حيث كان يشاركه حاكم إسباني ؛ يدعى غابريال سيربيلوني Gabriel Serbelloni [2]. وتؤكد ذلك المصادر الإسلامية ، ((ومحمد الحفصي تحت يد قهر قائد الصبنيول)) [3]. كما قام دون جوان بتحصين قلعة حلق الوادي ، وأنشأ قلعة الباستيون ؛ وهي مدينة بناها وعمرها ، وأسكن فيها الإسبان ، وأقيمت فيها المنشآت ، والدور المسيحية ؛ وهي تقع خارج باب البحر من مدينة تونس [4].

أطلق دون جوان على المدينة ، التي بناها اسم شكلي ، وهي على النسق الأوربي ، تقع بين حلق الوادي ومدينة تونس ، وهي على شكل قلعة محصنة ؛ تحتوي على أحياء متميزة للإيطاليين ، والإسبان ، وبناءات من الخشب ، وآبار للمياه ، ومخازن للمؤونة ، ومطاحن للقمح ، ومخازن للأسلحة ، ومعامل للحدادين ، ومستشفى ، وصيدلية ، وكنيسة ، وتبعد بحوالي 150 إلى 200 متر عن مدينة تونس ، وكان دون جوان يرى أن بناء القلعة ، سيشدد المراقبة على تونس [5]. فقدكان يطمح إلى إنشاء مملكة له بتونس ، وقد لقي تشجيعا من الكنيسة البابوية في روما [6].

بينما تذهب مصادر أخرى إلى أن الإسبان كانوا مترددين حول مستقبل تونس ، ومصيرها خاصة بعد الاستيلاء عليها، لكنه دار حديث حول جعل دون جوان ملكا عليها ، لكن هذا كان مجرد فكرة أكثر منه منهاج عمل [7].

---

(1) محمود السيد الدغيم : المرجع السابق ، ص 413 .

(2) Ernest Mercier : op.cit , p 116 .

(3) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 22 .

(4) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 166 .

(5) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 103 ، 104 .

(6) سامح التر : المرجع السابق ، ص 244 .

(7) جون وولف : المرجع السابق ، ص 92 .

لم يرض الملك الإسباني فيليب الثاني عن تصرفات أخيه دون جوان ، فقد كان يرى ضرورة تحطيم قلعة حلق الوادي ،ومختلف التحصينات الإسبانية الساحلية ؛بسبب ارتفاع تكاليف نفقاتها ، وقلة فائدتها [1]. ولأن دون جوان خالف أوامر أخيه الملك ؛ فبدلا من تهديم قلعة حلق الوادي ، أعاد تحصينها ووضعها تحت قيادة بيدرو دي بورتو كاريرو Pedro de Porto Carrero ، كما أقام قلعة جديدة وضعها تحت قيادة سيربلوني Serbelloni [2] .

ولما علم الملك فيليب الثاني غضب كثيرا ، وأمر أخاه دون جوان بالعودة فورا ، فالتحق دون جوان بصقلية ، ونزل بمدينة باليرمو في شهر نوفمبر سنة 1573م ، بعدما ترك بتونس حامية إسبانية من ثمانية آلاف شخص ؛ منهم أربعة آلاف إيطاليين ، وأربعة آلاف إسبان ، وترك حكم تونس لقيادة مشتركة بين سيربلوني ، والملك الحفصي محمد بن الحسن التابع للإسبان [3].

3- الفتح العثماني لتونس وإنهاء الاحتلال الإسباني في سنة 982هـ/1574م :

لم يلبث إلا ثمانية أشهر على استيلاء دون جوان على تونس ، وتم استرجاعها ثانية إلى الدولة العثمانية [4]. فبعد سقوط تونس في يد الإسبان ، بعد حملة دون جوان النمساوي ، بدأت التحركات ، والاستعدادات الإسلامية ؛ فقد أرسل السلطان سليم الثاني ؛ سلسلة من المراسلات لقادته في مختلف الولايات العثمانية في شمال أفريقيا ، من أجل الاستعداد لتحرير تونس [5]. كما أحاط السلطان حيدر باشا حاكم القيروان ؛ علما بهذا القرار في رسالة وجهها له [6].

وحسب المصادر الأوروبية فإن الأسطول العثماني ؛ كان يتألف من 250 سفينة حربية من نوع غالير Galères ، و40 سفينة لنقل الجنود ، والأسلحة والذخيرة [7]. وقبل وصوله إلى تونس انضمت إليه قوات من القيروان ، وطرابلس ، والجزائر ؛ فقد وصل مصطفى باشا حاكم طرابلس على رأس 4000 رجل ، وشيوخ جربة ،والقيروان على رأس قوات تتألف من 6000 فارس ، كما وصلت قوات من عنابة ، وقسنطينة ؛ قوامها ألفي رجل ، وعدد من رجال قبائل المنطقة [8].

---

(1) DE la Primaudie : Documents …in , R. A , Alger 1877 , T21, p 295 .
(2) ibid .
(3) Ernest Mercier : op.cit , p 115 .
(4) محمد فريد بك : المرجع السابق ، ص 258 .
(5) سامح التر : المرجع السابق ، ص 246 .
(6) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 105 .
(7) Haédo : op.cit , p 149 .
(8) Ernest Mercier : op.cit , p 116 .

أما المصادر الإسلامية فتصف خروج الأسطول الإسلامي ، وتوجهه إلى تونس ((وبرز العسكر من القسطنطينية غرة ربيع الأول سنة 981 هـــ ؛ وكان يوم خروج العسكر يوما مشهودا ، وشحنت الأغربة بالرجال ، وعددها مائتان وثمان عشرة معونة ، وغيرها من السفن الكبار ، والصغار ؛ فالجملة ألف وخمسمائة قطعة))[1]. لقد خرج الأسطول العثماني من اسطنبول يوم 15 ماي 1574م ، تحت قيادة كيلج علي ، وسنان باشا ، ووصل إلى تونس يوم 13 جويلية ، وقام بإنزال الجنود ، والمدافع في خليج قرطاجنة قبالة حلق الوادي ؛ حيث كانت تنتظره قوات حيدر باشا قائد القيروان ، ومصطفى باشا حاكم طرابلس ، والتحق بهم بعد بضعة أيام أحمد عراب ؛ قادما من الجزائر عن طريق البر على رأس قوة معتبرة ؛ قدرت بسبع قطع بحرية [2].

بدأت المعارك بين القوات الإسلامية ، والإسبانية يوم 17 جويلية ، فقد كلف قائد الأسطول العثماني سنان باشا ؛ كل من مصطفى باشا ، وحيدر باشا بالهجوم على تونس ، بعدما أمدهم بألف من الرجال ، وعدد من المدافع ، وعززهم بقوات إبراهيم بك من صنجاق مصر ، ومحمود بك من صنجاق قبرص ، وباكير بك صاحب قرة حصار ، وكان مع هؤلاء ألفي جندي، وقد حاصروا مدينة تونس ،وهو ما أوردته المصادر الإسلامية : ((وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم ، وناوشوها بالقتال من كل جهاتها)) [3] .

حاولت الدفاعات الإسبانية ، التي كانت متواجدة خارج مدينة تونس ، مواجهة القوات الإسلامية لكنهم تمكنوا من دحرها ، فاضطر الإسبان ، ومعهم السلطان محمد بن الحسن إلى ترك المدينة ، وتوجهوا إلى الباستيون للتحصن به ، بينما تمكنت القوات الإسلامية من دخول مدينة تونس [4].

أما حلق الوادي فتولى الهجوم عليها ؛ كل من أحمد عراب أمير أمراء الجزائر سابق ، وكيعلي باشا ؛ لقد أبدى كل منهما شجاعة كبيرة في حصار القلعة . وبدأ القصف المدفعي من طرف الأسطول الإسلامي ضد قلعة حلق الوادي في يوم 21 جويلية ، وقد أدى ذلك إلى تهديم أجزاء كبيرة من أسوار القلعة ، وبعد حصار دام شهرا كاملا ، فتمكنت القوات الإسلامية بقيادة سنان باشا ؛ من فتح ثغرة في القلعة ، وشنت بعد ذلك هجوما كاسحا خلال ليلة 22 و23 أوت ، وفي

---

[1] ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 176 .

[2] صالح عباد : المرجع السابق ، ص 96 .

[3] ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 176 .

[4] ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 24 .

صبيحة يوم 23 أوت سقطت القلعة في يد المسلمين ، وتم قتل معظم من كان فيها من الجنود الإسبان ، و لم ينج منهم سوى 300 جندي ، كان من بينهم كاريرو ، وقعوا في الأسر [1].

وبعد الاستيلاء على حلق الوادي توجه ، سنان باشا إلى بقواته إلى حصن الباستيون ، وهناك إلتقوا مع قوات رمضان باشا حاكم الجزائر ، الذي كان قد وصل إلى تونس 10 أوت على رأس ثلاثة آلاف رجل ، بالإضافة إلى عدد آخر من رجال القبائل ، الذين انضموا إليه أثناء الطريق ، وبذلك اشتد عزم المسلمين ، فشددوا الحصار على الباستيون [2]. وفي يوم الاثنين 13 سبتمبر 1574م شن المسلمون هجوما مكثفا على حصن الباستيون ، فتمكنوا من الاستيلاء عليه ، وقضوا على الكثير ممن كانوا فيه من الإسبان ، أو من العرب المتمردين ، وغنموا كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات ، والأموال ، وألقي القبض على سيربلوني Serbillon [3].كما ألقي القبض على السلطان محمد الحفصي ، وأرسل الإثنان إلى اسطنبول [4].

وبسقوط الباستيون سقطت الدولة الحفصية ، وأنهيت الهيمنة الإسبانية على تونس ، و أصبحت تونس إيالة عثمانية ، وعين سنان باشا على رأسها حيدر باشا حاكما ، وكلفه بوضع نظام عثماني مشابه للنظام السائد في الجزائر [5]. وقبل مغادرته تونس أمر سنا باشا ؛ بتهديم قلعة حلق الوادي ، وحصن الباستيون ، حتى لا يتمكن الإسبان من تهديد تونس ، ولا شمال أفريقيا مرة أخرى [6].

4- المشروع الإسباني في تونس ما بعد سنة 1574م :

كان لسقوط تونس في يد العثمانيين دوي هائل في أوربا ، وتوقع الجميع رد فعل إسباني قوي، ولكن فيليب الثاني خيب ظن الجميع ؛ ويعود ذلك إلى شخصية الملك فليب ، التي تختلف عن شخصية والده شارلكان ؛ ذلك أن فيليب الثاني لم يكن ملكا جنديا ، و لم يمارس قط قيادة جيش ، و لم يظهر في ساحة معركة ؛ بل كان ملكا إداريا ، وكان يعاني أنذاك من ضائقة مالية ، ومن مشاكل ثورية في إيطاليا ، والبلاد المنخفضة ، ومشاكل سياسية مع إنجلترا ، وفرنسا ، وكانت أنظاره تتجه نحو عرش فرنسا ، وبريطانيا ، وقد عوضه ضم البرتغال سنة 1580م عن

---

(1) Ernest Mercier : op.cit , p 117 .

(2) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 181 .

(3) Ernest Mercier : op.cit , p 118 .

(4) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج2 ، ص 25 .

(5) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص 189 .

(6) عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ، ص 106 .

خسارته لتونس .كل هذا يفسر انصراف الملك الإسباني فيليب الثاني عن حوض البحر المتوسط ، وشمال أفريقيا ، ورغبته في وضع حد للصراع مع العثمانيين [1].

لقد كان فتح تونس من طرف العثمانيين ؛ ضربة مؤلمة للمشروع الإسباني في شمال أفريقيا ، وانتصارا إسلاميا ، عوّض هزيمة ليبانت ، كما كان بداية لتراجع القوة الإسبانية ، وتجربتها في البحر المتوسط . فإذا كان الإسبان قد حلقوا للعثمانيين ذقنهم في ليبانت ، فإن العثمانيين قطعوا لهم يدهم في تونس [2]. لقد اتفقت الدولة العثمانية وإسبانيا على وضع حد للصراع بينهما ، وتم عقد هدنة في سنة 1577م ، وسيجددونها مرات عدة حتى عام 1593م [3]. لقد كان ذلك إنهاء لمرحلة من الصراع بين قوتين عظيمتين ؛ أي أن الحرب المقدسة لديهما ،والتي كانت ظاهرة القرن 16م ، ستأخذ في القرن التالي صبغة القرصنة[3]. وقد استمر العثمانيون في استقبال مبعوثي المورسكيون ، الذين كلفوا بطاب النجدة ، والمساعدة وانطلاقا من سنة 1580م و1591م قامت الدولة العثمانية بالتحضير لمساعدة الأندلسيين ضد إسبانيا ، وقد سخرت الإيالات المغربية لخدمة المشروع الموريسكي خلال القرن 16م [4] . فقد استقبلت تونس في سنة 1609م أكثر من ثمانين ألف اندلوسي ممن شردهم إسبانيا بعد الطرد النهائي [5].

ومما سبق نستنتج :

- إن الدولة الحفصية التي حكمت مدة زمنية طويلة ؛ ابتداء من القرن 13م ، و دخلت في مرحلة الضعف مع نهاية القرن 15م ، وبداية القرن 16م، مثل بقية الكيانات المغربية الأخرى .
- خضعت الموانئ الحفصية للاحتلال الإسباني مع بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي مثل : بجاية ، طرابلس ، وحلق الوادي .
- لم تستطع الدولة الحفصية الدفاع عن مواقعها ، أو تحريرها ؛ بل ذهبت إلى أبعد من ذلك عندما تعاملت مع الإسبان ، وأعلنت التبعية لهم .

---

[1] محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 51 .

[2] DE Grammont : op.cit , p 117 .

[3] شمس الدين الكيلاني : المرجع السابق ، ص 138 .

[3] جون وولف : المرجع السابق ، ص 93 .

[4] عبد الجليل التميمي : الدولة العثمانية وقضية المورسكيين ، المرجع السابق ، ص 200 .

[5] محمد العربي الزبيري : مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث ، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1985 الجزائر ، ص 49 .

–إن الأسباب والدوافع ، التي جعلت الإسبان يعجلون باحتلال المواقع الجزائرية ، والطرابلسية ؛ هي نفسها التي جعلتهم يحتلون موانئ القسم الشرقي من المغرب الإسلامي .

–تعرضت تونس لحملات ضخمة من طرف الإسبان سنوات 1535م ، 1573م ؛ لم يكن الهدف منها القضاء على السلطة الحفصية ، بل تثبيتها ؛ لأن الهدف كان القضاء على العثمانيين ، وطردهم من تونس ، لأنهم يمثلون التهديد المستمر للإسبان في بلاد المغرب .

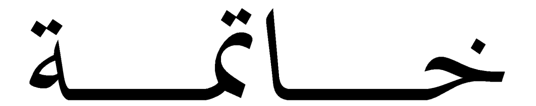
–من جهة أخرى فإن السلطة الحفصية ، تعرضت للسقوط عدة مرات على يد العثمانيين ؛ فقد أسقطها خير الدين سنة 1534م ، ثم علج علي سنة 1569م ، وأخيرا ونهائيا سنة 1574م على يد سنان باشا ، والتحالف الإسلامي .

–حاول الملوك الحفصيون في تونس التعامل مع الوضع الدولي القائم خلال القرن 16 م ؛ فقد تعامل بعضهم مع العثمانيين مثل مولاي الرشيد ، والحسن الحفصي ، ومن جهة أخرى أعلن بعضهم التبعية المباشرة للإسبان ، وذهب إلى إسبانيا للاستنجاد بهم ضد العثمانيين ، مثل محمد الحفصي ، والحسن الحفصي ، ومحمد بن الحسن آخر ملوك بني حفص .

–ارتكب الإسبان جرائم كبيرة في حق التونسيين ، وقاموا بعمليات نهب ، وحرق واسعة استهدفت المقدسات ؛ مما دلّ على الطابع الصليبي ، والحقد الديني ، الذي كان الإسبان يجاهرون به في كل حملة .

–تجمع المصدر الإسلامية أن الأهالي التونسيين ، كانوا في كل مرة يرحبون بالعثمانيين المسلمين ضد الإسبان المسيحيين ، وقد تولدت لديهم تلك القناعة ، خاصة بعد حملة شارلكان على تونس سنة 1535م .

–ظلت تونس تتأرجح بين الإسبان تارة ، والعثمانيين تارة أخرى ؛ إلى أن خضعت نهائيا للعثمانيين سنة 1574م ، الذين تفطنوا إلى ضرورة تدمير التحصينات الإسبانية بشكل كامل ؛ خاصة حلق الوادي التي أمر سنان باشا بتهديمها ، مثلما فعل ذلك خير الدين بقلعة البنيون .


خــــاتمــــة

إن موضوع العلاقات بين ضفتي المتوسط عموما يكتسي أهمية بالغة ، خاصة إذا تعلق الأمر بعلاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط وإسبانيا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، التي تعتبر من المواضيع الهامة والممتعة ، والطريفة في نفس الوقت ، فما زال هذا الموضوع يدرس باستمرار ، وتظهر فيه دراسات جديدة كل يوم . لأنه موضوع ينبع بالحياة ، وله تأثير وانعكاسات على حياة الشعوب ، وعلاقات دول ضفتي حوض البحر المتوسط إلى اليوم .

إن تلك الحقبة التاريخية التي حدّد إطارها الزماني القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ؛ كانت هامة لكلا الطرفين سواء إمبراطورية إسبانيا حامية المسيحية ، أو بلدان المغرب الإسلامي (الإيالات) على وجه الخصوص . لأن تلك المرحلة من العلاقات هي التي صنعت من بلدان المغرب الإسلامي الثلاث إيالات عثمانية ، تحولت من إمارات ضعيفة إلى قوى أصبح لها مكانتها في حوض البحر المتوسط ، ستقف في وجه المد المسيحي الصليبي المتعصب بعدما كانت ستخضع له .

وبعد الإنتهاء من هذه الدراسة توصلت إلى النتائج التالية :

- إن الوضع الدولي الذي ساد منطقة حوض البحر المتوسط خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، كان سببا مباشرا في حدوث ذلك الاحتكاك بين الضفتين ، فتولد عنه تلك العلاقات بين الإيالات العثمانية في غرب المتوسط وإسبانيا .
- إن العلاقات بين الطرفين سواء كانت علاقات حرب ، أو إتفاقيات سلم ؛ وهي قليلة إن لم نقل مفروضة من إسبانيا.كانت حتمية تاريخية لا مفر منها ، فرضتها ظروف تاريخية وجدت ، ومن أهمها التغير في موازين القوى لصالح القوى المسيحية بقيادة إسبانيا .
- إن الوضع العام الذي كانت تمر به بلدان المغرب الإسلامي (الجزائر ، طرابلس ، وتونس) كان متشابها ؛ من حيث الضعف ، والتمزق السياسي ، لذلك تعرضت لنفس المصير وهو الاحتلال الأجنبي الإسباني ، والتبعية مع مطلع القرن السادس عشر .
- لقد احتلت إسبانيا أغلب موانئ المغرب الإسلامي ؛ بدءا من المغرب الأقصى وانتهاء بطرابلس الغرب ، متبعة سياسة الاحتلال المحدود ، لأن هدفها كان السيطرة على السواحل الإسلامية المغربية ، لمنع أي حركة استرداد للأندلس من طرف المسلمين .
- إن العلاقات بين الطرفين كانت تغذيها النزعة الدينية بالدرجة الأولى ؛ خاصة من الطرف الإسباني المتعصب ، لكن ذلك لا ينفي وجود دوافع أخرى ؛ اقتصادية وأمنية ، وغيرها .

–حاولت دويلات المغرب الإسلامي التصدي للهجمة الإسبانية الحاقدة ، لكنها لم تكن قادرة ، والقوى لم تكن متكافئة ، فلذلك خضعت سواحلها للسيطرة الإسبانية .

–كان لابد من رد فعل على المشروع الاستعماري الإسباني ، وكانت المبادرة الأولى من الجزائريين ، الذين استنجدوا بالعثمانيين المسلمين ، وبذلك ظهرت إيالة الجزائر العثمانية ، التي ستأخذ على عاتقها عمليات التحرير من الاحتلال الإسباني ، وضم كل من طرابلس وتونس للخلافة العثمانية ، وتحويلها إلى إيالات .

–أما طرابلس الغرب فتأخر تحويلها إلى إيالة عثمانية عن الجزائر ، لأن مدة الاحتلال الإسباني لها كانت طويلة ، خاصة وأنه استمر من خلال فرسان القديس يوحنا ، لكن رغم ذلك استجد سكان طرابلس وتاجوراء بالعثمانيين ، من أجل تخليصهم من الاحتلال المسيحي .

–أما بالنسبة لتونس فإن وضعها اختلف عن الإيالتين السابقتين ، ويعود ذلك إلى طبيعة نظام السلطة الحفصية المتجذر في المنطقة ، رغم ضعفه . يضاف إلى ذلك استنجاد السلطة الحفصية عدة مرات بالإسبان ضد العثمانيين ، وهو ما جعلها تابعة وأخّر ضمها للخلافة العثمانية .

–عندما ارتبطت الجزائر بالخلافة العثمانية ، تولت الدفاع عن باقي الإيالات من أجل تحريرها من سلطة الإسبان ، وبعد تحرير طرابلس الغرب ستتعاون الإيالتان لمواجهة إسبانيا في حوض المتوسط ، أما تونس فتأخر تحريرها ولم يكن لها دور بارز في الصراع الإسلامي المسيحي المباشر في حوض المتوسط خلال القرن 10هـ/16م .

–رغم كل ما يمكن أن يقال عن علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط وإسبانيا ، إلا أن الميزة الغالبة عليها خلال القرن السادس عشر ؛ هي تلك الحملات الإسبانية المتتالية على بلدان المغرب الإسلامي بهدف الهيمنة على سواحلها ، لقطع أي طريق أمام مسلمي شمال إفريقيا لإعادة استرجاع الأندلس مرة أخرى ، خاصة وأن معهم مسلمي الأندلس الذين كانوا قد فروا من القتل الإسباني .

–وفي الأخير يمكن القول أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال فصل علاقة إيالة عن الأخرى مع الطرف الإسباني ، خلال الإطار الزماني المحدد أي القرن السادس عشر ، لأن الظروف كانت متشابهة ، والمصير نفسه ، رغم وجود بعض الخصوصيات الاستثنائية ، لكن ميزة تلك العلاقات كانت نفسها ، وانتهت بالكيفية ذاتها .

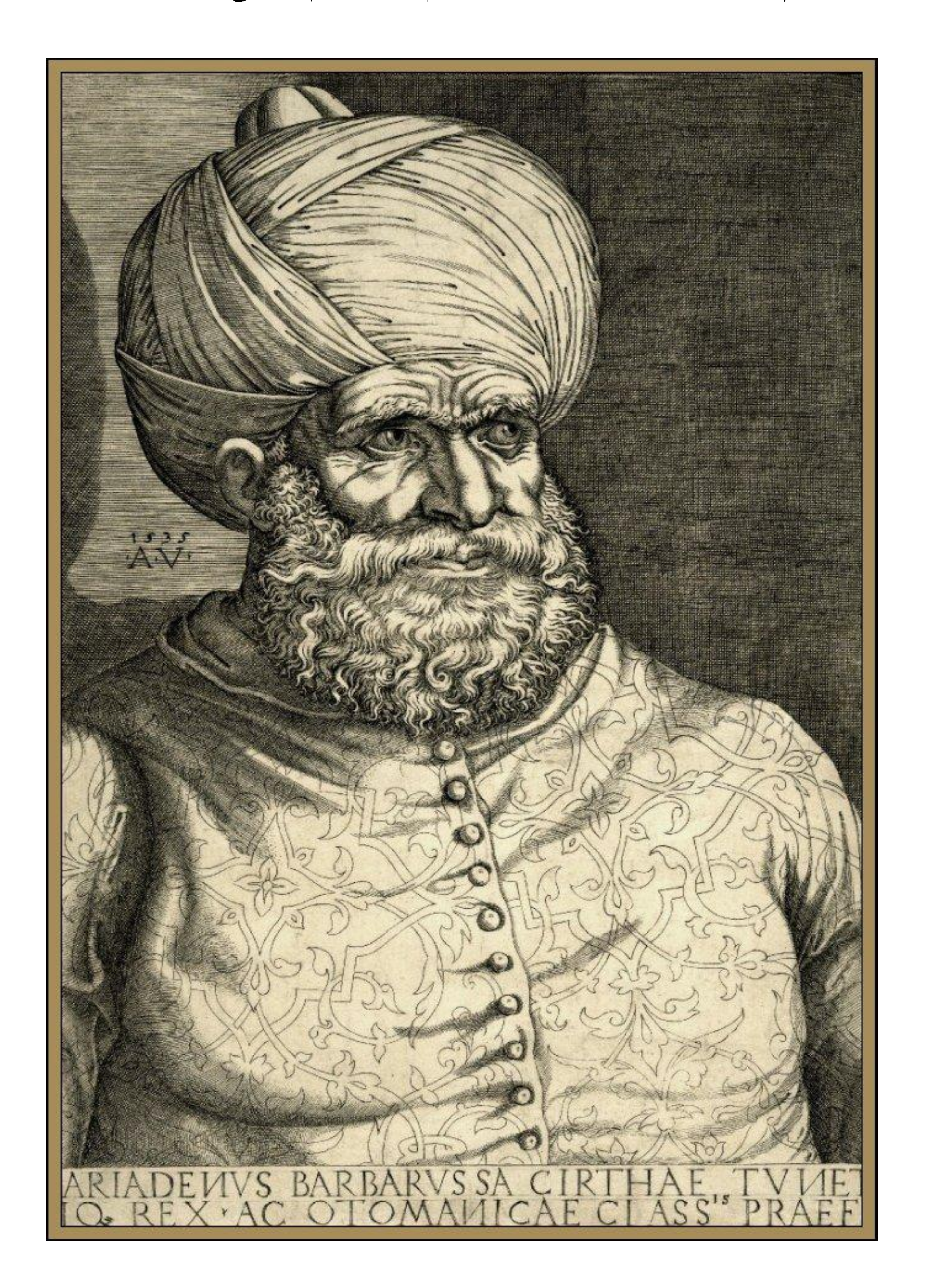
–بعد أن كانت بلدان المغرب الإسلامي مشروعا استعماريا إسبانيا ، تحولت إلى قوى بحرية هامة

في حوض البحر المتوسط ، بعدما أصبحت إيالات عثمانية ، وارتبطت بشخصيات جزائرية مثل: خير الدين ، حسن باشا ، علج علي ، وأخرى طرابلسية كدرغوث رايس . نقلوا الصراع من حدود الضفة الجنوبية للمتوسط إلى ضفته الشمالية ، وفي عمق العالم المسيحي .

–إن علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط وإسبانيا ، لا يمكن فصلها تاريخيا عن الصراع الإسلامي المسيحي في حوض البحر المتوسط خلال الفترة الحديثة ، بل هي جزء هام منه ، إن لم نقل أهم مرحلة فيه .

المـــــلاحق

الملحق رقم : 01 خير الدين بربروس . مولود قاسم نايت بلقاسم : المرجع السابق ، ص 132 .



الملحق رقم 02 درغوث رايس . كاميللو مانغريني : العلاقات بين ليبيا وإيطاليا ، تاريخ البحرية الليبية ، ترجمة وتقديم : إبراهيم حمد المهداوي ، ط1 ، منشورات جامعة قار يونس ، ليبيا 1992 ، ص ص 78 – 82 .



الملحق رقم : 03 شارلكان

DE la Primaudaie : Documents inédits sur l'histoire de l'Occupation Espagnole en Afrique (1506-1574) , publies par : DE M. le Maréchal de Mac-Mahon, Duc de Magenta, extrait de la R.A,A. Jourdan, Libraire-éditeur ,Alger 1875, p4.

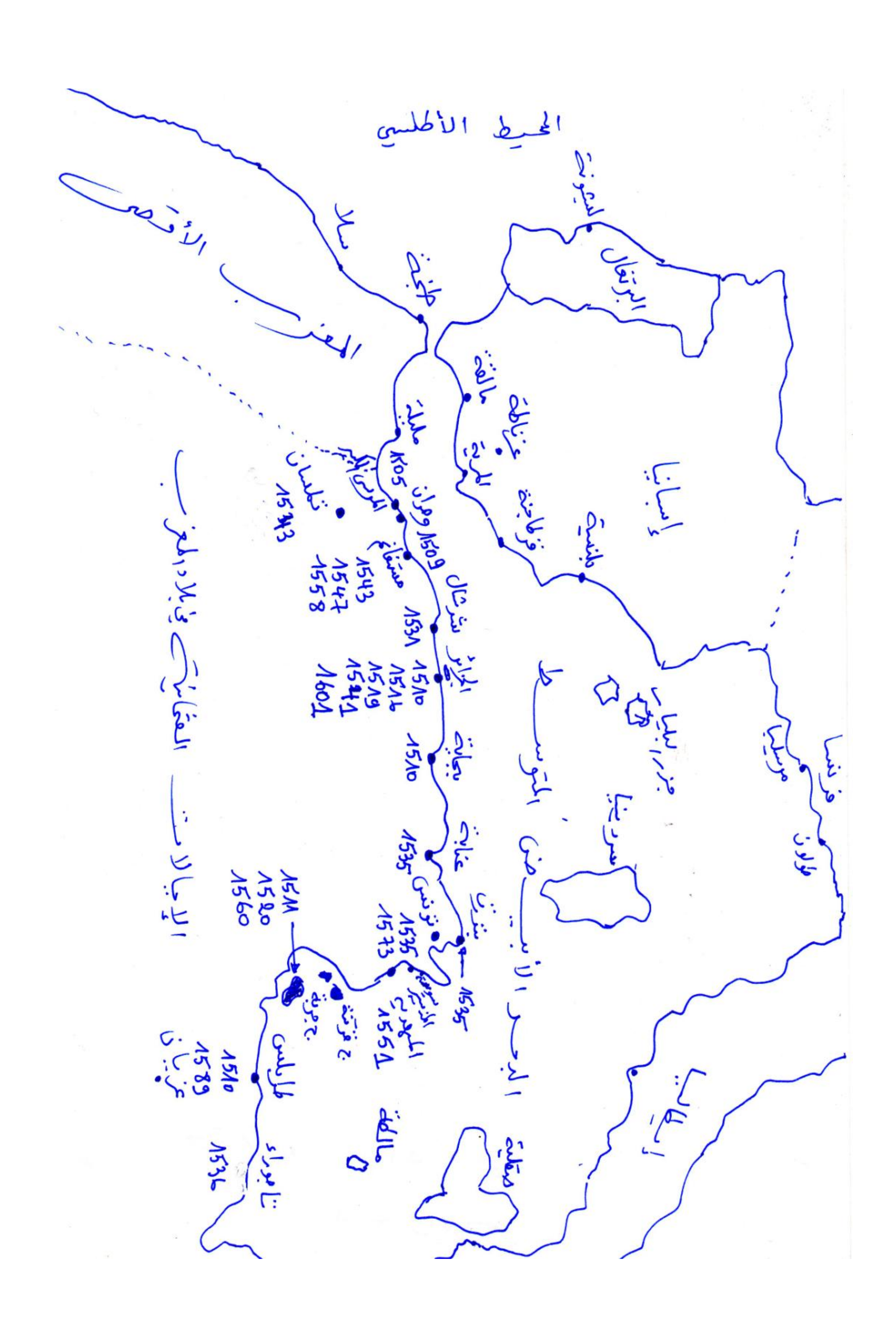


الملحق رقم : 04 فيليب الثاني

DE la Primaudaie : Documents op.cit , p 4 .



الملحق رقم : 05 خريطة الحملات الإسبانية على الإيالات العثمانية في غرب المتوسط خلال القرن 16



الملحق رقم : 06 كرونولوجيا لأهم الحملات الإسبانية على الإيالات العثمانية في غرب المتوسط خلال القرن السادس عشر

التاريخ	الحملات الإسبانية
1505م	-احتلال المرسى الكبير .
1509م	-احتلال مدينة وهران .
1510م	-احتلال احتلال مدينتي : بجاية ، وطرابلس الغرب .
	-احتلال البينيون ، وفرض التبعية على مدن : الجزائر ، دلس ، مستغانم .
1511م	-حملة بيدرو نفارو على جزيرة جربة وقرقنة .
1520م	-الحملة على جزيرة جربة وفرض التبعية عليها للإسبان .
1531م	-حملة أندري دوريا على مدينة شرشال .
1535م	-حملة شارلكان على تونس ، واحتلال بتررت ، والمهدية ، وحلق الوادي .
1536م	-حملة أورليو بوتيجيلا حاكم طرابلس على مدينة تاجوراء .
1541م	-حملة شارلكان على مدينة الجزائر .
1543م	-حملة دالكودايت على تلمسان ، ثم على مستغانم .
1547م	-حملة دالكودايت الثانية على مستغانم .
1551م	-حملة أندري دوريا على المهدية ، وتدميرها بأمر من شارلكان .
1558م	-حملة دالكودايت على مزغران ، ومستغانم ، ومصرعه فيها .
1560م	-الحملة الإسبانية المسيحية على جزيرة جربة ، وفشلها .
1573م	-حملة دون جوان النمساوي على تونس ، واحتلالها .
1589م	-حملة فرسان مالطة على طرابلس الغرب ، وفشلها .

الملحق رقم : 07 أهم الشخصيات التي ساهمت في العلاقات بين الضفتين خلال القرن 16م

أ)– الضفة الشمالية :

ملوك إسبانيا	فرديناند (1467– 1516 م) ، إيزابيلا (1474– 1505 م) شارلكان (1516 – 1566 م) ، فليب 2 (1566 – 1598 م) .
ملوك فرنسا	فرنسوا 1 (1515 – 1547 م) ، هنري 2 (1547 – 1559 م) ، شارل 9 (1560 – 1574 م) .
رجال الدين	اخسيمينس (1436 – 1517 م) ، الكسندر 6 (1492 – 1503م) ، ليون 10 (1513– 1521 م) ، كليمنت 7 (1523 – 1534 م) ، بولس 3 (1534 – 1549م) .
القادة العسكريون	بيدرو نفارو ، الكونت دالكودايت (1534 – 1558) ، أندري دوريا (1466 – 1560 م) ، دون جوان (1545 – 1578 م).

ب)– الضفة الجنوبية :

الحكام العثمانيون	سليم 1 (1512– 1520 م) ، سليمان القانوني (1520- 1566 م) ، سليم 2 (1566 – 1574 م) ، مراد 3 (1574 – 1595 م) .
حكام الجزائر	عروج (1514 – 1518 م) ، خير الدين (1518 – 1547 م) ، حسن أغا (1534 – 1544م) ، حسن باشا حكم ثلاث مرات ينظر التهميش رقم 7 ص 52 ، صالح رايس (1552 – 1556م) ، حسن قورصو (1556 – 1557م) ، قليج علي (1568 – 1571م) ، أحمد عراب (1571 – 1574م) ، رمضان باشا (1574 – 1577م) .
حكام طرابلس	مراد أغا (1551 – 1553م) ، درغوث رايس (1553 – 1565م) ، علج علي (1565 – 1568م) ، مصطفى باشا (1568 – 1577م) .
حكام تونس	الحسن الحفصي (1526– 1542م) ، أحمد الحفصي(1542– 1569م) محمد بن الحسن (1573 – 1574م) ، حيدر باشا (1574 – 1591).

الملحق رقم : 08 الصفحة الأخيرة من معاهدة 1535 . توفيق المدني : حرب الثلاثمائة ، المرجع السابق ، ص 235 .



البيبليوغرافيا

قسمت بيبليوغرافيا موضوعي إلى :

1 – المصادر والمراجع العربية والمعرّبة .

2 – المصادر والمراجع الأجنبية .

3 – المقالات والدوريات العربية .

4 – المقالات والدوريات الأجنبية .

5 – الرسائل الجامعية .

ببيليوغرافيا الموضوع :

تمّ ترتيبها دون الأخذ ب: ال ، ابن ، أب :

1)- المصادر والمراجع العربية والمعربة :

1- التر عزيز سامح : الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ، ترجمة : عامر محمود علي ، ط1 ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت 1989 .

2- برنشفيك روبار : تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى القرن 15م ، نقله إلى العربية : الساحلي حمادي ، 2ج، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، ج1 ، بيروت لبنان 1988 .

3- البطريق عبد الحميد ونوار عبد العزيز : التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا ، دار النهضة العربية ، بيروت 1973 .

4- بيضون جميل وآخرون : تاريخ العرب الحديث ، ط 1، دار الأمل للنشر والتوزيع، أربد 1991 .

5- التميمي عبد الجليل : الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني ، جمع وتقديم : التميمي عبد الجليل ، تونس 1984 .

6- جلال يحي : تاريخ المغرب الكبير ، دار النهضة العربية ، ج3 ، بيروت 1981 .

7- جوليان شارل أندري : تاريخ إفريقيا الشمالية ، ترجمة : مزالي محمد وبن سلامة البشير ، ط2 ، الدار التونسية للنشر ، ج2 ، تونس 1983 .

8- الجيلالي عبد الرحمان بن محمد : تاريخ الجزائر العام ، ج3 ، دار الثقافة ، بيروت 1983 .

9- الجزائري الحسن محمد بن عبد القادر : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ، المطبعة التجارية ، ج1 ، الإسكندرية 1903 .

10- حساني مختار : الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدولة الزيانية ، 3ج ، ط1 ، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر 2007 .

11- بن خروف عمار : العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب الأقصى في القرن 10هـ / 16م ، دار الأمل للنشر والتوزيع ، ج1 ، الجزائر 2006 .

12- خير فارس محمد : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ، ط1 ، مكتبة دار الشرق ، بيروت 1969 .

13- ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني : المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، ط1، المطبعة التونسية ، تونس 1286هـ /1870م .

14- رايمون اندريه : المدن العربية الكبرى في العهد العثماني ، ترجمة : فرج لطيف ، ط2 ، دار الفكر الإسلامي للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة 1991 .

15- روسي ايتوري : طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا ، ترجمة وتقديم : التليسي خليفة محمد ، ط1 ، مؤسسة الثقافة الليبية للتأليف والترجمة والنشر ، طرابلس 1969 .

16- الزبيري محمد العربي : مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث ، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1985 الجزائر .

17- أبو زيدون وديع : تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط ، ط1 ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان 2003 .

18- الشريف محمد الهادي : تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال ، تعريب : محمد الشاوش ومحمد عجينة ، دار سراس للنشر ، تونس 1993 .

19- شوفالييه كورين : الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510-1541) ، ترجمة :حمادنة جمال ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1991 .

20- الشيخ رأفت : تاريخ العرب الحديث ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، مصر 1414هـ/1994 .

21- الصلابي محمد علي : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ط1 ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة ، القاهرة 2005 .

22- ابن أبي الضياف أحمد : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، الدار التونسية للنشر ، ج1 ،ج2 ، تونس 1977 .

23- عباد صالح : الجزائر خلال العهد العثماني (1514-1830) ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر 2005 .

24- العربي إسماعيل : تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986 .

25- بوعزيز يحي : علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا (1500-1830) ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية ، الجزائر 1980 .

26- بوعزيز يحي : الموجز في تاريخ الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ج2 ، الجزائر 2007 .

27- عطا الله الجمل شوقي : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ، ط1 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1977 .

28- علي عامر محمود وخير فارس محمد : تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى وليبية)، منشورات جامعة دمشق ، ج2 ، سوريا 2000/1999 .

29- فيشر هربرت : أوصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة إلى الثورة الفرنسية ، ترجمة : راشد زينب عصمت وآخرون ، ط3 ، دار المعارف ، مصر 1970 .

30- قنان جمال : نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830 ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر 1987 .

31- كارདياك لوي : المورسكيون الأندلسيون والمسيحيون ، تعريب وتقديم : التميمي عبد الجليل ، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية ، تونس 1983 .

32- كاربخال مارمول : إفريقيا ، ترجمة : حجي محمد وآخرون ، دار نشر المعرفة ، ج2 ، ج3، الرباط 1989/1988 .

33- مجهول : غزوات عروج وخير الدين ، تصحيح وتعليق : عبد القادر نور الدين ، المطبعة الثعالبية ، الجزائر 1335هـ/1934م .

34- المحامي محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق : إحسان حقي ، ط2 ، دار النفائس ، بيروت 1988 .

35- محمد بن خليل غلبون الطرابلسي أبي عبد الله : تاريخ طرابلس الغرب المسمى بالتذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، نشر وتعليق وتصحيح : احمد الزاوي الطرابلسي الطاهر ، المطبعة السلفية ، القاهرة 1349هـ .

36- محمد سيد أشرف صالح : أوصول التاريخ الأوربي الحديث ، ط1 ، دار واتا للنشر الرقمي ، قطر 2009 .

37- المدني احمد توفيق : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792 ، ط3 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984 .

38- الميلي مبارك بن محمد : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، تقديم وتصحيح : الميلي محمد بن مبارك ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ج2 ، الجزائر 1989 .

39- النائب الأنصاري احمد بك : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، ط2 ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس الغرب ليبيا .

40- النائب الأنصاري أحمد بن الحسين : نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان ، تقديم وتعليق : محمد عزب محمد زينهم ، دار الفرجاني للنشر والتوزيع ، ليبيا 1994 .

41- نايت بلقاسم مولود قاسم : شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 ، ط1، دار البعث للطباعة والنشر ، ج1 ، قسنطينة 1985 .

42- الوزان الحسن بن محمد : وصف إفريقيا ، ترجمة : حجي محمد وآخرون ، ط2 ، دار المغرب الإسلامي ، 2ج ، بيروت 1983 .

43- وولف جون .ب : الجزائر وأوربا (1500-1830) ، ترجمة وتعريب : سعد الله أبو القاسم ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986 .

44- ياغي أحمد إسماعيل وشاكر محمود : تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، دار المريخ ، ج2 ، المملكة العربية السعودية 1993 .

45- ياغي أحمد إسماعيل : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ط2 ، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية 1998 .

2)- المصادر والمراجع الأجنبية :

1-Belhamissi Moulay : histoire de la marine Algérienne 1516-1830 , ENAL , Alger 1983 .

2-Belhamissi Moulay : histoire de Mostaganem , centre National d'études historique , Alger 1976 .

3-Braudel Fernand : le Méditerranée et le monde méditerrané à l'époque de Philippe 2 , T2 , 2eme édition , librairie Armand colin , Paris 1966 .

4-Féraud L. Charles : Annales Tripolitaines , publier avec une introduction et des notes par Augustin Bernard , librairie Tournier , Tunis , librairie vurbert , Paris1927 .

5-DE Grammont Henri . D : histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830) , Ernest lerroux . éditeur , Paris 1887 .

6-Haédo Diégo de : histoire des rois d'Alger , traduit par : DE Grammont H.d , Adolphe Jourdan librairie –éditeur , Alger 1881 .

7-Hefele Dr . CH . J : le cardinale Ximenes et l'église d'Espagne , traduit par : A.sisson M. l'abbé et A.crambon M. l'abbé , 2eme édition , J.B.pélagand imprimeur – librairie , Paris 1860 .
8-Mercier Ernest : histoire de l'Afrique septentrionale , T3 , Ernest lerroux éditeur , Paris 1891 .
9-Pichot Amedee : Charles – Quint chronique de sa vie intérieure et sa vie politique , furne et ce librairies éditeur , Paris 1854 .
10- DE la Primaudaie : Documents inédits sur l'histoire de l'Occupation Espagnole en Afrique (1506-1574) , publies par : DE M. le Maréchal de Mac-Mahon, Duc de Magenta, extrait de la R . A, A. Jourdan , Libraire - éditeur , Alger 1875 , p 4.
11-Rousseau Alphonse : Annales Tunisiennes ou aperçu sur la régence de Tunis , éditeur Bouslama , Tunis 1980 .

3)- المقالات والدوريات العربية :

1- بالحميسي مولاي : غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر ، مجلة الأصالة مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، العدد 8 ، الجزائر ماي – جوان 1972 .
2- التميمي عبد الجليل : أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول في سنة 1519 ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 6 ، تونس جويلية 1976 .
3- التميمي عبد الجليل : الخلفية الدينية للصراع الإسباني – العثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 10-11 ، تونس جانفي 1978 .
4- التميمي عبد الجليل : الدولة العثمانية وقضية المورسكيين ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 23-24 ، تونس نوفمبر 1981 .
5- التميمي عبد الجليل : رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541 ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 3 ، تونس جانفي 1975 .
6- الدغيم محمود السيد : تاريخ البحرية العثمانية حتى نهاية عهد الخليفة سليم الثاني ، مقال في مجلة الحضارة الإسلامية وعلم البحار (بحوث ودراسات) ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة 1994 .
7- الصباغ ليلى :ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ/أواخر عام 1568م والدولة العثمانية ، مجلة الأصالة مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، العدد 27 ، الجزائر 1975 .

8- كولان ن ج .س : الأندلس ، ترجمة : خورشيد إبراهيم وآخرون ، كتب دائرة المعارف الإسلامية 2 ، ط1 ، دار الكتاب اللبناني المصري ، مصر 1980 .

9- الكيلاني شمس الدين : العثمانيون والأوربيون في القرن السادس عشر ، مجلة الاجتهاد ، دار الاجتهاد ، العدد 43 ، بيروت 1999 .

10- مانغريني كاميللو : العلاقات بين ليبيا وإيطاليا ، تاريخ البحرية الليبية ، ترجمة وتقديم : المهداوي إبراهيم محمد ، ط1 ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي 1992 .

4)- المقالات والدوريات الأجنبية :

1- Berbrrugger A : Négociation entre Hassan Aga et le comte d'Alcaudétte gouverneur d'Oran , 1541-1542 , R.A , T9 , Alger 1865 .

2- Braudel Fernand : les Espagnoles et l'Afrique du Nord de 1492-1577 , R.A , T19 , Alger 1928 .

3- DE La primaudaie Elie : documents inédits « Comte rendu d'une lettre de l'Empereur écrite du camp devont la Goulette 29 juin 1535 » , R.A , T 19 , Alger 1875 .

4- DE La primaudaie Elie : documents inédits « lettre de sa majesté au commandant de Bougie , Tunis , 23 juillet 1535 » , R.A , T19 , 1875 .

5- DE La primaudaie Elie : documents inédits « lettre écrite d'Alger par un espion Juif » , R.A , T 19 , Alger 1875 .

6- DE La primaudaie Elie : documents inédits « Relation du frères Juan de Iribes sur les événements du Tunis , 4janvier 1535 » , R.A , T19 , Alger 1875 .

7- DE La primaudaie Elie : documents inédits sur l'histoire de l'occupation Espagne en Afrique (1506-1574) , « lettre du comte d'Alcaudétte à sa majesté , Oran 12out 1536 », R.A, T21 ,Alger 1877 .

8- DE La primaudaie Elie : documents inédits « lettre de l'ingénieur Libarno à sa majesté , Bougie, 19janvier 1543, R.A, T21 ,Alger 1877 .

9- Watbled et Monnerau : « Négociation entre Charles-Quint et Kheir-Eddine 1538-1540 » , R.A , T15 , Alger 1871 .

5)- الرسائل الجامعية :

1- سي يوسف محمد : قيلج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية ، رسالة ماجستير ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، الجزائر 1988 .

2- فكاير عبد القادر : الصراع الجزائري الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م ، رسالة ماجستير ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، الجزائر 2001/2000 .

الفهارس

1)- فهرس الأعلام :

ـش ـ

ـص ض ط ـ

ـع غ ـ

ـف ـ

ـق ـ

2)– فهرس الأماكن والبلدان :

– أ–

–ب–

ـت ـ

ـج ـ

ـكـ

ـلـ

ـمـ

–ن–

–هـ–

–و–

3)– فهرس القبائل والجماعات :

4)- فهرس المحتوى :

المحتويات **الصفحة**

Titre : les relations des Régences Ottomanes à l'ouest de la Méditerranée au XVIème siècle :

Résumé

L'ancienneté des relations entre les deux rives de la Méditerranèe n'a d'égale que l'importance stratégique et économique du Bassin Méditerranéen .

Les relations entre l'Espagne et les Régences Ottomanes à l'Ouest Méditerranéen au XVI ème siècle , comptent parmi les plus importantes qu'aient connues les deux rives .

Et c'est le début des relations entre les pays de la rive Nord et ceux de la rive Sud , durant la periode moderne .

Le premier type de relations en date fut celles entretenues par la Régence d'Alger avec l'Espagne au XVIe . Ces relations se caractérisaient par des agressions continues et des attaques constantes dont la cause était les incessantes tentatives espagnoles d'imposer leur hégémonie sur les ports algériens , et ce depuis 1505 .

La relation Algéro-Ottomane a donné naissance à une nouvelle étape dans les relations bilatérales entre les deux parties qui se caractérisent par des tentatives de libération algériennes et la contribution de la Marine Algérienne dans les projets de l'Etat Ottoman dans le Bassin Méditerranéen contre l'Espagne.

Quant au deuxième type de relations, il liait Tripoli à l'Espagne à la même période. Ces relations se caractérisaient par d'incessantes agressions vu que Tripoli était sous domination espagnole de 1510 à 1530 avant d'être livrée aux Cavaliers Maltais qui en gardèrent le contrôle jusqu'en 1551.

A partir de cette date(1551), commence une nouvelle étape qui se caractérise par la libération de Tripoli par les forces Ottomanes. Après cela, Tripoli devient une Régence Ottomane et contribue aux projets Ottomans dans le Bassin Méditerranéen contre l'Espagne.

Le troisième type de relations, unit, au XVIe s., l'Espagne et la Tunisie. Ces relations se caractérisent par l'occupation Espagnole des Côtes Tunisiennes sous les Hafsides au début du XVIe s.

En 1535, la Tunisie devient « Protectorat espagnole » tel que décidé par Charlequint qui occupait le territoire.

Dès lors, ce pays devient, par excellence, l'aire de tous les affrontements entre l'Espagne et les Ottomans durant la période allant de 1569 à 1573.

L'année d'après (1574), l'avènement de la libération de la Tunisie du joug Espagnole par les Ottomans fait d'elle une Régence Ottomane où des milliers de Maures fuyant l'Espagne, sont venus s'établir.

En conclusion, la relation entre les Régences Ottomanes et l'Espagne au XVIe s. se caractérise, un siècle durant, par d'incessantes agressions et des guerres continues.